

نور اليقين

في سيرة سيد المرسلين

الرحماني

تحقيق

الشيخ قاسم الشماحي الرفاعي

المكتبة العصرية

مكي - بيروت

جميع الحقوق محفوظة للناسر

الطبعة الخامسة

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

شركة إنشاء شريف الانصاري
للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار السنوية جيت
المطبعة العصرية

بيروت - ص ١١/٨٣٥٥ - تلفاكس ٠٠٩٦١١٦٥٥٠١٥

ضيد - ص ٢٢١ - تلفاكس ٠٠٩٦١٧٧٢٣١٧

تقديم

«نور اليقين في سيرة سيد المرسلين»

للمرحوم العلامة المؤرخ الشيخ
محمد الخضري بك

لعل هذا السفر القيم من أوائل ما ألفه المؤرخ الإجتماعي العلامة الشيخ محمد الخضري رحمه الله تعالى ورضي عنه .

ولقد سعدت في أيام طلبي للعلم الشريف بهذا الكتاب المسند من كتاب الله تبارك وتعالى وبالصحيح من أحاديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم كتاب حصل به النفع العظيم ، لكثير من طلاب العلم الشرعي لأنه السهل الممتنع ، والمختصر المفيد ، بعبارة سلسلة ، وكلمات متخيرة ، تدل على رسخ قلم المؤلف الكبير في علمي اللغة والأدب .

واليقين - كما في معاجم اللغة - ازالة الشك والعلم ، وتحقيق الأمر ، ونقيضه الشك .

وفي الاصطلاح : اعتقاد الشيء بأنه كذا ، مع اعتقاد بأنه لا يمكن إلا كذا ، مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال . . .

واليقين عند أهل الحقيقة : رؤية العيان ، بقوة الإيمان ، لا بالحجة والبرهان .

وقيل : مشاهدة الغيوب ، بصفاء القلوب ، وملاحظة الأسرار ، بحافظة الأفكار .

والفرق بين علم اليقين، وعين اليقين. ان علم اليقين هو ادراك الشيء من غير مشاهدة، وعين الرؤية، التي اليقين، هو العلم به مع المشاهدة. واما حق اليقين، فهو المشاهدة مع الملاصقة والممازجة.

وقد اخبر الله بكتابه عن المعنيين الأولين في سورة التكاثر. قال الله تعالى: «كلا لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم، ثم لترونها عين اليقين».

واخبر بالمعنى الثالث، الذي هو حق اليقين في سورة الواقعة حيث قال: «واما ان كان من المكذبين الضالين، فنزل من حميم، وتصلية جحيم، ان هذا لهو حق اليقين».

ولا ريب ان روحانية رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم اضفت روحانية عظيمة على هذا الكتاب ومؤلفه - على الرغم من كثرة المؤلفين في السيرة - وبقي متداولاً بين أيدي المسلمين، وأعيد طبعه مراراً وتكراراً دليل واضح على وجود الإخلاص الحقيقي للمؤلف تغمده الله برحمته.

وصاحب هذه السيرة هو «محمد رسول الله»، خاتم النبيين وإمام المرسلين، وصفوة الخلق عند رب العالمين. ولئن تأخرت طيئته، فقد عرفت قيمته، فهو خزانة السر، وموضع نفوذ الأمر، فلا ينفذ أمر إلا منه، ولا ينقل خير الا عنه.

اخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلوات الله وسلامه عليه انه قال: (ان الله عز وجل كتب مقادير الخلق، قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة، وكان عرشه على الماء، ومن جملة ما كتب في الذكر، وهو أم الكتاب: ان محمداً خاتم النبيين).

وروى الإمام أحمد، والبيهقي والحاكم. وقال صحيح الإسناد، عن العرباض بن سارية، عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: (اني لعند الله خاتم النبيين، وان آدم لمنجدل في طيئته).

وان محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم هو المقصود من خلق
النوع الإنساني، وهو عينه وخلاصته وواسطة عقده. كما صرحت
بذلك الأحاديث.

ورحم الله من قال:

محمد ما أحلى شمائله وما ألد حديثاً فيه ذكر محمد
محمد كل الحسن من بعض حسنه وما حسن كل الحسن غير محمد
فصلى الله على هذا النبي الرسول، وسلم عليه تسليماً كثيراً.
ورحم الله الشيخ الخضري على تحفته المخلصة، نور اليقين في
سيرة سيد المرسلين وجزاه الله خير الجزاء وأكثر من أمثاله بين العلماء
العاملين.

والحمد لله رب العالمين

الفقير الى الله القدير
قاسم ابن السيد
محمود الشماعي الرفاعي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(و به نستعين)

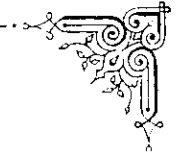
نبذة عن حياة المؤلف الشيخ محمد الخصري

هو محمد بن عفيفي الباجوري، المعروف بالشيخ الخصري: باحث خطيب من العلماء بالشرعية والأدب وتاريخ الإسلام، مصري، ولد سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) وكانت إقامته في «الزيتون» من ضواحي القاهرة، توفي ودفن بالقاهرة تخرج بمدرسة دار العلوم، وعين قاضياً شرعياً في الخرطوم، ثم مدرّساً في الخرطوم، ثم مدرّساً في مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة، مدة ١٢ سنة، وأستاذاً للتاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية، فوكيلاً لمدرسة القضاء الشرعي، فمفتشاً بوزارة المعارف.

وتوفي رحمه الله سنة ١٣٤٥ هـ. ولقد قال عنه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: كان - رحمه الله - عالماً كالكتاب وكاتباً كالعلماء، وبذلك تميز وظهر، وهو علم مستفيض لا يقف عند حدّ الصحيفة أو الكتاب، وهو حريص على وقته، مجّد في عمله، دائب على طريقته، آخذ بالأخلاق الفاضلة، مُصلِح مُربٍّ غيور، كل ذلك في سَمَتٍ وهيبة، وجزالة رأي، وشرف همّة، وإخلاص حق الإخلاص. فجزاه الله خيراً وغفر له وأدخله فسيح جنّاته، إنه سميعٌ مجيب.

أهم كتبه:

- ١ - أصول الفقه.
- ٢ - تاريخ التشريع الإسلامي.
- ٣ - نور اليقين في سيرة سيد المرسلين.
- ٤ - إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء.
- ٥ - محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية جزءان.
- ٦ - مهذب الأغاني.
- ٧ - محاضرات في نقد كتاب الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين.
- ٨ - الغزالي تعاليمه وآراؤه.
- ٩ - دروس تاريخية.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

نحمدك يا من أوضحت لنا سُبُل الهداية ، وأزحت عن بصائرنا غشاوة الغواية ، ونصّلي ونسلم على مَنْ أرسَلته شاهداً ومُبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وعلى الأصحاب الذين هجروا الأوطان يبتغون من الله الفضل والرضوان ، والأنصار الذين آووا ونصروا وبذلوا لإعزاز الدين ما جمعوا وما أدخروا .

أما بعد : فيقول محمد الخضري بن المرحوم الشيخ عفيفي الباجوري : كنت أجد من نفسي منذ النشأة الأولى ارتياحاً لقراءة تواريخ السالفين وقصص الغابرين ، وأجدها لعقل الانسان أحسن مهذب وأنصح معلّم ، وكنت أرى في تاريخ نبينا عليه الصلاة والسلام وما لقيه من أذى قومه حينما دعاهم إلى الحق ، وعظيم صبره حتى هجر أوطانه وبلاده ، أعظم مُربٍّ لأفكار المسلمين ، فإنه يدلّهم على ما يجب اتباعه ، وما يلزم اجتنابه ، ليسودوا كما سادَ سابقوهم ، وخصوصاً ما يتعلق بالحكام ، من اجتذاب النفوس النافرة والتأليف بين القلوب المختلفة ، وما يتعلق بقواد الجيوش ، من تأليف الرجال وإحكام المعدّات حتى يتم لهم النصر على أعدائهم ، وما يتعلق بالعامّة ، من اتحاد قلوبهم وصيرورتهم يداً على مَنْ سواهم . فكنتُ أجد من قراءتها ارتياحاً عظيماً وكانت نفسي كثيراً ما تأسف

على ترك المسلمين لها ! فقلّما أجد من يشتغل بها ، ولكنني كنت أقدم لهم العذر بتطويل الكتب المؤلفة في هذا الموضوع . فلما قدمت مدينة المنصورة جمعتني النوادي مع محمود بك سالم ، القاضي بمحكمة المنصورة المختلطة فوجدت منه علماً بدينه تقف دونه فحول الرجال ، وتأخر عن مسابقته فيه الأبطال ، فقلّما توضع مسألة دينية إلا وجدته مبرزاً فيها مفصلاً عن الجواب عنها ، أما علمه بسيرة الرسول الأكرم ﷺ فعنده منها الخبر اليقين ، وكنت كثيراً ما أسمعته يتشوّف لعمل سيرة خالية من الحشو والتعقيد تنتفع بها عامة المسلمين ، فقلت : يا الله ! لقد وافق هذا السيد الكريم ما في نفسي ولكنني كنت أرى في عزيمة قصوراً عن تنفيذ رغبته وتتميم أمنيته فإن المقام عظيم وصعوباته أعظم ، ولكن لم أر من الأمر بدءاً تلقاء ما كنت أسمع من كبار رجال المنصورة ، فإنهم أكثرنا من الأمانى لعمل هذا الكتاب العميم النفع الجزيل الفائدة ، فقامت معتمداً على الله راجياً منه أن يوفّقني لما فيه رضاه ، وواصلت السير بالسرى حتى بلغت المنى ، فجاء بحمد الله سهل المنال عذب المورد تنتفع به العامة ، وترجع إليه الخاصّة ، وقد كان موردي في تأليفه : القرآن الشريف ، وصحيح السنة مما رواه الإمامان البخاري ومسلم ، ولم أخرج عنهما إلا فيما لا بدّ من تفهيم العبارات ، فكان يساعدي « الشفاء » للقاضي عياض ، و « السيرة الحلبية » ، و « المواهب اللدنية » للقسطلاني ، و « إحياء علوم الدين » للغزالي . هذا ، وأسأل الله من فيض فضله أن يوفّق أئمتنا وأمرأنا للاقتداء بسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ وإحياء معالم دينه حتى يؤيدوا بروح من عند الله . وقد آن أن نشرع فيما قصدناه مستعينين بحول الله فنقول :

النسب الشريف

السيد الأكرم الذي شَرَّفَ الناس بوجوده هو (محمد بن عبد الله)^(١) من زوجه آمنة بنت وَهَبِ الزُّهْرِيَّة^(٢) القرشِيَّة (ابن عبد المطلب)^(٣) من زوجه فاطمة بنت عمرو المخزومية^(٤) القرشِيَّة . وكان عبد المطلب شيخاً معظماً في قريش يَصُدُّون عن رأيه في مشكلاتهم ويقدِّمونه في مهماتهم

(١) عبد الله بن عبد المطلب الملقب بالذبيح أبو قثم الهاشمي القرشي والد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولد بمكة وهو أصغر أبناء عبد المطلب ، وكان أبوه قد نذر لئن ولد له عشرة أبناء وشبوا في حياته ليحزن أحدهم عند الكعبة فشب له عشرة ، فذهب بهم إلى هبل (أكبر أصنام الكعبة في الجاهلية) فضربت القداح بينهم فخرجت على عبد الله وكان أحبهم إليه ففداه بمئة من الإبل فكان يعرف بالذبيح ، وزَوْجُهُ آمنة بنت وهب فحملت بالنبي ﷺ ورحل في تجارة إلى غزاة وعاد يريد مكة فلما وصل إلى مشارف المدينة مرض ، ومات بها وقيل مات بالأبواء بين مكة والمدينة (الاعلام ٤/ ١٠٠) .

(٢) من بني زهرة بن كلاب من قريش .

(٣) عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف « أبو الحارث » زعيم قريش في الجاهلية وأحد سادات العرب ومقدميهم ، مولده في المدينة ومشاؤه بمكة كان عاقلاً ذا أناة ونجدة ، فصيح اللسان ، حاضر القلب ، أحبه قومه ورفعوا من شأنه فكانت له السقاية والرفادة ، خلص وطنه من غارة أبرهة وهو جد النبي ﷺ ، كان أبيض مديد القامة وهو الذي حفر زمزم وقصته مذكورة في كتب السير ، مات بمكة عن عمر يناهز ٨٠ سنة .

(٤) من بني مخزوم بن يقظة بن مرة من قريش .

(ابن هاشم)^(١) من زوجه سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية^(٢) (ابن عبد مناف)^(٣) من زوجه عاتكة بنت مُرّة السلمية^(٤) (ابن قصي)^(٥) من زوجه حُبَي بنت حُلَيْل الخزاعية . وكان إلى قصي في الجاهلية : حجابة البيت^(٦) ، وسقاية الحاج ، وإطعامه المسمى بالرفادة ، والندوة : هي الشورى لا يتم أمر إلا في بيته ، واللواء : لا تعقد راية لحرب إلا بيده ، ولما أشرف على الموت جعلها في يد أحد أولاده عبد الدار ، لكن بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على ألا يتركوا بني عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاز ، وكاد يفضي الأمر إلى القتال لولا أن تدارك الأمر عقلاء الفريقين ، فأعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة فدامتا فيهم إلى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب ثم لبنيه من بعده ، أما الحجابة فبقيت بيد بني عبد الدار ، وأقرها لهم الشرع فهي فيهم إلى الآن . وهم بنو شيبه بن عثمان بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ، وأما اللواء^(٧) فدام فيهم حتى أبطله الإسلام ، وجعله حقاً للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحاً له وكذلك الندوة . وقصي (ابن كلاب)^(٨) من زوجه فاطمة بنت سعد وهي يمانية من أزد شنوءة^(٩) (ابن مرة) من زوجه هند بنت سرير من بني فهر بن

(١) هو أول من سَنَّ الرحلتين لقريش للتجارة ، رحلة الشتاء ورحلة الصيف وقد ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم ﴿ لا يلاف قريش لا يلاف قريش لا يلاف قريش رحلة الشتاء والصيف ﴾ .
(٢) الخزرج إحدى القبيلتين اللتين كانتا تقيمان في المدينة قبل الإسلام وهم الأوس والخزرج وسموا أنصاراً بعد قدوم النبي ﷺ .

(٣) اسمه المغيرة مات بمكة وآل أمر قريش إليه في حياته .

(٤) من بني سليم بن منصور إحدى قبائل قيس عيلان بن مضر . المؤلف .

(٥) هو سيد قريش في عصره . وكان موصوفاً بالدهاء ، ووُلِّي البيت الحرام ، وكانت له : الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة ، واللواء ، وكانت قريش تقيم برأيه ، مات بمكة .

(٦) هي أن تكون مفاتيح البيت عنده .

(٧) يعني لواء الحرب أي رايته .

(٨) اسمه حكيم ، ولَقِبَ بـكَلاب لأنه كان يكثر الصيد بالكلاب .

(٩) أزد شنوءة : قبيلة يمانية . وسموا بذلك لشأن كان بينهم ، والشأن : البغض .

مالك (ابن كعب)^(١) من زوجه وحشية بنت شيان من بني فهر أيضاً (ابن لؤي)^(٢) من زوجه أم كعب مارية بنت كعب من قُصاعة (ابن غالب) من زوجه أم لؤي سلمى بنت عمرو الخزاعي (ابن فهر)^(٣) من زوجه أم غالب ليلي بنت سعد من هذيل ، وفهر هو قريش - في قول الأكثرين - وكانت قريش اثنتي عشرة قبيلة :

- بنو عبد مناف .

- وبنو عبد الدار بن قصي .

- وبنو أسد بن عبد العُزَّى بن قصي .

- وبنو زهرة بن كلاب .

- وبنو مخزوم بن يقظة بن مُرة .

- وبنو تميم بن مُرة .

- وبنو عدي بن كعب .

- وبنو سهم بن هُصَيص بن عمرو بن كعب .

- وبنو عامر بن لؤي .

- وبنو تميم بن غالب .

- وبنو الحارث بن فهر .

- وبنو مُحارب بن فهر .

والمقيمون منهم بمكة يسمون قريش البطاح ، والذين بضواحيها قريش الظواهر . (ابن مالك) من زوجه جندلة بنت الحرث من جرهم (ابن

(١) ابن كعب ، كان عظيم الجاه ، وهو اول مَنْ سَنَّ الاجتماع يوم الجمعة .

(٢) لؤي تصغير اللأي ، وهو الثور الوحشي أو البقرة .

(٣) واسمه قريش ، وإليه تنسب القبيلة ، كان رئيس النادي بمكة .

النضر) ^(١) من زوجه عاتكة بنت عدوان من قيس عيلان (ابن كنانة) من زوجه برة بنت مر بن أد (ابن خزيمة) من زوجه عوانة بنت سعد من قيس عيلان (ابن مُدركة) ^(٢) من زوجه سلمى بنت أسلم من قُضاعة (ابن إلياس) ^(٣) من زوجه جندف المضروب بها المثل في الشرف والمنعة (ابن مُضر) ^(٤) من زوجه الرباب بنت جندة بن معدّ (ابن نزار) ^(٥) من زوجه سودة بنت عكّ (ابن معد) ^(٦) من زوجه مُعانة بنت جوشم من جُرهَم (ابن عدنان) ^(٧) .

هذا هو النسب المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدثين ، أما النسب فوق ذلك فلا يصحّ فيه طريق ، غاية الأمر أنهم أجمعوا على أن نسب الرسول ﷺ ينتهي إلى إسماعيل بن إبراهيم أبي العرب المستعربة ^(٨) . نسب شريف كما ترى : آباء طاهرون وأمّهات طاهرات ، لم يزل عليه السلام ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء حتى اختاره الله هادياً مهدياً من أوسط العرب نسباً . فهو من صميم قريش التي لها القدم الأولى في الشرف وعلو المكانة بين العرب ، ولا تجد في سلسلة آبائه إلا كراماً ليس فيهم مستردّل بل كلهم سادة قادة ، وكذلك أمّهات آبائه من أرفع قبائلهنّ شأناً ، ولا شك أن شرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة ، وكل اجتماع بين آبائه وأمّهاته كان شرعياً بحسب الأصول العربية ، ولم ينلّ نسبه شيء من سفاح الجاهلية بل طهره الله من ذلك والحمد لله ^(٩) .

(١) لقّب به لحسنه وجماله ، واسمه قيس .

(٢) وكانت الابل قد ضلت في أيامه فأدركها فلقب بذلك واسمه عمرو .

(٣) هو أول من أهدى البدن إلى البيت الحرام .

(٤) مُضر مشتق من اللبن الماضر وهو الحامض .

(٥) نزار من النزارة وهي القلّة .

(٦) كان صاحب حروب وغارات على بني اسرائيل ، وكان يعود منتصراً ظافراً في معظم حروبه .

(٧) هو من تقف عنده أنساب العرب .

(٨) العرب المستعربة : وهم أولاد إسماعيل عليه السلام .

(٩) روي عن النبي ﷺ قوله : إني من نكاح وولست من سفاح (القرطبي ٣٠١/٨)

زواج عبد الله بآمنة وحملها

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحبّ ولد أبيه إليه ، فزوَّجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب ، وسنَّه ثمانِي عشرة سنة ، وهي يومئذ من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً ، ولما دخل عليها حملت بالرسول ﷺ ، ولم يلبث أبوه أن توفي بعد الحمل بشهرين ، ودفن بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار ، فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام ، فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع ، ولما تَمَّت مدة حمل آمنة وضعت ولدها ، فاستبشر العالم بهذا المولود الكريم الذي بثَّ في أرجائه روح الآداب وتمم مكارم الأخلاق . وقد حقَّق المرحوم محمود باشا^(١) الفلكي أن ذلك كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من أبريل سنة ٥٧١ من الميلاد ، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل^(٢) ، وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم ، وكانت قابِلته الشَّفاء أم عبد الرحمن بن عوف ، ولما ولد أرسلت أمه لجده تبشُّره فأقبل مسروراً وسمَّاه محمداً ، ولم يكن هذا الإسم شائعاً قبلُ عند العرب^(٣) ، ولكن أراد الله أن يحقِّق ما قدَّره وذكره في الكتب التي جاءت بها الأنبياء كالطَّوراة والإنجيل ، فالهم جدُّه أن يسمِّيه بذلك إنفاذاً لأمره ، وكانت حاضِنته أم أيمن بركة الحبشية أُمِّه أبيه عبد الله^(٤) ، وأول من أرضعه

(١) محمود باشا الفلكي : من علماء مصر ، توفي سنة ١٣٠٢ هـ .

(٢) قد ذكر القرآن هذه الحادثة في سورة الفيل ، وحاصلها : أن ملكاً من ملوك الحبشة واسمه أبرهة الحبشي أغار على مكة وقصد هدم كعبتها ، وتحويل حج العرب الى مدينته ، وكان معه فيل عظيم لم يكن العرب رأوا مثله ، فإكراماً للنبي المنتظر وغيره على بيته الكريم جعل الله كيد الأعداء في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ، وأراح قريش من غناء مقاومتهم . المؤلف . والقصة المذكورة في كتب السير فليراجع هناك .

(٣) لا يعرف في العرب من تسمَّى بهذا الاسم قبله ﷺ إلا ثلاثة ، طمع أبائهم حين سمعوا بذكر محمد ﷺ وبقرّب زمانه أن يكون ولدًا لهم .

(٤) مولاة النبي ﷺ وحاضته ، هاجرت الهجرتين ، وشهدت حُنيئاً وأحدأً وخيبر ، (راجع الكتاب =

ثُوبِيَّة (١) أُمُّ عَمِّ أَبِي لَهَب .

الرضاع

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجبَ للولد ، وكانوا يقولون : إن المربى في المدن يكون قليلَ الذهن فاتر العزيمة ، فجاءت نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن أطفالاً يرضعنهم ، فكان الرضيع المحمود من نصيب حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية (٢) ، واسم زوجها أبو كبشة ، وهو الذي كانت قريش تنسب له الرسول ﷺ حينما يريدون الاستهزاء به فيقولون : هذا ابن أبي كبشة (٣) يُكَلِّم من السماء ! ودُرَّت البركات على أهل ذاك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم وكانت تربو عن أربع سنوات (٤) .

حادثة شق الصدر

وحصل له وهو بينهم حادثة مهمة وهي شق صدره (٥) وإخراج حظ الشيطان منه ، فأحدث ذلك عند حليلة خوفاً فردته إلى أمه وحدّثتها قائلة : بينما هو وإخوته في بهم (٦) لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو ، فقال لي ولأبيه : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلا ن عليهما ثياب بيض ، فأضجعا ،

= الثاني رقم ٦ ص ١٦) .

(١) أول من أرضع النبي ، وكان يصلها وهو بمكة .

(٢) مُرَضِعَاتُهُ ثَمَانٍ : أُمُّ أَمْنَةَ ، ثُوبِيَّة ، خَوْلَةُ ، أُمُّ أَيْمَن ، حليلة ، وثلاث نسوة من العواتك .

(٣) هو الحارث ، أسلم وحسُن إسلامه .

(٤) قالت حليلة : أخذت رسول الله ﷺ فجئت به رجلي ، فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي ثم نام ، وشرّب أخوه ، وقام صاحبي إلى شاربنا تلك فإذا هي حافل ، فحلب منها ما شرب وشربت حتى روينا فيتنا بخير ليلة » .

(٥) شق صدره مرتان مرة في السنة الثالثة ومرة ليلة الاسراء .

(٦) جمع بهمه ، وهي : أولاد الضأن والمعز والبقر .

فشقاً بطنه فهما يسوطانه (١) . فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه منتقعا لونه (٢) ، فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : ما لك يا بني ؟ فقال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟؟ قال نعم . فأقبلا يبتدراني فأضجعاني فشقا بطني ، فالتمسا فيه شيئا ، فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو .

وفاة أمّنة وكفالة عبد المطلب ووفاته وكفالة أبي طالب

ثم إن أمه أخذته منها (٣) ، وتوجهت به إلى المدينة لزيارة أحوال أبيه بني عدي بن النجار ، وبينما هي عائدة أدركتها منيتها في الطريق فماتت بالأبواء (٤) ، فحضنته أم أيمن ، وكفله جده عبد المطلب ، ورق له رقة لم تعهد له في ولده ، لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأنا عظيما في المستقبل ، وكان يكرمه غاية الإكرام ، ولكن لم يلبث عبد المطلب أن توفي بعد ثماني سنوات من عمر الرسول ﷺ (٥) ، فكفله شقيق أبيه أبو طالب فكان له رحيما وعليه غيورا ، وكان أبو طالب مقلدا من المال فبارك الله له في قليله ، وكان الرسول ﷺ في مدة كفالة عمه مثالا للقناعة ، والبعد عن السفاسف التي يشتغل بها الأطفال عادة (٦) ، كما روت ذلك أم أيمن

(١) يحرّكانه بسوط . المؤلف .

(٢) انتقع وجهه وامتنع إذا تغير .

(٣) جاء في سيرة ابن هشام قولها : إن لبني شأنا ، رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف علي ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض ، رافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلقني راشدة .

(٤) وهو ابن ست سنين . والأبواء : محل بين مكة والمدينة ، وهو إلى المدينة أقرب . المؤلف .

(٥) ودفن بالحجون والحجون : جبل بأعلى مكة .

(٦) وقال ابن هشام في السيرة كان رسول الله ﷺ فيما ذكر يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال «لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد نعى وأخذ إزاره فجعله على رقبتة يحمل عليه الحجارة فاني لأقبل معهم كذلك وأدير ولكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة ثم قال شد عليك إزارك .

حاضنته ، فكان إذا أقبل وقت الأكل جاء الأولاد يختطفون وهو قانع بما
سييسره الله له^(١).

السفر إلى الشام

ولما بلغت سنّه عليه الصلاة والسلام اثنتي عشرة سنة ، أراد عمّه
وكفيله السفر بتجارة إلى الشام ، فاستعظم الرسول ﷺ فراقه ، فرقّ له ،
وأخذه معه ، وهذه هي الرحلة الأولى ، ولم يمكثوا فيها إلا قليلاً ، وقد
أشرف على رجال القافلة وهم بقرب بُصرى^(٢) بحيرى الراهب^(٣) ، فسألهم
عمّا رآه في كتبهم المقدسة من بعثة نبي من العرب في هذا الزمن ، فقالوا
إنه لم يظهر للأن^(٤) ، وهذه العبارة كثيراً ما كان يلهج بها أهل الكتاب من
يهود ونصارى قبل بعثة الرسول ﷺ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ
عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥﴾ .

حرب الفجار

ولما بلغت سنّه عليه الصلاة والسلام عشرين سنة حضر حرب
الفجار^(٦) ، وهي حرب كانت بين كنانة ومعها قريش ، وبين قيس .

(١) فكان يوضع الطعام له وللصبية من أولاد أبي طالب ، فيتناولون إليه ، ويتقاصر هو ، (الروض
الأنف) .

(٢) قرية في جنوب بلاد الشام .

(٣) كان حبراً من أحبار اليهود .

(٤) فلما رأى محمد ﷺ يوافق ما عنده من علم عن صفته ، نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة ،
فأقبل على عمّه أبي طالب وأوصاه أن يعود به حذراً عليه من اليهود قائلين له : إنه كائن لابن
أخيك هذا شأن عظيم ، فعاد به إلى مكة . وفي الترمذي حديث صحيح يؤيد ذلك .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ٨٩ .

(٦) بكسر الفاء بمعنى المفاجرة ، كالقتال بمعنى المقاتلة ، وذلك أنه كان قتال في الشهر الحرام
ففجروا فيها جميعاً .

وسببها : أنه كان للنعمان بن المنذر ملك العرب بالحيرة^(١) تجارة يرسلها كل عام إلى سوق عُكاظ^(٢) لَتَباع له ، وكان يرسلها في أمان رجل ذي مَنعةٍ وشرف في قومه ليُجيزها^(٣) ، فجلس يوماً وعنده البرأض بن قيس الكنانى - وكان فاتكاً خليعاً خلعه قومه لكثرة شره - وعروة بن عتبة الرِّحال فقال : مَنْ يُجيز لي تجارتي هذه حتى يبلغها عكاظ ؟؟ فقال البرأض : أنا أُجيزها على بني كنانة ، فقال النعمان : إنما أريد مَنْ يجيزها على الناس كلهم ؟ فقال عروة : آيَتَ اللعن^(٤) أَكلَبَ خليع يجيزها لك ؟ أنا أُجيزها على أهل الشَّيخ والقيصوم من أهل نجد^(٥) وتهامة^(٦) فقال البرأض : أو تُجيزها على كنانة يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم ، فأسرّها في نفسه ، وتربّص له حتى إذا خرج بالتجارة ، قتله غدراً ، ثم أرسل رسولاً يخبر قومه كنانة بالخبر ، ويحذرهم قيساً قوم عروة . وأما قيس فلم تلبث بعد أن بلغها الخبر أن همّت لتندرك ثأرها ، حتى أدركوا قريشاً وكنانة بنخلة^(٧) ، فاقتتلوا ، ولما اشتدّ البأس ، وحميت قيس ، احتمت قريش بحرملها ، وكان فيهم رسول الله . ثم إن قيساً قالوا لخصومهم : إنّنا لا نترك دم عروة ، فموعدنا عكاظ العام المقبل ، وانصرفوا إلى بلادهم يُحرّض بعضهم بعضاً ، فلما حال الحَوْلُ جمعت قيس جُموعها وكانت معها ثقيف وغيرها ، وجمعت قريش جُموعها من كنانة والأحابيش - وهم حلفاء قريش - وكان رئيس بني هاشم الزبير بن عبد المطلب ومعه إخوته أبو طالب وحمزة والعباس وابن أخيه النبي

(١) بلدة غرب الفرات كان يقيم بها ملك العرب من قبل ملوك الفرس .

(٢) سوق كانت تعقدّها العرب كل عام لتعرض فيه تجارتها ، وما قاله فصحاؤها من قصائد الفخر وما أشبه ذلك من مفاخر العرب ، المؤلف .

(٣) في بعض السّير : ليُجيزها بالزاي .

(٤) تحبة عربية ، ومعناها باعدت كل ما استحق المذمة . المؤلف .

(٥) هو المرتفع من بلاد العرب وهو وسطها . المؤلف .

(٦) هو ما انخفض من سواحل البلاد العربية ، والشرقي منها يسمى البحرين ، الفاصل بين نجد وتهامة الحجاز في الغرب واليمامة في الشرق . المؤلف .

(٧) موضع بين مكة والطائف . المؤلف .

الكريم ، وكان على بني أمية حرب بن أمية ، وله القيادة العامة لمكانه في قريش شرفاً وسناً . وهكذا كان على كل بطن من بطون قريش رئيس ، ثم تناجزوا الحرب ، فكان يوماً من أشد أيام العرب هولاً ، ولما استُجِلَّ فيه مِنْ حُرُمَات مكة التي كانت مقدسة عند العرب سُمِّيَ يوم الفِجَار^(١) . وكادت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها ولكن أدركهم من دَعَا المتحاربين للصالح^(٢) على أن يُحصُوا قتلى الفريقين ، فَمَنْ وجد قَتْلَاه أكثر أخذ دية الزائد ، فكانت لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش ، وتعهد بها . حرب بن أمية ، ورهن لسدأها ولده أبا سفيان . وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب تبدوها صغيرات الأمور حتى أَلَف الله بين قلوبهم وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم .

حلف الفضول

وعند رجوع قريش من حرب الفِجَار تداعوا لحلف الفضول^(٣) فتمَّ في دار عبد الله بن جدعان التيمي^(٤) أحد رؤساء قريش ، وكان المتحالفون : بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف ، وبني أسد بن عبد العزى ، وبني زهرة بن كلاب ، وبني تيم بن مرة تحالفوا وتعاهدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، حتى ترد إليه مظلمته ، وقد حضر هذا الحلف رسول الله ﷺ مع أعمامه ، وقال بعد أن شرفه الله بالرسالة : « لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم^(٥) ولو دعيت به في الإسلام

(١) جاء في سيرة ابن هشام أن القتال لم يقع في مكة ، بل سمي كذلك لأنه وقع في الأشهر الحرم .

(٢) هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، كبير قريش .

(٣) وهو أشرف حلف في العرب ، وسمي كذلك لأنهم تحالفوا أن ترد المظالم الى أهلها ، وألا يغزو ظالم ظالماً .

(٤) هو أحد الأجداد المشهورين في الجاهلية .

(٥) أي لا أحب نقضه ، وإن دفع لي حمر النعم ، أنفس إبل العرب وأكرمها .

لأجبت» (١) وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام مبعوث بمكارم الأخلاق وهذا منها وقد أقر دين الإسلام كثيراً منها ، يرشدك إلى هذا قوله عليه الصلاة والسلام : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٢) وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا .

رحلته إلى الشام المرة الثانية

ولما بلغت سنّه عليه الصلاة والسلام خمساً وعشرين سنة سافر إلى الشام المرة الثانية ، وذلك أن خديجة بنت خويلد الأسدية كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم (٣) إياه ، فلما سمعت عن السيد من الأمانة وصدق الحديث ما لم تعرفه في غيره حتى سمّاه قومه الأمين ، استأجرته ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره ، فسافر مع غلامها ميسرة فباعا وابتاعا وربحا ربحاً عظيماً ، وظهر للسيد الكريم في هذه السفرة من البركات (٤) ما حبّبه في قلب ميسرة غلام خديجة (٥) .

زواجه خديجة

فلما قَدِمَا مكة ورأت خديجة ربحها العظيم سُرّت من الأمين عليه

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ١٩٠/١ .

(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ بلفظ «بعثت لأتمم حسن الأخلاق» .

(٣) تضاربهم أي تقاضهم وتجار في الأموال .

(٤) منها اظلال الغمامة لرسول الله ﷺ في الحر .

(٥) خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى من قريش زوجة رسول الله ﷺ الأولى ، وكانت أسن منه بخمس عشرة سنة ولدت بمكة ونشأت في بيت شرف ويسار ، ومات أبوها يوم الفجار ، وتزوجت بأبي هالة فمات عنها . وكانت ذات مال كثير وتجارة تبعت بها إلى الشام تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربة فلما بلغ رسول الله ﷺ الخامسة والعشرين خرج في تجارة لها إلى سوق بصرى وعاد رابحاً ، تزوجها رسول الله ﷺ فولدت له القاسم وعبد الله =

الصلاة والسلام وأرسلت إليه تَخْطُبُهُ لنفسها وكانت سنّها نحو الأربعين وهي من أوسط (١) قريش حسباً وأوسعهم مالاً ، فقام الأمين عليه الصلاة والسلام مع أعمامه حتى دخل على عمّها عمرو بن أسد فخطبها منه بواسطة عمه أبي طالب فزوّجها عمّها . وقد خطب أبو طالب في هذا اليوم فقال الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وضئضئ (٢) معدّ ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه ، وجعله لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمناً ، وجعلنا حكام الناس ، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يُوزن به رجل (إلا رجح به) شرفاً ونبلاً وفضلاً (وعقلاً) ، وإن كان في المال قُلّ ، فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مستردّة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة في كريمكم خديجة وقد بذل لها من الصداق (كذا) (٣) وعلى ذلك تم الأمر ، وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالة (٤) توفي عنها وله منها ولد اسمه هالة وهو ربيب (٥) المصطفى عليه الصلاة والسلام .

بناء البيت

ولما بلغت سنّه عليه الصلاة والسلام خمساً وثلاثين سنة ، جاء سيل جارف فصدّع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها قبل ، فأرادت قريش هدمها ليرفعوها ويسقفوها (٦) ، فإنها كانت

= وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، ولما بعث رسول الله ﷺ دعاها الى الإسلام فكانت أول من أسلم من الرجال والنساء .

(١) أوسط قريش أي أفضل قريش .

(٢) ضئضئ : أصل الشيء ومعدنه .

(٣) ما عاجله وآجله خمسمائة درهم .

(٤) اختُلف في اسمه ، مات في الجاهلية .

(٥) الربيب : ابنُ امرأة الرجل من غيره .

(٦) بنيت الكعبة خلال الدهر كله أربع مرات بيقين .

١ - حين بناها إبراهيم استجابة لأمر الله « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت » .

رضيمة^(١) فوق القامة ، فاجتمعت قبائلهم لذلك ، ولكنهم هابوا هدمها لمكانها في قلوبهم . فقال لهم الوليد بن المغيرة^(٢) أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة ؟ قالوا بل الإصلاح ، قال إن الله لا يهلك المصلحين ، وشرع يهدم فتبعوه وهدموا حتى وصلوا الى أساس إسماعيل ، وهناك وجدوا صحافاً نقش فيها كثير من الحكم على عادة من يضعون أساس بناء شهير ليكون تذكرة للمتأخرين بعمل المتقدمين . ثم ابتدؤوا في البناء وأعدوا لذلك نفقة ليس فيها مهرٌ بغي ولا بيعٌ ربا ، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم ، وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل ، وكان الذي يلي البناء نجار رومي اسمه «باقوم»^(٣) ، وقد خصص لكل ركن جماعة من العظماء ينقلون اليه الحجارة ، وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامه على قواعد إسماعيل ، فأخرجوا منها الحجر ، وبنوا عليه جداراً قصيراً علامة على أنه من الكعبة . ولما تمّ البناء ثماني عشرة ذراعاً بحيث زيد فيه عن أصله تسعة أذرع ورفع الباب عن الأرض بحيث لا يصعد اليه إلا بدرج أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه ، فاختلف أشرافهم فيمن يضعه ، وتنافسوا في ذلك حتى كادت تشبّ بينهم نار الحرب ، ودام بينهم هذا الخصام أربع ليال ، وكان أسنّ رجل في قريش إذ ذاك أبو أمية بن المغيرة المخزومي عمّ خالد بن الوليد فقال لهم : يا قوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه . فقالوا : نكل الأمر لأوّل داخل ، فكان هذا الداخل هو الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام ، فاطمأن الجميع له لما يعهدونه فيه من الأمانة وصدق الحديث وقالوا : هذا الأمين رضيناه ، هذا محمد لأنهم كانوا يتحاكمون اليه إذ كان لا يُداري ولا يُماري . فلما أخبروه الخبر بسط

= ٢ - حين بنتها قريش واشترك في بنائها النبي ﷺ .

٣ - حين احترقت زمن يزيد بن معاوية ، فنقضها الزبير وأعاد بناءها .

٤ - حين بناها الحجاج بن يوسف بأمر عبد الملك بن مروان .

(١) الرضيم : أن تنضد الحجارة بعضها على بعض من غير ملاط .

(٢) الوليد بن المغيرة : من زعماء قريش ، وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية .

(٣) وهو مولى سعيد بن العاص .

رداءه وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا الى موضعه فأخذه ووضعوه فيه . وهكذا انتهت هذه المشكلة التي كثيراً ما يكون أمثالها سبباً في انتشار حروب هائلة بين العرب لولا أن يمتن الله عليهم بعقل مثل أبي أمية يرشدهم الى الخير ، وحكيم مثل الرسول ﷺ يقضي بينهم بما يرضي جميعهم .

ولا يُستغرب من قريش تنافسهم هذا ، لأن البيت قبلة العرب وكعبتهم التي يحجون اليها ، فكل عمل فيه عظيم ، به الفخر والسيادة ، وهو أول بيت وُضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ ^(١) وكان يلي أمره بعد ولد إسماعيل قبيلة جُهم فلما بَغُوا وظلموا مَنْ دخل مكة اجتمعت عليهم خزاعة وأجلوهم عن البيت ، ووليته خزاعة حيناً من الدهر ، ثم أخذته منهم قريش في عهد قصي بن كلاب ، وبسببه أُمِنُوا في بلادهم ، فكانت قبائل العرب تهابهم . وإذا احتموا به كان حصناً أميناً من اعتداء العادين ، وامتن الله عليهم بذلك في تنزيله فقال في سورة العنكبوت : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ ^(٢) .

معيشته عليه الصلاة والسلام

قبل البعثة

لم يرث عليه الصلاة والسلام من والده شيئاً ، بل ولد يتيماً عائلاً ^(٣) فاسترضع في بني سعد ، ولما بلغ مبلغاً يمكنه أن يعمل عملاً كان يرعى الغنم مع اخوته من الرضاع في البادية ، وكذلك لما رجع إلى مكة كان

(١) سورة آل عمران الآية : ٩٦ .

(٢) سورة العنكبوت الآية : ٦٧ .

(٣) فقيراً لا مال له ، قال تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ .

يرعاها لأهلها على قراريط^(١) كما ذكر ذلك البخاري في صحيحه^(٢).
وجود الأنبياء في حال التجرد عن الدنيا ومشاغلتها أمر لا بد منه ، لأنهم لو
وجدوا أغنياء لألهتهم الدنيا وشغلوا بها عن السعادة الأبدية ، ولذلك ترى
جميع الشرائع الإلهية متفقة على استحسان الزهد فيها والتباعد عنها ، وحال
الأنبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك ، فكان عيسى عليه السلام أزهّد
الناس في الدنيا وكذلك كان موسى وإبراهيم . وكانت حالتهم في صغرهم
ليست سعة بل كلهم سواء ، تلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه
ليكونوا نموذجاً لمتبعيهم في الإمتناع عن التكاليف على الدنيا والتهافت
عليها ، وذلك سبب البلى والمحن . وكذلك رعاية الغنم ، فما من نبي إلا
رعاها كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق في حديث للبخاري ، وهذه
أيضاً من بالغ الحكيم فإن الإنسان إذا استرعى الغنم - وهي أضعف البهائم -
سكن قلبه الرأفة واللفظ تعطفاً ، فإذا انتقل من ذلك الى رعاية الخلق كان
لما هُذّب أولاً من الحدة الطبيعية والظلم الغريزي ، فيكون في أعدل
الأحوال . ولما شبّ عليه الصلاة والسلام كان يتجر ، وكان شريكه
السائب بن أبي السائب . وذهب بالتجارة لخديجة ، رضي الله عنها ، إلى
الشام على جُعل^(٣) يأخذه . ولما شُرِفَتْ خديجة بزواجه ، وكانت ذات يسار
عمل في مالها وكان يأكل من نتيجة عمله . وحقق الله ما امتنّ عليه به في
سورة الضحى بقوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالّاً
فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾^(٤) بالإيواء والإغناء قبل النبوة والهداية بالنبوة ،
هذه للكتاب والإيمان ودين إبراهيم عليه السلام ولم يكن يدري ذلك قبل .
قال تعالى في سورة الشورى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا

(١) القراريط أجزاء من الدراهم والدنانير يشتري بها الحوائج الصغيرة.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم » فقال
أصحابه : وأنت ؟ فقال : « نعم ، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة » . رواه البخاري في كتاب
الإجارة ، رقم : ٢٢٦٢ .

(٣) ما يُجْعَل للإنسان من أجر على عمله .

(٤) سورة الضحى الآيات : ٧ - ٩ .

كُنْتُ تَذَرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴿١﴾ .

سيرته في قومه قبل البعثة

كان عليه الصلاة والسلام أحسن قومه خلقاً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال ، حتى كان أفضل قومه مروءةً ، وأكرمهم مخالطةً ، وخيرهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، فسَمَّوه الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة ، والفعال السديدة من الحلم ، والصبر ، والشكر ، والعدل ، والتواضع ، والعفة ، والجود ، والشجاعة ، والحياء ، حتى شهد له بذلك ألد أعدائه النضر بن الحارث (٢) من بني عبد الدار حيث يقول : قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثًا ، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانةً ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم : ساحر ! لا والله ما هو بساحر ، قال ذلك في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه . ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلاً : هل كنتم تتهمونهم بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله ، ورد ذلك في أول صحيح البخاري (٣) .

وقد حفظه الله في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضدها (٤) وَبُغِضَتْ إِلَيْهِ الْأَوْثَانُ بغضاً شديداً حتى ما كان يحضر لها احتفالاً أو عيداً مما يقوم به عِبَادُهَا . وقال عليه الصلاة والسلام : « لما نَشَأْتُ بُغِضْتُ إِلَيَّ الْأَوْثَانُ ، وَبُغِضَ إِلَيَّ الشَّعْرُ ، وَلَمْ أَهَمْ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَتْ

(١) سورة الشورى الآية ٥٢ .

(٢) كان من شياطين قريش وقتل كافراً يوم بدر .

(٣) انظر حديث أبي سفيان في فصل مكاتبة الملوك من هذا الكتاب في كتب السيرة .

(٤) الشفاء للفاضي عياض . المؤلف .

الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك .
ثم ما هممتُ بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته . قلت ليلة لغلام كان
يرعى معي لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأُسْمُر كما يسمر الشباب ،
فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزقاً بالدفوف والمزامير
لعرس بعضهم ، فجلست لذلك ، فضرب الله على أذنيّ فنمت فما أيقظني
إلا مسّ الشمس ولم أقض شيئاً ، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك » . وكان
عليه الصلاة والسلام لا يأكل ما ذبح على النصب^(١) وحرّم شرب الخمر
على نفسه مع شيوعه في قومه شيوعاً عظيماً ، وذلك كله من الصفات التي
يُحليّ الله بها أنبياءه ليكونوا على تمام الإستعداد لتلقّي وحيه ، فهم
معصومون من الأدناس قبل النبوة وبعدها : أمّا قبل النبوة فليتأهلوا للأمر
العظيم الذي سيُسند إليهم ، وأمّا بعدها فليكونوا قدوة لأمتهم . عليه من
الله أفضل الصلوات وأتمّ التسليمات .

ما أكرمه الله به قبل النبوة

أول منحة من الله ما حصل من البركات على آل حليلة الذين كان
مسترضعاً فيهم ، فقد كانوا قبل حلوله بناديهم مجدين^(٢) فلما صار بينهم
صارَتْ غُنيّاتهم تَوْوب من مرعاها وإن أضراعتها لتسيل لبناً ويرحم الله
البوصيري حيث يقول في همزيته :

وإذا سَخَّرَ الإله أناساً لسعيدٍ فإنَّهم سُعداءُ

ثم أعقب ذلك ما حصل من شق صدره وإخراج حظّ الشيطان منه ،
وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى ، فمن استبعد ذلك كان قليل

(١) هي حجارة تنصب وتصب عليها دماء الذبائح وتعبد . المؤلف .

(٢) الجذب : ضد الخصب .

النظر ، لا يعرف من قوة الله شيئاً ، لأن خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدث ولا المستغرب .

ومن المكرمات الإلهية تسخير الغمامة له في سفره إلى الشام ، حتى كانت تظله في اليوم الصائف لا يشترك معه أحد في القافلة ، كما روى ذلك مسرة غلام خديجة الذي كان مُشاركاً له في سفره ، وهذا ما حَبَّه إلى خديجة حتى خطبته لنفسها ، وتيقنت أن له في المستقبل شأنًا . ولذلك لما جاءت النبوة كانت أسرع الناس إيماناً به ولم تنتظر آيةً أخرى زيادة على ما علمته من مكارم الأخلاق ، وما سمعته من خوارق العادات .

ومن منن الله عليه ما كان يسمعه من السلام عليه من الأحجار والأشجار^(١) ، فكان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بناء ويفضي إلى الشُعاب وبطون الأودية فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلا سمع : الصلاة والسلام عليك يا رسول الله ، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً ، وقد حدّث بذلك عن نفسه^(٢) . وليس في ذلك كبير إشكال فقد سَخَّرَ الله الجمادات للأنبياء قبله ، فعصا موسى التقت ما صنع سَحَرَة فرعون بعد أن تحوّل حية تسعى ثم رجعت كما كانت ، ولما ضرب بها الحجر نبع منه الماء اثنتي عشرة عيناً ، لكل سبط^(٣) من أسباط بني إسرائيل عين . وكذلك غيره من الأنبياء سَخَّرَ الله لهم ما شاء من أنواع الجمادات لتدلّ العقلاء على عظيم قدرهم وخَطَرَة شأنهم .

(١) السيرة الحلبية . المؤلف .

(٢) عن جابر بن سُمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن » . رواه مسلم في كتاب الفضائل ، رقم : ٢٢٧٧ . والأحاديث في ذلك كثيرة .

(٣) القبيلة من اليهود : قال تعالى : ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ﴾ .

تبشیر التوراة به

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التي تناسب أهل ذاك الزمن ، ونوّه فيها بذكر كثير من الأنبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم ، فمما جاء فيها تبشيراً برسولنا الكريم خطاباً لسيدنا موسى عليه السلام (١) (وسوف أقیم لهم نبياً مثلك من بين إخوانهم وأجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكل شيء أمره به ، ومن لم يُطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا الذي أنتقم منه ، فأما النبي الذي يجترئ عليّ بالكبرياء ويتكلم باسمي بما لم أمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل ، وإذا أحببت أن تميز بين النبي الصادق والكاذب فهذه علامتك أن ما قاله ذلك النبي باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه) . ويقول اليهود إن هذه البشارة ليوشع بن نون (٢) خليفة موسى عليه السلام مع أنهم كانوا ينتظرون في مدة المسيح نبياً آخر غير المسيح فإنهم (٣) أرسلوا ليوحنا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه فقالوا له : أنت إيليا ؟ فقال : لا ، فقالوا أنت المسيح ؟ فقال : لا ، فقالوا أنت النبي ؟ فقال : لا ، فقالوا ما بالك إذا تعمّد إذا كنت لست إيليا ولا المسيح ولا النبي ؟ فهذه تدلّ على أن التوراة تبشّر بإيلياً والمسيح ونبي لم يأت حتى زمن المسيح ، ثم إن التوراة تقول في صفة النبي إنه مثل موسى وقد نصّت في آخر سفر التثنية على أنه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثل موسى (٤) ، وورد في هذه البشارة أن النبي الذي يفترى على الله يُقتل ، ويُشبه ذلك في القرآن قوله تعالى في سورة الحاقة : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ (٥) . ونبينا ﷺ مكث بين أعدائه الألداء من مشركين ويهود ثلاثاً

(١) الإصحاح الثامن : سفر التثنية . المؤلف .

(٢) ليست هذه البشارة ليوشع بن نون لأنه ليس كموسى .

(٣) الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا ، آية : ٤٦ . المؤلف .

(٤) قد أخبر برسالته عليه الصلاة والسلام ورقة بن نوفل ابن عم خديجة ، إذ قال له : هذا هو

الناموس الذي أنزل على قومي .

(٥) سورة الحاقة الآيات : ٤٤ - ٤٦ . والوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه . المؤلف .

وعشرين سنة يدعوهم فيها إلى الله ، ومع ذلك عصمه الله منهم وأنزل عليه تطميناً لخاطره في سورة المائدة : ﴿ وَاللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (١) أكان يعجز الله - وهو القادر على كل شيء - أن يعاقب من ينسب إليه ما لم يقله وهو الذي قال في سورة الشورى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٢) وقد أخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التي نعرف بها صدق النبي من كذبه وهي الإخبار بما سيأتي . وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن أشياء كثيرة فحدثت كما أخبر عنها ، ومنها ما لا ينفع معه الحُدُس والتخمين كالإخبار بأن الروم سَيَغْلِبُونَ بعد أن قهرهم الفرس قهراً شديداً حتى كادوا يحتلون القسطنطينية عاصمة مُلْكِهِمْ (٣) ، فالإخبار إذاً بأن الروم سَيَرُدُّونَ ما فُتِدَ منهم بعد بضع سنين إلا من عند الله ، ولذلك استغربه جداً بعض المشركين من قريش وراهن على ذلك أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد حَقَّقَ الله الخبر فاستحق الصديق الرهن . وهذا قليل من كثير سيأتيك تفصيله إن شاء الله تعالى .

وروى القاضي عياض في الشفاء (٤) أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : أجل ! والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ (٥) . و « حرزاً لِلْأَمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمِيتُكَ الْمَتَوَكِّلَ لَيْسَ بَفُظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا صَخَّابٍ (٦) فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ ، وَلَنْ يَقْبُضَهُ اللَّهُ حَتَّى يَقِيمَ بِهِ الْمَلَّةَ

(١) سورة المائدة الآية : ٦٧ .

(٢) سورة الشورى الآية : ٢٤ .

(٣) قال تعالى في سورة الروم : ﴿ أَلَمْ ، غَلَبَتِ الرُّومُ ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بضع سنين . . . ﴾ .

(٤) فصل وصف الله تعالى له بالشهادة ١/٧٢ .

(٥) سورة الأحزاب الآية : ٤٥ .

(٦) شديد الصوت . المؤلف .

العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غُلْفاً ^(١) .

وروي مثله عن عبد الله بن سلام ^(٢) رضي الله عنه وهو الذي كان رئيس اليهود فلم تُعِمّه الرئاسة حتى يترك الدين القويم ، وكذلك كعب الأحبار ^(٣) وفي بعض طرق الحديث : ولا صَخَاب في الأسواق ، ولا قَوَال للخنا ^(٤) ، أَسَدُّه لكل جميل ، وأهَب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبرّ شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة مقوله ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدي به بعد الضلالة ، وأعلّم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة . وأسّمي به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلّة ، وأغني به بعد العيلة ^(٥) ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلّف به بين قلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأمم متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس . وقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن صفته في التوراة فقال وهو الصادق الأمين : عبدي أحمد المختار مولده مكة ومهاجره المدينة - أو قال طيبة - وأمته الحمّادون الله على كل حال ^(٦) .

تبشير الإنجيل

بشّر عيسى عليه السلام قومه في الإنجيل بالفارقليط ومعناه قريب من محمد أو أحمد ويصدّقه في القرآن قول الله تعالى في سورة الصف : ﴿ وَإِذْ

(١) رواه البخاري في البيوع ، باب : كراهية الصخب في الأسواق ، رقم : ٢١٢٥ .

(٢) هو أبو يوسف بن الحارث الإسرائيلي ، صحابي ، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة ، فسماه النبي ﷺ عبد الله ، وأقام بالمدينة إلى أن مات فيها سنة ٤٣ هـ .

(٣) هو كعب بن ماتع الحميري ، أبو إسحاق ، من كبار علماء أهل الكتاب ، أسلم زمن أبي بكر ، وتوفي في حمص سنة ٣٢ هـ . عن مائة وأربع سنين .

(٤) الخنا : الفحش .

(٥) العيلة : الفقر .

(٦) انتهى ما قاله القاضي عياض في الشفاء .

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴿١﴾ وقد وصف المسيح هذا الفارقليط بأوصاف لا تنطبق إلا على نبيِّنا فقال : إنه يوبخ العالم على خطيئته وإنه يعلمهم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ، وهذا ما ورد في القرآن الكريم في سورة النجم : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ ﴿٢﴾ وقد ورد في إنجيل برنابا الذي ظهر منذ زمن قريب وأخفته حجب (٣) الجهالة : ذكر اسم الرسول عليه الصلاة والسلام صراحة .

حركة الأفكار قبل البعثة

وهذا يسهل لك فهم الحركة العظيمة من الأخبار والرهبان قبيل البعثة ، فكان اليهود يستفتحون (٤) على عرب المدينة برسول منظر .

فقد حدثت عاصم بن عمر بن قتادة (٥) عن رجال من قومه ، قالوا : إنما دعانا للإسلام - مع رحمة الله تعالى لنا - ما كنا نسمع من أخبار يهود ، كنا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبي يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم . فكثيراً ما نسمع ذلك منهم . فلما بعث الله رسوله محمداً أجبتنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه فآمنوا وكفروا (٦) ، وإنما قال لهم اليهود نقتلكم معه قتل عاد وإرم لأن من صفته عليه الصلاة والسلام في كتبهم أن

(١) سورة الصف الآية : ٦ .

(٢) سورة النجم الآية : ٤ .

(٣) ترجم إلى العربية وهو الآن مطبوع بمصر . المؤلف .

(٤) الإستفتاح : الإستنصار .

(٥) كان عارفاً بالمغازي ، توفي سنة ١٢٠ هـ .

(٦) انتهى ما قاله عاصم بن عمر ، سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١١ .

هذا النبي يستأصل المشركين بالقوة ، ولم يكونوا يظنون أن الحسد والبغي سيتمكنان من أفدنتهم فيبذون الدين القيم فيحق عليهم العذاب في الدنيا والآخرة . وكان أمية بن أبي الصلت^(١) المتنصر العربي كثيراً ما يقول : إني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا . وحدّث سلمان الفارسي رضي الله عنه عن نفسه أنه صحب قسيساً^(٢) فكان يقول له : يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد ، يخرج من جبال تهامة ، علامته أن يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وهذا الحديث كان من أسباب إسلام سلمان^(٣) . ولما راسل عليه الصلاة والسلام ملوك الأرض لم يُهن كتابه إلا كسرى الذي ليس عنده علم من الكتاب ، وأما جميع ملوك النصارى كالنجاشي ملك الحبشة ، والمقوقس ملك مصر ، وقيصر ملك الروم ، فأكرموا وفادة رسله . ومنهم من آمن كالنجاشي ، ومنهم من ردّ ردّاً لطيفاً وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقيصر ، ومنهم من هادى^(٤) كالمقوقس ، ولم يكن عليه الصلاة والسلام في قوة يُرهّب بها هؤلاء الملوك اللهم ما ذاك إلا لأنهم يعلمون أن المسيح عليه السلام بشر برسول يأتي من بعده ، ووافقت صفات رسولنا ما عندهم فأجابوا بالتي هي أحسن ، وأما ما سُمع من الهواتف والكهان قبيل زمنه فهو ما لا يدخل تحت حصر^(٥) . وليس بعد ما ذكرته لك زيادة لمستكثير . ومع ذلك كله فالأعمال التي جاد الله بها على يديه والأقوال التي أتانا بها أعظم مقوّل حجته ومؤيد لدعوته . وسيأتي عليك بيان ذلك كله بأجلى بيان فتأمّله ترشد . هداك الله الى الصراط السوي .

(١) أمية بن أبي الصلت، حكيم، اطلع على الكتب القديمة، ونبذ عبادة الأوثان، ولم يكن نصرانياً، وإنما كان حنيفياً ، وهو أول من جعل في الكتب: باسمك اللهم، مات سنة ٥ هـ .

(٢) هو صاحب عمورية من بلاد الروم .

(٣) انظر حديث إسلام سلمان في سيرة ابن هشام ٢١٤/١ .

(٤) هادى : أرسل هدية .

(٥) وقد كانت الملائكة تذكره ﷺ في السماء قبل وجوده . كما جاء في بعض كتب السيرة .

بدء الوحي

لَمَّا بلغ عليه الصلاة والسلام سن الكمال ، وهي أربعون سنة أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهَالَةِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ فَبْرَايِر (شَبَاط) سَنَةِ ٦١٠ مِنْ الْمِيلَادِ كَمَا أَوْضَحَهُ الْمَرْحُومُ مُحَمَّدُ بَاشَا الْفَلَكَي ، تَبَيَّنَ بَعْدَ دَقَّةِ الْبَحْثِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي ١٧ رَمَضَانَ سَنَةِ ١٣ قَبْلَ الْهَجْرَةِ وَذَلِكَ يُوَافِقُ يُولَيُو (تَمُوز) سَنَةِ ٦١٠ .

وَأَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ الْوَحْيُ الرَّؤْيَا الصَّادِقَةَ ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصَّبْحِ (١) ، وَذَلِكَ لِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ مِنَ التَّدْرِيجِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا حَتَّى تَصِلَ إِلَى دَرَجَةِ الْكَمَالِ . وَمِنْ الصَّعْبِ جَدًّا عَلَى الْبَشَرِ تَلَقِّي الْوَحْيِ مِنَ الْمَلَكِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، ثُمَّ حَبَّبَ إِلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْخَلَاءَ (٢) ، لِيَتَعَدَّ عَنْ ظُلُمَاتِ هَذَا الْعَالَمِ وَيَنْقُطِعَ عَنِ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّ فِي الْعِزَّةِ صَفَاءَ السَّرِيرَةِ . وَكَانَ يَخْلُو بَغَارَ حِرَاءِ (٣) فَيَتَعَبَّدُ فِيهِ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ ، فَتَارَةً عَشْرًا . وَتَارَةً أَكْثَرَ إِلَى شَهْرٍ . وَكَانَتْ عِبَادَتُهُ عَلَى دِينِ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَأْخُذُ لِذَلِكَ زَادَهُ ، فَإِذَا فَرَّغَ رَجَعَ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ : فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ عَلَى الْجَبَلِ إِذْ ظَهَرَ لَهُ شَخْصٌ وَقَالَ : أَبْشِرْ يَا مُحَمَّدُ أَنَا جَبْرِيلُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : اقْرَأْ ، قَالَ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَيٌّ لَمْ يَتَعَلَّمِ الْقِرَاءَةَ قَبْلًا . فَأَخَذَهُ فغَطَّهُ (٤) بِالنَّمْطِ (٥) الَّذِي كَانَ يَنَامُ عَلَيْهِ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ الْجَهْدُ ، ثُمَّ أَرْسَلَهُ فَقَالَ : اقْرَأْ ،

(١) أَي كُضَيَّائِهِ وَإِنَارَتِهِ .

(٢) الْإِنْفِرَادُ .

(٣) جَبَلٌ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ مَكَّةَ - الْمُؤَلِّفُ .

(٤) الْغَطُّ : الْضَمُّ .

(٥) النَّمْطُ : بَسَاطٌ مِنْ دِيْبَاجٍ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ النَّمْطُ الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ كَمَا ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ . وَانْظُرِ السِّيْرَةَ

الْحَلِيبِيَّةَ ج ١ ص ٢٣٩ .

قال: ما أنا بقارىء^(١). فأخذه فغَطَّه ثانية ثم أرسله، فقال: إقرأ. قال: ما أنا بقارىء، فأخذه فغَطَّه الثالثة، ثم أرسله فقال: ﴿اقْرَأْ، بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. إقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٢) فرجع بها عليه الصلاة والسلام يرجف فؤاده، مما أَلَمَ به من الرُّوع الذي استلزمته مقابلة المَلَك لأول مرة، فدخل على خديجة زوجه، فقال: زَمِّلُونِي^(٣) زَمِّلُونِي، لتزول عنه هذه القُشْعَريرة، فزَمِّلوه حتى ذهب عنه الرُّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، لأن المَلَك غَطَّه حتى كاد يموت، ولم يكن له عليه الصلاة والسلام عَلِمٌ قبل ذلك بجبريل ولا بشكله فقالت (كلا! والله ما يُخْزِيكَ الله أبداً إنك لتصل الرِّجَم وتحمل الكَلَّ)^(٤) وتَكْسِبُ المعدوم^(٥) وتَقْرِي الضيف^(٦) وتُعِين على نوائب الحق^(٧)، فلا يسلِّط الله عليك الشياطين والأوهام. ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك). ولتتأكد خديجة مما ظنته أرادت أن تثبت مَمَّنْ لهم علم بحال الرُّسُل، مَمَّنْ اطلَّعوا على كتب الأقدمين، فانطلقت به حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عم خديجة، وكان أمراً قد تنصَّر^(٨) في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمِّ اسمع من ابن أخيك، فقال يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره عليه الصلاة والسلام خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس^(٩) الذي نَزَّلَ الله على موسى، لأنه يعرف أن رسول الله إلى أنبيائه

(١) أي لا أعرف القراءة ولا أحسنها.

(٢) سورة العلق الآيات: ١ - ٥.

(٣) غطوني بالثياب.

(٤) أي الشيء الذي يحصل منه التعب والإعياء لغيرك.

(٥) تصل من لا مال له ولا يجده إلا عندك.

(٦) ما يقدم للضيف من طعام وشراب.

(٧) جمع نائبة.

(٨) أي ترك عبادة الأوثان واعتنق النصرانية.

(٩) الناموس: والمراد جبريل عليه السلام.

هو جبريل ، ثم قال : يا ليتني فيها جذعاً (شاباً جلدأ) إذ يُخرجك قومك من بلادك التي نشأت بها لمعاداتهم إياك وكراهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم ، فاستغرب عليه الصلاة والسلام ما نسب لقومه مع ما يعلمه من حبهم له لاتصافه بمكارم الأخلاق وصدق القول حتى سَمَّوه الأمين ، وقال : أَوْ مُخْرِجِيْهِمْ ؟ قال : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي . وقد نطق بذلك القرآن الكريم . قال تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (١) ولتمام تصديق ورقة برسالة الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام قال : وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً (٢) (معضداً) ثم لم يلبث ورقة أن توفي (٣) .

فترة الوحي

وفترَ الوحي (٤) مدّة لم يتفق عليها المؤرخون ، وأرجح أقوالهم فيها أربعون يوماً ، ليشتدّ شوق الرسول للوحي ، وقد كان ، فإن الحال اشتدّ به عليه الصلاة والسلام حتى صار كلما أتى ذروة جبل بدا له أن يرمي نفسه منها ، حذراً من قطيعة الله له بعد أن أراه نعمته الكبرى ، وهي اختياره لأن يكون واسطة بينه وبين خلقه ، فيتبدى له الملك قائلاً : أنت رسول الله حقاً ، فيطمئن خاطره ويرجع عما عزم عليه ، حتى أراد الله أن يظهر للوجود نور الدين فعاد اليه الوحي (٥) .

(١) سورة إبراهيم الآية ١٣ .

(٢) أي شديداً .

(٣) روى البخاري حديث بدء الوحي في صحيحه في كتاب بدء الوحي ، رقم : ٣ .

(٤) أي احتبس جبريل عنه .

(٥) وقد ذكر عدنان المغربي في التعليق على عودة الوحي كان الوحي يأتي رسول الله ﷺ على مراتب وأنواع انحصرت فيما يلي :

١ - الرؤيا الصادقة : فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

عودة الوحي

فبينما هو يمشي إذ سمع صوتاً من السماء فرفع إليه بصره ، فإذا المَلَكُ الذي جاءه بحِراء جالس بين السماء والأرض ، فرُعب منه لتذكُّر ما فعله في المرة الأولى فرجع وقال : دثروني دثروني . فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ حذَّر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عن غيِّهم وما كان يعبد آباؤهم ﴿ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴾ خصَّه بالتعظيم ولا تشرك معه في ذلك غيره ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ لتكون مستعداً للوقوف بين يدي الله إذ لا يليق بالمؤمن أن يكون مستقذراً نجساً ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ أي اهجر أسباب الرِّجْز - وهو العذاب - بأن تطيع الله وتنفذ أمره ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ ﴾ ولا تهب أحداً هبة وأنت تطمع أن تستعيز من الموهوب أكثر مما وهبت ، فهذا ليس من شأن الكرام ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (١) على ما سيلحقك من أذى قومك حينما تدعوهم إلى الله .

الدعوة سراً

فقام عليه الصلاة والسلام بالأمر ودعا لعبادة الله أقواماً جُفَاء لا دين لهم ، إلا أن يسجدوا للأصنام لا تنفع ولا تضر ، ولا حجة لهم إلا أنهم متَّبِعون لما كان يعبد آباؤهم ، وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان

= ٢ - ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال ﷺ : إن روح القدس نفث

في روعي لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله واجملوا في الطلب .

٣ - كان يتمثل له المَلَكُ رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له ، فقد كان يأتيه في صورة دحية الكلبي .

٤ - كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راجلته لتبرُّك به على الأرض .

٥ - أن يرى المَلَكُ في صورته التي خُلِقَ عليها له ستمائة جناح ، فيُوحى إليه ما شاء الله أن يُوحى ، وهذا وقع له مرتين . الأولى : حين سأله أن يُريه نفسه أوائل البعثة بعد فترة الوحي . والثانية : كما في سورة النجم : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ .

(١) سورة المدثر الآيات : ١ - ٧ .

مرتبطاً بالعزة والأَنَفَة ، وهو الذي كثيراً ما كان سبباً في الغارات والحروب وإهراق الدماء ، فجاءهم رسول الله بما لا يعرفونه . فذوو العقول السليمة بادروا إلى التصديق وخلع الأوثان ، ومن أعمته الرياسة أدبر واستكبر كيلاً تُسلب منه عظمتة .

وكان أول من سَطَعَ عليه نور الإسلام خديجة بنت خويلد زَوْجُهُ^(١) ، وعلي بن طالب ابن عمه^(٢) ، وكان مُقيماً عنده يُطعمه ويسقيه ويقوم بأمره ، لأن قريشاً كانوا قد أصابتهم مجاعة وكان أبو طالب مُقلاً كثير الأولاد ، فقال عليه الصلاة والسلام لعَمّه العباس بن عبد المطلب : إن أخاك أبا طالب كثير العيال والناس فيما ترى من الشدة ، فانطلق بنا لنخفف من عياله تأخذ واحداً وأنا واحداً ، فانطلقا وعرضا عليه الأمر ، فأخذ العباس جعفر بن أبي طالب وأخذ عليه الصلاة والسلام علياً ، فكان في كفالته كأحد أولاده إلى أن جاءت النبوة وقد ناهز الإحتلام ، فكان تابعاً للنبي في كل أعماله ، ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الأوثان واتباع الهوى ، وأجاب أيضاً زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي^(٣) مولاه عليه الصلاة والسلام ، وكان يُقال له زيد بن محمد ، لأنه لما اشتراه أعتقه وتبنّاه ، وكان المتنبي معتبراً كابن حقيقي يرث ويورث ، وأجابت أيضاً أم أيمن حاضنته التي زوّجها لمولاه زيد . وأول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر^(٤) بن أبي قحافة بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمي القرشي كان صديقاً لرسول الله ﷺ قبل النبوة يعلم ما اتّصف به من مكارم الأخلاق ولم يَعْهَد عليه كذباً منذ اصطحبها ، فأول ما أخبره برسالة الله أسرع بالتصديق ، وقال : بأبي أنت وأمي ، أهل الصدق أنت ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك

(١) كانت أول من آمن بالله وبرسوله على الإطلاق .

(٢) كان أول ذكر من الناس وهو ابن عشر سنين على بعض الروايات .

(٣) مولى رسول الله ﷺ .

(٤) واسمه عبد الله وسمي عتيقاً ، وكان أبو بكر رجلاً مؤلفاً لقومه ، وكان لقبه الصديق ، لأنه صدّق بما جاء به رسول الله في خبر الإسراء توفي سنة ١٣ هـ .

رسول الله . كان رضي الله عنه صدرًا معظماً في قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق ، وكان من أعف الناس ، سخيًّا ، يبذل المال ، محبباً في قومه حسن المجالسة ، ولذلك كله كان من رسول الله ﷺ بمنزلة الوزير ، فكان يستشير في أموره كلها ، وقال في حقه : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر » . وكانت الدعوة إلى الإسلام سرّاً حذراً من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا ، فيصعب استسلامهم فكان عليه الصلاة والسلام لا يدعو إلا مَنْ يثق به . ودعا أبو بكر إلى الإسلام مَنْ يثق به من رجال قريش ، فأجابه جمع :

(منهم) عثمان بن عفان^(١) بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي ، ولما علم عمه الحكم^(٢) بإسلامه ، أوثقه كتافاً وقال : ترغب عن دين آبائك إلى دين مستحدث !!! والله لا أحلك حتى تدع ما أنت عليه ، فقال عثمان : والله لا أدعه ولا أفارقه . فلما رأى الحكم صلابته في الحق تركه ، وكان كهلاً يناهز الثلاثين من عمره .

(ومنهم) الزبير بن العوام^(٣) بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي ، وأمه صفية بنت عبد المطلب ، وكان عمّ الزبير يرسل الدخان عليه وهو مقيد ليرجع إلى دين آبائه فقواه الله بالثبات وكان شاباً لا يتجاوز سن الإحتلام .

(ومنهم) عبد الرحمن بن عوف^(٤) بن عبد عوف بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الهاشمي ، وكان اسمه في الجاهلية عبد عمرو فسمّاه عليه الصلاة والسلام عبد الرحمن .

(١) لُقّب بذي النورين لزوجاه من بنتي النبي ﷺ رقية وأم كلثوم ، وهو ثالث الخلفاء الراشدين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة .

(٢) هو الحكم بن أبي العاص بن أمية ، عم عثمان ووالد مروان ، أسلم يوم الفتح .

(٣) هو أبو عبد الله ، أحد العشرة المبشرين بالجنة . وأول من سلّ سيفه في الاسلام .

(٤) هو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وسمّاه رسول الله ﷺ عبد الرحمن ، وكان يحترف التجارة ، توفي سنة ٣٢ هـ .

(ومنهـم) سعد بن أبي وقاص^(١) مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهري القرشي . ولما علمت أمه حَمَنَةُ بنت أبي سفيان بن أمية بإسلامه قالت له : يا سعد بلغني أنك قد صبأت^(٢) ! فوالله لا يظللني سقف من الحر والبرد وإن الطعام والشراب عليّ حرام حتى تكفر بمحمد ، وبقيت كذلك ثلاثة أيام فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه أمر أمه فنزل في ذلك تعليماً ، قول الله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^(٣) وصاه جلّ ذكره بوالديه وأمره بالإحسان إليهما مؤمنين كانا أو كافرين ، أما إذا دَعَوَاهُ لِلإِشْرَاقِ فالمعصية محتمة . لأن كل حق ، وإن عظم ساقط هنا فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ثم قال : إِلَيَّ مرجعكم مَنْ آمَنَ منكم وَمَنْ أَشْرَكَ فأجازيكم حق جزائكم . وفي ختام هذه الآية فائدتان : التنبية على أن الجزاء إلى الله فلا تحدّث نفسك بحفوتهما لإشراكهما ، والحضّ على الثبات في الدين لئلا ينال شرّ جزاء في الأخرى .

(ومنهـم) طلحة بن عبيد الله^(٤) بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة التيمي القرشي وقد كان عَرَفَ من الرهبان ذكر الرسول وصفته ، فلما دعاه أبو بكر وسمع من رسول الله ما نفعه الله به ، ورأى الدين متيناً بعيداً عما عليه العرب من المثالب ، بادر إلى الإسلام .

(وممن) سبقوا إلى الإسلام صهيب الرومي^(٥) وكان من الموالي ،

(١) هو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأول من رمى بسهم في سبيل الله ، فاتح العراق ومدائن كسرى ، ويقال له فارس الإسلام .

(٢) صبأ : وهو ما كان يطلقه المشركون على من يدخل في الإسلام .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٨ .

هو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام ، من الأجواد ، ويقال له (٤) ولأبي بكر «الفرينان» قتل يوم الجمل ودفن بالبصرة سنة ٣٦ هـ .

(٥) هو صهيب بن سنان بن مالك ، من أرمى العرب سهماً ، وفي الحديث « أنا سابق العرب ، =

وعَمَّار بن ياسر العنسي^(١) وقد قال رضي الله عنه : رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر^(٢) ، وكذلك أسلم أبوه ياسر وأمه سمية .

(ومن) السابقين الأولين عبد الله بن مسعود^(٣) كان يرعى الغنم لبعض مُشركي قريش ، فلما رأى الآيات الباهرة وما يدعو إليه الإسلام من مكارم الأخلاق ، ترك عبادة الأوثان ولزم رسول الله ، وكان رضي الله عنه كثير الدخول على الرسول لا يُحجب ، ويمشي أمامه ، ويستتره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ، ويلبسه نعليه إذا قام ، فإذا جلس أدخلهما في ذراعيه .

(ومن) السابقين الأولين أبو ذر الغفاري^(٤) وكان من أعراب البادية فصيحاً حلو الحديث ، « ولما بلغه مَبْعَثُ رسول الله قال لأخيه^(٥) : إركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم اتنني ، فانطلق الأخ حتى قدم مكة وسمع من قول الرسول ﷺ ثم رجع إلى أبي ذر فقال : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ويقول كلاماً ما هو بالشعر ، فقال : ما شفيتني مما أردت . فتزوّد وحمل قربة له فيها ماء ، حتى قَدِمَ مكة فأتى المسجد ، فالتمس النبي ﷺ ولا يعرفه ، وكَرِهَ أن يسأل عنه لما يعرفه من كراهة قريش لكل من يخاطب رسول الله ، حتى إذا أدركه الليل رآه عليّ فعرف أنه غريب فأضافه عنده ، ولم يسأل أحد منهما صاحبه عن شيء (على قاعدة الضيافة عند العرب لا

= وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق فارس، وبلال سابق الحبشة .

(١) هو أحد السابقين الى الاسلام والجهر به، وفي الحديث: « ما خَيْرَ عمار بين أمرين إلا اختار أَرشدهما » .

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، رقم ٣٦٦٠ .

(٣) هو أبو عبد الرحمن، وأول من جهر بالقرآن بمكة، توفي بالمدينة سنة ٣٢ هـ .

(٤) هو جندب بن جنادة من بني غفار، وهو أول من حيّا رسول الله بتحية الإسلام .

(٥) واسمه أنيس .

يُسأل الضيف عن سبب قدومه إلا بعد ثلاث) فلما أصبح احتمل قِربته وزاده إلى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه الرسول حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه ، فمرّ به عليّ فقال : أما آن للرجل أن يعرف منزله الذي أُضيف به بالأمس ؟ فأقامه ، فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان اليوم الثالث عاد عليّ مثل ذلك ، ثم قال له علي : ألا تحدّثني ما الذي أقدمك ؟ قال : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لَتُرشدني فعلت ، ففعل فأخبره ، قال : فإنه حق وهو رسول الله ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فإنني إن رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كإني أريق الماء ، فإن مضيتُ فاتبعني حتى تدخل مدخلي ففعل . فانطلق يتبع أثره حتى دخل على النبي ، ودخل معه ، فسمع من قوله ، وأسلم مكانه ، فقال له النبي ﷺ : إرجع إلى قومك فاخبرهم حتى يأتيك أمري ، قال : والذي نفسي بيده لأصرّخن بها بين ظهرانيهم . فخرج حتى أتى المسجد ، فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العباس فأكبّ عليه وقال : ويلكم أولستُم تعلمون أنه من غفار ؟ وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليه ! فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لملثها ، فضربوه وثاروا إليه ، فأكبّ العباس عليه . (رواه البخاري)^(١) . كان رضي الله عنه من أصدق الناس قولاً ، وأزهدهم في الدنيا .

(ومن) السابقين سعيد بن زيد العدوي القرشي^(٢) وزوجه فاطمة^(٣) بنت الخطاب أخت عمر ، وأم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية^(٤) زوج العباس بن عبد المطلب ، وعُبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف^(٥) بن

(١) في كتاب مناقب الأنصار، باب : إسلام أبي ذر، رقم ٣٨٦١.

(٢) هو من السابقين والمهاجرين الأولين، وكان إسلام عمر بن الخطاب عنده في بيته، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة .

(٣) فاطمة بنت الخطاب من فواضل نساء عصرها، كانت ذات إيمان قوي بالله وبالإسلام .

(٤) من نبيلات النساء، وتسمى «لبابة الكبرى» تمييزاً لها عن أخت لأبيها تسمى «لبابة الصغرى» وهي التي ضربت أبا لهب بعمود فشجّته حين رآته يضرب رافع مولى رسول الله ﷺ .

(٥) في الأصل : عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم وهو خطأ .

عم رسول الله ﷺ^(١) وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي القرشي^(٢) ابن عمه رسول الله ﷺ ، وزوجه أم سلمة ، وعثمان بن مظعون الجمحي القرشي^(٣) ، وأخواه قدامة ، وعبد الله ، والأرقم بن أبي الأرقم^(٤) المخزومي القرشي .

(ومن) السابقين الأولين خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي القرشي^(٥) : كان أبوه سيد قريش إذا اعتم لم يعتّم قرشي إجلالاً له ، وكان خالد بن سعيد قد رأى في منامه أنه سيقع في هاوية ، فأدركه رسول الله وخلصه منها فجاء إليه وقال : إلام تدعوي يا محمد ؟ قال : (أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، والإحسان إلى والديك ، وأن لا تقتل ولدك خشية الفقر ، وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ، وأن لا تقتل نفساً حرّماً الله إلا بالحق ، وأن لا تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأن توفي الكيل والميزان بالقسط ، وأن تعدل في قولك ولو حُكمت على ذوي قرباك ، وأن توفي لمن عاهدت) فأسلم رضي الله عنه ، وحينئذ غضب عليه أبوه وآذاه حتى منعه القوت ، فانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يلزمه ويعيش معه ، ويغيب عن أبيه في ضواحي مكة ، وأسلم بعده أخوه عمرو بن سعيد .

وهكذا دخل هؤلاء الأشراف في دين الإسلام ، ولم يكن مع رسول الله ﷺ سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين ، وليس معه ما

(١) أبو الحارث ، من أبطال قريش في الجاهلية والإسلام .

(٢) أحد السابقين إلى الإسلام ، هاجر مع زوجته أم سلمة إلى الحبشة ، وشهد بدرًا ، وكان أخا رسول الله ﷺ من الرضاعة ، وأمه عمه رسول الله ﷺ برة بنت عبد المطلب .

(٣) كان من حكماء العرب في الجاهلية ، وأسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً ، وهاجر الهجرتين ، وشهد بدرًا ، وكان أول رجل مات بالمدينة من المهاجرين . وهو أحد من حرّم الخمر في الجاهلية .

(٤) من المهاجرين الأولين ، أسلم بعد عشرة ، وهو صاحب حلف الفضول ، وكان النبي ﷺ في داره حتى تكاملوا أربعين رجلاً مسلماً .

(٥) من الولاة الغزاة ، وكان الثالث أو الرابع من الداخلين في الإسلام .

يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم وذوي الثروة منهم ويتبعوا الرسول ليأكلوا من فضل ماله ، بل كان الكثير منهم واسع الثروة أكثر منه عليه الصلاة والسلام كأبي بكر وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم ، والذين اتبعوه من الموالي اختاروا الأذى والجوع والمشقات مع اتباع الرسول ، بحيث لو اتبعوا سادتهم لكانوا في هذه الدنيا أهدأ بالاً وأنعم عيشة ، اللهم ليس ذلك إلا من هداية الله وسطوع أنوار الدين عليهم ، حتى أدركوا ما هم عليه من الضلالة وما عليه رسول الله من الهدى .

الجهربالتبليغ

مضت كل هذه المدة^(١) والنبي عليه الصلاة والسلام لا يظهر الدعوة في مجامع قريش العمومية ، ولم يكن المسلمون يتمكّنون من إظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريش ، فكان كلّ من أراد العبادة ذهب إلى شعاب مكة يصلّي مستخفياً ، ولما دخل في الدين ما يربو على الثلاثين ، وكان من اللازم اجتماع الرسول بهم ليرشدهم ويعلمهم ، إختار لذلك دار الأرقم بن أبي الأرقم^(٢) - وهو ممّن ذكرنا إسلامهم - ومكث عليه الصلاة والسلام يدعو سرّاً حتى نزل عليه قوله تعالى في سورة الحجر : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٣) ، فبدّل الدعوة سرّاً بالدعوة جهراً^(٤) ممثلاً أمر ربه واثقاً بوعدده ونصره ، فصعد على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عدي ، لبطون قريش ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر الخبر ، فجاء أبو لهب بن عبد المطلب قريشاً ، فقال عليه

(١) قال صاحب السيرة الحلبية : المدة التي صار يدعو الناس فيها خفية بعد نزول ﴿ يا أيها المدثر ﴾ ثلاث سنين .

(٢) دار الأرقم : هي المعروفة بدار الخيزران عند الصفا ، اشتراها الخليفة المتصور وأعطائها ولده المهدي ، ثم أعطائها المهدي للخيزران .

(٣) سورة الحجر الآية : ٩٤ .

(٤) لعل الأصوب : فبدّل بالدعوة سرّاً الدعوة جهراً .

الصلاة والسلام : (رأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) ، فقال أبو لهب : تباً لك ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله في شأنه : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (١) والقصد من حمل الحطب المشي بالنميمة لأنها كانت تقول على رسول الله الأكاذيب في نوادي النساء . ثم نزل عليه في سورة الشعراء : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ أي العشيرة والأقربون ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) فجمعهم عليه الصلاة والسلام وقال لهم : « إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتنَّ كما تنامون ولتبعثنَّ كما تستيقظون ، ولتُحاسبنَّ بما تعملون ، ولتجزؤنَّ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبدأ أو لنار أبدأ » (٣) . فتكلم القوم كلاماً ليئناً غير عمه أبي لهب الذي كان خصماً لدوداً فإنه قال : خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن أسلمتموه إذا ذللتم ، وإن منعتموه قُلتتم ، فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا ، ثم انصرف الجمع .

ولما جهر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالدعوة سخرت منه قريش واستهزؤوا به في مجالسهم ، فكان إذا مرَّ عليهم يقولون : هذا ابن أبي كبشة يُكلِّم من السماء ! وهذا غلام عبد المطلب يُكلم من السماء لا يزدون على ذلك ، فلما عاب آلهم وسفَّه عقولهم وقال لهم : والله يا قوم لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم ، ثارت في رؤوسهم حمية الجاهلية غيرة على

(١) سورة المسد . رواه مسلم في الإيمان ، رقم : ٢٠٨ .

(٢) سورة الشعراء الآيات : ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) هذه الخطبة لرسول الله ﷺ ذكرها صاحب السيرة الحلبية ٢٨٥/١ .

تلك الآلهة التي كان يعبدونها آباؤهم فذهبوا^(١) إلى عمه أبي طالب سيد بني هاشم الذي أخذ على نفسه حمايته من أيدي أعدائه فطلبوا منه أن يُخلي بينهم وبينه أو يكفّه عما يقول ، فردّهم ردّاً جميلاً فانصرفوا عنه ، ومضى رسول الله لما يريده لا يصدّه عن مراده شيء ، فتزايد الأمر ، وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله ﷺ ، وحثّ بعضهم بعضاً على ذلك .

ثم مشوا الى أبي طالب مرة أخرى وقالوا له : إن لك سناً وشرفاً ومنزلة منا ، وإنّا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه عقولنا ، وعيب آلهتنا . فإنهم كانوا إذا احتجّوا بالتقليد في استمرارهم على عدم اتباع الحق ذمّهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له قال الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾^(٢) وقال في سورة المائدة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾^(٣) وقال في سورة الزخرف في بيان حجتهم الداحضة : ﴿ قَالَ مُتَرَفُّوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾^(٤) ولما شبههم بمن قبلهم من الأمم في هذه المقالة الدّالة على التعصب والعناد قال : ﴿ قُلْ أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾^(٥) فلما تمسكوا بحجة التقليد لأبائهم جرّ

(١) ومنهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، ، أبو سفيان ، والعاص بن هشام ، وأبو جهل ، والوليد بن المغيرة .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٧٠ .

(٣) سورة المائدة الآية : ١٠٤ .

(٤) سورة لقمان الآية : ٢١ .

(٥) سورة الزخرف الآية : ٢٣ .

(٦) سورة الزخرف الآية : ٢٤ .

ذلك إلى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية ، فهاج ذلك أضغانهم ، وقالوا لأبي طالب : إما أن تكفّه أو نُنزله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا فعظم على أبي طالب فراق قومه ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ، فقال له : يا ابن أخي إن القوم جاؤوني فقالوا لي كذا ، فأبق على نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ، فظن الرسول أن عمّه خاذله فقال : « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يُظهره الله أو أهلك دونه » ، ثم بكى وولى . فقال أبو طالب أقبل يا ابن أخي فأقبل عليه ، فقال اذهب فقل ما أحبيت والله لا أسلمك .

الإيذاء

ورأى رسول الله من المشركين كثير الأذى وعظيم الشدة ، خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت ، وكان من أعظمهم أذىً لرسول الله جماعة سمّوا لكثرة أذاهم بالمستهزئين .

(فأولهم) وأشدهم أبو جهل عمرو بن هشام^(١) بن المغيرة المخزومي القرشي ، قال يوماً : يا معشر قريش إنّ محمداً قد أتى ما ترون من عيب دينكم وستم آلهتكم ، وتسفيه أحلامكم ، وسب آبائكم ، إني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر لا أطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته رضختُ به رأسه فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله ينتظره ، وغدا عليه الصلاة والسلام كما كان يغدو إلى صلاته ، وقريش في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد عليه الصلاة والسلام احتمل

(١) من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ، وكان يقال له « أبا الحكم » فدعاه المسلمون « أبا جهل » حتى كانت وقعة بدر ، فشهدا مع المشركين فكان من قتلها .

أبو جهل الحجر وأقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعا^(١) لونه من الفزع ورمى حجره من يده . فقام إليه رجال من قريش فقالوا : ما لك يا أبا الحكم ؟ قال قدمت إليه لأفعل ما قلت لكم فلما دنوت منه عرض لي فحل من الإبل ، والله ما رأيت مثله قط همّ بي أن يأكلني ! فلما ذكر ذلك لرسول الله قال : ذاك جبريل وولدنا لأخذه^(٢) . وكان أبو جهل كثيراً ما ينهي الرسول عن صلاته في البيت^(٣) فقال له مرة بعد أن رآه يصلي : ألم أنهك عن هذا ؟ فأغلظ له رسول الله القول وهدده ، فقال : أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً ، فأنزل الله تهديداً له في آخر سورة إقرأ : ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تَطَعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾^(٤) .

ومن أذيته للرسول ما حكاه عبد الله بن مسعود من رواية البخاري . قال : كنا مع رسول الله في المسجد وهو يصلي ، فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى فرث^(٥) جزور بني فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد ؟ فقام عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس ، وجاء بذلك الفرث ، فألقاه على النبي ﷺ وهو ساجد ، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم ، ولم يزل عليه الصلاة والسلام ساجداً حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القذر ورمته . فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح فقال : اللهم عليك بالملأ من قريش وسمى أقواماً^(٦) ، قال ابن مسعود فرأيتهم قتلوا يوم بدر .

(١) منتقعا ، متغيراً .

(٢) روى مسلم في صحيحه في صفات المنافقين وأحكامهم ، رقم : ٢٧٩٧ ، عن أبي هريرة بعد ذكر الحديث ، فقيل له (أي لأبي جهل) : ما لك ، فقال : إن بيني وبينه لخدقاً من نارٍ وهولاً وأجنحة ، فقال رسول الله ﷺ « لو دنا لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » .

(٣) الصواب : عند البيت .

(٤) سورة العلق الآيات : ١٥ - ١٩ .

(٥) الفرث : الكرش .

(٦) رواه البخاري في الوضوء . عن عبد الله بن مسعود وتمة الحديث : « اللهم عليك بقريش ثلاثاً ، =

ومما حصل لرسول الله مع أبي جهل أن هذا ابتاع أجماً من رجل يقال له الإراشي^(١) فمطله بأثمانها فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله فدلّوه على رسول الله لئِنْصَفَه من أبي جهل استهزاء لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقي بالرسول ، فتوجه الرجل إليه وطلب منه المساعدة على أبي جهل فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال : مَنْ هذا ؟ قال : محمد ، فخرج منتقماً لونه فقال له الرسول : أعطِ هذا حقه ، فقال أبو جهل لا تبرح حتى تأخذه ، فلم يبرح الرجل حتى أخذ دَيْنَه ، فقالت قريش : ويلك يا أبا الحكم ما رأينا مثل ما صنعت ! قال ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابي حتى سمعت صوته فملثت منه رعباً ، وإن فوق رأسي فحلاً من الإبل ما رأيت مثله^(٢) .

(ومن جماعة المستهزئين) أبو لهب بن عبد المطلب^(٣) عم رسول الله كان أشدّ عليه من الأباعد ، فكان يرمي القدر على بابه لأنه كان جاراً له ، فكان الرسول يطرحه ويقول : يا بني عبد مناف أيُّ جوار هذا ، وكانت تشاركه في قبيح عمله زوجه أمّ جميل بنت حرب بن أمية ، فكانت كثيراً ما تسبّ رسول الله ، وتكلم فيه بالنمائم ، وخصوصاً بعد أن نزل فيها وفي زوجها سورة أبي لهب .

(ومن المستهزئين) عُقبة بن أبي مُعَيْط كان الجار الثاني لرسول الله وكان يعمل معه كأبي لهب ، صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : والله لا أكل طعمامك حتى تؤمن

= فشقّ عليهم إذ دعا عليهم ، قال : وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة ، ثم سمي : اللهم عليك بأبي جهل ، وعليك بعتبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ؛ وأمّية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، وعدّ السابع فلم نحفظه ، قال : فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عدّ رسول الله ﷺ صرعى في القليب قليب بدر .

(١) الإراشي : نسبة إلى إراشة بطن من خثعم .

(٢) لو أبّيت أو تأخرت لأكلني . كذا في السيرة الحلبية .

(٣) اسمه عبد العزى ، من أشد الناس عداوة للمسلمين في الإسلام ، نزلت فيه الآية : ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ .

بالله ، فتشهد ، فبلغ ذلك أبي بن خلف الجُمحي القرشي ، وكان صديقاً له فقال : ما شيء بلغني عنك ؟ قال : لا شيء ، دخل منزلي رجل شريف فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له . قال أبي : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ عنقه ، وتبزق في وجهه ، وتلطم عينه^(١) ، فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك فأنزل الله فيه سورة الفرقان : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾^(٢) ومن أشد ما صنعه ذلك الشقي برسول الله ما رواه البخاري في صحيحه^(٣) قال : بينما النبي يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنق رسول الله فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾^(٤) .

(ومن جماعة المستهزئين) العاص بن وائل السهمي القرشي والد عمرو بن العاص ، كان شديد العداوة لرسول الله ، وكان يقول : غرَّ محمد أصحابه أن يحيوا بعد الموت والله ما يهلكنا إلا الدهر ، فقال الله ردّاً عليه في دعواه في سورة الجاثية : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا

(١) في سيرة ابن هشام : أن أبياً قال لعقبة : وجهي من وجهك حرام أن أكلمك إن أنت جلست إليه أو سمعت منه ، أو لم تأت فتتفل في وجهه ، ففعل ذلك عدو الله عقبة بن أبي معيط لعنه الله . اهـ . والمسألة ليست ضعفاً أو قوة بل هو موقف متخذ بعدم رد الأذى واحتمال الذل حتى لا يقع صدام ودماء تحول في المستقبل دون إسلامهم وهذا من وحي علام الغيوب .

(٢) سورة الفرقان الآيات : ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ .

(٣) باب : تفسير سورة المؤمن ، رقم : ٤٨١٥ ، عن عروة بن الزبير ، قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال : فذكر الحديث .

(٤) سورة غافر الآية : ٢٨ .

وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿١﴾ . وكان عليه دَيْنٌ لِحَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ أَحَدِ رِجَالِ الْمُسْلِمِينَ (٢) فَتَقَاضَاهُ إِيَّاهُ فَقَالَ الْعَاصُ : أَلَيْسَ يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ هَذَا الَّذِي أَنْتَ عَلَى دِينِهِ أَنْ فِي الْجَنَّةِ مَا يَبْتَغِي أَهْلُهَا مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ ثِيَابٍ أَوْ خَدَمٍ ؟ قَالَ حَبَابٌ : بَلَى ، قَالَ : فَانْظُرْنِي إِلَى هَذَا الْيَوْمِ فَسَأُوتِي مَالاً وَوَلَدًا وَأَقْضِيكَ دِينَكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا . أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا . كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِيَّهَ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ (٣) .

(ومن جماعة المستهزئين) الأسود بن عبد يغوث الزهري (٤) القرشي من بني زهرة أحوال رسول الله كان إذا رأى أصحاب النبي مقبلين يقول قد جاءكم ملوك الأرض ، استهزاء بهم لأنهم كانوا متقشفين : ثيابهم رثة ، وعيشهم خشن ، وكان يقول لرسول الله سخرية : أما كُلَّمَتِ الْيَوْمَ مِنَ السَّمَاءِ ؟ .

(ومنهم) الأسود بن عبد المطلب الأسدي ابن عم خديجة كان هو وشيعته إذا مرّ عليهم المسلمون يتغامزون وفيهم نزل في سورة المطففين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ (٥) .

(ومنهم) الوليد بن المغيرة عم أبي جهل ، كان من عظماء قريش

(١) سورة الجاثية الآية : ٢٤ .

(٢) هو أبو عبد الله ، من السابقين ، قيل أسلم سادس ستة ، وهو أول من أظهر إسلامه ، عذب كثيراً ليرجع عن دينه فصر ، قال علي بن أبي طالب : رحم الله حباباً ، أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً .

(٣) سورة مريم الآيات : ٧٧ - ٨٠ .

(٤) هو الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف زهرة ابن أخي أمة أم رسول الله ﷺ .

(٥) سورة المطففين الآيات : ٢٩ - ٣٢ .

وفي سعة من العيش ، سمع القرآن مرة من رسول الله ﷺ ، فقال لقومه بني مخزوم والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو كلام الإنس ولا من كلام الجن وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يُعلَى ، فقالت قريش : صباً والله الوليد ، لتصبأن قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه فتوجه وقعد اليه حزناً وكلمه بما أحماه^(١) ، فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يهُوس^(٢) ؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جرّبتُم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك اللهم لا ، ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر قليلاً ثم قال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، فارتجّ النادي فرحاً فأنزل الله في شأن الوليد في سورة المدثر مخاطباً لرسوله : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأْرِهْقَهُ صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾^(٣) وأنزل فيه أيضاً في سورة ن : ﴿ وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَافٍ ﴾ كثير الحلف وكفى بهذا زاجراً لمن اعتاد الحلف ﴿ مَهِينٍ ﴾ حقير وأراد به الكذاب لأنه حقير في نفسه ﴿ هَمَّازٍ ﴾ عِيَاب طعان ﴿ مَشَاءٍ ﴾ بَنِيمٍ ﴿ بنقل الأحاديث للإفساد بين الناس ﴾ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عَتَلٌ ﴿ غليظ جاف ﴾ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴿ دخيل ﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴿^(٤) كناية عن الازدلال والتحقير لأن الوجه أكرم عضو والأنف أشرف ما فيه ولذلك اشتقوا منه كل ما

(١) أحماه أغضبه .

(٢) الهوس طرف من الجنون .

(٣) سورة المدثر الآيات : ١١ - ٢٦ .

(٤) سورة القلم الآيات : ١٠ - ١٦ .

يدل على العظمة كالأنفة وهي الحمية فالوسم على أشرف عضو دليل الإذلال والإهانة .

(ومن المستهزئين) النضر بن الحارث العبدري من بني عبد الدار بن قصي كان إذا جلس رسول الله مجلساً للناس يحدثهم ويدكرهم ما أصاب من قبلهم قال النضر : هلموا يا معشر قريش فلاني أحسن منه حديثاً ثم يحدث عن ملوك فارس ، وكان يعلم أحاديثهم ، ويقول ما أحاديث محمد إلا أساطير الأولين وفيه نزل في سورة لقمان : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١) وكل هؤلاء انتقم الله منهم كما قال الله تعالى في سورة الحجر : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) وقد وضع الله جل ذكره الوعد في صورة الماضي للتحقق من وقوعه ، لأن الآية مكيّة وهلاك هذه الفئة كان بعد الهجرة ، فمنهم من قُتل كأبي جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة فهلك منها كأبي لهب والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة .

إسلام حمزة (٣)

وكان بعض إيزائهم هذا سبباً لإسلام عمّه حمزة بن عبد المطلب ، فقد أدركته الحميّة عندما عيّرت بعض الجوّاري بإيذاء أبي جهل لابن

(١) سورة لقمان الآية ٦ - ٧ .

(٢) سورة الحجر الآية ٩٦ .

(٣) حمزة بن عبد المطلب ، سيد الشهداء أسد الله وأسد رسوله ، أسنّ من النبي ﷺ بستين ، أحد صناديد قريش وسادتهم في الجاهلية والإسلام ، شجاعاً ، ويوم أخذ رماه وحشي بحربة فقتله فدفن بالمدينة سنة ٣ هـ .

أخيه^(١)، فتوجه إلى ذلك الشقي وغاضبه وسبه ، وقال : كيف تسبّ محمداً وأنا على دينه ، ثم أنار الله بصيرته بنور اليقين حتى صار من أحسن الناس إسلاماً ، وأشدّهم غيرة على المسلمين ، وأقواهم شكيمة على أعداء الدين حتى سمي أسد الله .

وكما أودى الرسول عليه الصلاة والسلام أودى أصحابه لاتباعهم له خصوصاً من ليس له عشيرة تحميه وتردّ كيد عدوه عنه ، وكل هذا الأذى كان حلواً في أعينهم ما دام فيه رضاء الله ، فلم يفتنوا عن دينهم بل ثبتهم الله حتى أتم أمره على أيديهم ، وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين فيها ، كما قال جلّ ذكره في سورة القصص : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾^(٢) وقد حقّق ما أراد .

(ومن) الذين أودوا في الله بلال بن رباح كان مملوكاً لأمية بن خلف الجمحي القرشي ، فكان يجعل في عنقه حبلاً ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به وهو يقول : أحد أحد . لم يشغله ما هو فيه عن توحيد الله . وكان أمية يخرج به في وقت الظهيرة في الرمضاء - وهي الرمل الشديد الحرارة لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت - ثم يؤمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول : أحد أحد^(٣) . مرّ به أبو بكر يوماً فقال يا أمية أما تتقي الله في هذا المسكين حتى متى تعذبه ؟ قال أنت أفسدته فأنقذه مما ترى . فاشتراه منه وأعتقه فأنزل الله فيه وفي أمية في سورة الليل : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ أمية بن خلف ﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيَجْزِيهَا

(١) وقد أخبرته مولاة عبد الله بن جدعان بذلك وهو راجع من قنص له ، فجاء المسجد فعلا رأس اللعين أبي جهل بقوسه فشجّه شجرة منكراً ، وقال أتشتمه وأنا على دينه فردّ ذلك عليّ إن استطعت ، ديني دين محمد إن كنتم صادقين فامنعوني .

(٢) سورة القصص الآية : ٥

(٣) يقولها وهو صادق الإسلام ، طاهر القلب ، مزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان .

الْأَتَقَى ﴿ الصَّدِيق ﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿١﴾ بما يعطيه الله في الأخرى جزاء أعماله . وقد نبّه الله جلّ ذكره على أن بذل الصديق ماله في شراء بلال وعتقه لم يكن إلا ابتغاء وجهه ربه ، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً للصديق رضي الله عنه وأرضاه ، وقد أعتق غير بلال جماعة من الأرقاء أسلموا فعذبهم مواليتهم . (ومنهم) حَمَامَةُ أم بلال ، وعامر بن فُهَيْرَة (٢) كان يعذب حتى لا يدري ما يقول ، وأبو فُكَيْهَة كان عبداً للصفوان بن أمية بن خلف . (ومنهم) امرأة تسمى زَيْنَرَة عذّبت في الله حتى عميت فلم يزدها ذلك إلا إيماناً (٣) ، وكان أبو جهل يقول : ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقونا إليه أفسبقنا زينة إلى رشد ، فأنزل الله في سورة الأحقاف : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكَ قَدِيمٌ ﴾ (٤) . (وممن) أعتق أبو بكر بعد شرائه : أم عُنَيْس كانت أمة لبني زهرة وكان يعذبها الأسود بن عبد يغوث .

و (ممن) عُذِبَ في الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه كانوا يعذبون بالنار فمرّ بهم رسول الله ﷺ فقال : صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة ، اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت . أما أبو عمار وأمه فماتا تحت العذاب رحمهما الله ، وأما هو فثقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر ، فإن أبا جهل كان يجعل له دروعاً من الحديد في اليوم الصائف ويلبسه إياها ، فقال المسلمون : كفر عمار ، فقال عليه الصلاة والسلام : (عمارٌ مليء إيماناً من فرقه إلى قدمه) ، وأنزل الله في شأنه استثناء في حكم المرتد ، فقال جلّ ذكره في سورة النحل : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ

(١) سورة الليل الآيات : ١٤ - ٢١ .

(٢) شهد بدرًا وأُحُدًا ، وقتل يوم بئر معونة شهيداً .

(٣) أمة عمر بن الخطاب أسلمت قبله ، فكان يضربها ، فذهب بصرها ، فتأبى إلا الإسلام ، فقال المشركون : ما أصاب بصرها إلا اللات والعزى . فقالت : والله ما هو كذلك ، فردّ الله عليها بصرها .

(٤) سورة الأحقاف الآية : ١١ .

مُظْمًئِينَ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ .

(وَمَنْ أُوذِيَ فِي اللَّهِ) خَبَابُ بْنُ الْأَرْتِ ، سُيِّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَاشْتَرَتْهُ أُمُّ أَنْمَارٍ ، وَكَانَ حَدَادًا وَكَانَ النَّبِيُّ يَأْلِفُهُ قَبْلَ النَّبُوَّةِ ، فَلَمَّا شَرَّفَهُ اللَّهُ بِهَا أَسْلَمَ خَبَابُ ، فَكَانَتْ مَوْلَاتُهُ تَعَذِّبُهُ بِالنَّارِ فَتَأْتِي بِالْحَدِيدَةِ الْمَحْمَاةِ فَتَجْعَلُهَا عَلَى ظَهْرِهِ لِيَكْفُرَ ، فَلَا يَزِيدُهُ إِلَّا إِيْمَانًا ، وَجَاءَ خَبَابُ مَرَّةً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ مَتَوَسِدٌ بُرْدَةً فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا ؟ فَقَعَدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ مُحَمَّرًا وَجْهَهُ فَقَالَ : (إِنَّهُ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِيَمْشِطَ أَحَدُهُمْ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ وَعَصَبٍ وَيُوضَعُ الْمَنْشَارُ عَلَى فَرْقِ رَأْسِ أَحَدِهِمْ فَيَشَقُّ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَلِيُظْهَرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ ^(٢) لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّنُوبَ عَلَى غَنَمِهِ) ^(٣) ، قَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ فِي هَذِهِ الْحَالِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي لَا يَتَصَوَّرُ فِيهَا أَعْقَلَ الْعُقْلَاءِ وَأَنْبَلَ النَّبَلَاءِ قُوَّةَ مُنْتَظَرَةٍ أَوْ سَعَادَةٍ مُسْتَقْبَلَةٍ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ وَحْيٌ يُوحَى إِلَيْهِ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَثْبِيثًا لِلْمُؤْمِنِينَ أَوَّلَ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ : ﴿ أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ ^(٤) .

(وَمَنْ أُوذِيَ فِي اللَّهِ) أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، وَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْأَذَى أَجْمَعَ أَمْرَهُ عَلَى الْهَجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى جَهَّةِ الْحَبَشَةِ ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى بَرَكَ الْغِمَادِ ^(٥) فَلَقِيَهُ ابْنُ الدُّغْنَةِ (وَهُوَ سَيِّدُ قَبِيلَةٍ عَظِيمَةٍ اسْمُهَا الْقَارَةُ) ^(٦) فَقَالَ : إِلَى أَيْنَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟

(١) سورة النحل الآية : ١٠٦ .

(٢) حضر موت : وهي ناحية في شرقي عدن .

(٣) رواه البخاري ، في مناقب الأنصار ، رقم : ٣٨٥٢ .

(٤) سورة العنكبوت الآيات : ١ - ٣ .

(٥) برك الغماد : موضع وراء مكة بخمس ليالٍ مما يلي البحر . من ياقوت . المؤلف .

(٦) قبيلة مشهورة من بني الهون ، يُضْرَبُ بِهِمُ الْمَثَلُ فِي قُوَّةِ الرَّمْيِ . واسم ابن الدغنة ربيعة بن رفيع وفي السيرة الحلبية الحارث بن رفيع .

فقال أخرجني قومي فأريد أن أسبح في الأرض وأعبد ربي ، فقال ابن الدغنة : مثلك يا أبا بكر لا يخرج ، إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار ، فارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل ابن الدغنة معه ، وطاف في أشراف قریش ، فقال لهم : أبو بكر لا يُخرجُ مثله . أتخرجون رجلاً يُكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقري الضيف ، ويُعين على نوائب الحق ! فلم تُكذِّب قریش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا له مَرُّ أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصل فيها ما شاء ، وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن ، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر ، فلبث بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره ، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن ، فينقذ عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه . وكان رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قریش ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة ، فقدم عليهم فقالوا : إنا كنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك ، فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه بفناء داره فعل ، وإن أبي إلا أن يعلن ذلك فسأله أن يرده إليك ذمتك ، فإننا قد كرهنا أن نُخْفِرَكَ^(١) ولسنا مقرين لأبي بكر بالإستعلان . فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال : قد علمت الذي عاقدت لك عليه . فإمّا أن تقتصر على ذلك ، وإمّا أن تُرجع إليّ ذمتي ، فإنني لا أحب أن تسمع العرب أنني أخفرت في رجل عقدت له . فقال أبو بكر : فإنني أردّ عليك جوارك وأرضى بجوار الله . (رواه البخاري)^(٢) وكان ذلك سبباً لإيصال أذى عظيم إلى أبي بكر رضي الله عنه .

وبالجملة فلم يخل أحد من المسلمين من أذيةٍ لحقته ولكن كل ذلك

(١) الخفر : نقض العهد .

(٢) في كتاب الكفالة ، رقم : ٢٣٩٧ .

ضاع سدىً تلقاء ثباتهم وعظيم إيمانهم ، فانهم لم يسلموا لغرض دنيوي يرجون حصوله فيسهل إرجاعهم ، ولكن وفقهم الله لإدراك حقيقة الإيمان فرأوا كل شيء دونه سهلاً .

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يُجِدْهم نفعاً ، بل كلما زادوا المسلمين أذىً ازداد يقينهم ، اجتمعوا للشورى فيما بينهم ، فقال لهم عتبة بن ربيعة العبشمي من بني عبد شمس بن عبد مناف وكان سيداً مطاعاً في قومه : يا معشر قريش ألا أقوم لمحمد فأكلّمه وأعرض عليه أموراً علّه يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكفّ عنا ؟ فقالوا يا أبا الوليد فقم إليه فكلّمه . فذهب إلى رسول الله وهو يصلي في المسجد ، وقال : يا ابن أخي إنك منّا حيث قد علمت من خيارنا حسبا ونسباً وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفّهت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضي من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها : فقال عليه الصلاة والسلام : قل يا أبا الوليد أسمع .

فقال : يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مალأ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً^(١) من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى ، فقال عليه الصلاة والسلام : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال فاسمع مني فقرأ رسول الله ﷺ أول سورة فصلت :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حَمَّ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْنَةِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ قُلُوبَنَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا

(١) ما يترأى للإنسان من الجن .

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تُكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيُنْزِلَ إِلَيْهِ السَّمَاءُ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١﴾ .

فأمسك عتبة بفيه ، وناشده الرحم أن يكفّ عن ذلك ، فلما رجع عتبة سأله فقال : والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر ، يا معشر قريش أطيعوني فاجعلوها بي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكوننّ لكلامه الذي سمعت نبأ ، فإن تُصبه (٢) العرب كُفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فعزّه عزّكم ، فقالوا لقد سحرك محمد ، فقال هذا رأيي .

ثم عرضوا عليه بعد ذلك أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركوه في عبادته فأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٣) فلا تتوهموا أنني أجيبكم لطلبكم من الإشراف بالله ، فأيسوا منه ، وطلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد ، فيأتي بقرآن غيره أو يبدّله فأنزل الله جواباً لهم في سورة يونس : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدَلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا

(١) سورة فصلت الآيات : ١ - ١٤ .

(٢) تصبه العرب : تقتله .

(٣) سورة الكافرون .

يُوحَى إِلَيَّ ﴿١﴾ وقد حصل له مع كفار قريش نادرة تكون لمن استهان بالضعيف كمصباح يستضيء به ، وهو أنه بينما الرسول عليه الصلاة والسلام مع كُبراء قريش وأشرافهم يتألفهم ويعرض عليهم القرآن وما جاء به من الدين إذ أقبل عليه عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى ^(٢) . (وهو ممن أسلموا قديماً) والنبي مشغول بالقوم ، وقد لقي منهم مؤانسة حتى طمع في إسلامهم ، فقال له عبد الله : يا رسول الله علّمني مما علّمك الله وأكثر عليه القول ، فشق ذلك على الرسول ، وكره قطعه لكلامه ، وخاف عليه الصلاة والسلام أن يكون التفاته لذلك المسكين ينفر عنه قلب أولئك الأشراف فأعرض عنه فعاتبه الله على ذلك بقوله أول سورة عبس : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى أَوْ يَذْكُرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ ^(٣) فما عبس رسول الله ﷺ بعدها في وجه فقير ، وكان إذا أقبل عليه عبد الله ابن أم مكتوم يقول له : (مرحباً بمن عاتبني فيه ربي) .

ولما رأى المشركون أن هذه المطالب التي يعرضونها لا تقبل منهم أرادوا أن يدخلوا في باب آخر ، وهو تعجيز الرسول بطلب الآيات ، فاجتمعوا وقالوا : يا محمد إن كنت صادقاً فأرنا آية نطلبها منك وهي أن تشق لنا القمر فرقتين ، فأعطاه الله هذه المعجزة ، وأنشق القمر فرقتين ، فقال رسول الله : اشهدوا ^(٤) ، وهذه القصة رواها عبد الله بن مسعود وهو من السابقين الأولين رويت عنه من طرق كثيرة ، ورواها عبد الله بن عباس وغيره ، ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر وقد ذكرها

(١) سورة يونس الآية : ١٥ .

(٢) نسب إلى أمه أم مكتوم عاتكة بنت عبد الله من بني مخزوم . كان يؤذن لرسول الله ﷺ واستخلفه على المدينة . توفي سنة ٢٣ هـ .

(٣) سورة عبس الآيات : ١ - ١٠ .

(٤) رواه البخاري في المناقب ، رقم : ٣٦٣٦ . ومسلم في صفات المنافقين ، رقم : ٢٨٠٠ .

القرآن الكريم في قوله تعالى أول سورة القمر : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى قال بعضهم : لقد سحركم ابن أبي كبشة فأنزل الله فيهم : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ (١) ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون بذلك إلا التعنت والعناد ، فمنها أن قالوا كما في سورة الإسراء : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ تَفْجِيرًا . أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ﴾ ولم يجبههم الله إلا بقوله : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (٢) لأن الله علم ما تُكِنُّه جوارحهم من التعصب والعناد ، فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات كما قال جل ذكره في سورة الأنعام : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) وكيف يرجى الخير مِمَّن قالوا كما في سورة الأنفال : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٤) ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، وهذه سنة من سنن الأنبياء إذا رأوا من طلاب الآيات عناداً ، وأنهم يطلبونها تعجيزاً لا يسألون الله انفاذ هذه الآيات كيلا يحل بقومهم الهلاك كما حصل لعاد وثمود وغيرهم . وهذا هو المراد من قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَمَا مَنَعْنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (٥) وقد حصل للمسيح عليه السلام أنه لما وقف أمام هيردوس طلب منه آية فلم يُجبهه إلى طلبه ، فلما رأى ذلك سخر منه وردّه ببيلاطس بعد أن كان يأسف عليه ويتمنى لقاءه ، وذلك مذكور في الإصحاح الثالث والعشرين من إنجيل لوقا .

(١) سورة القمر الآية : ١ - ٢ .

(٢) سورة الإسراء الآيات : ٩٠ - ٩٣ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٠٩ .

(٤) سورة الأنفال الآية : ٣٢ .

(٥) سورة الإسراء الآية ٥٩ .

هذا ولما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان تحولوا إلى سياسة القوة التي اختارها قوم إبراهيم عندما عجزوا عنه حيث قالوا : ﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ ^(١) كما في سورة الأنبياء أما هؤلاء فازدادوا بالأذى على كل من أسلم رجاء صدهم عن اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يتركوا باباً إلا ولجوه ، فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : (تفرقوا في الأرض ، فإن الله سيجمعكم ، فسألوه عن الوجه فأشار إلى الحبشة) ^(٢) .

هجرة الحبشة الأولى

فعند ذلك تجهز ناس للخروج من ديارهم وأموالهم فراراً بدينهم كما أشار عليه الصلاة والسلام ، وهذه هي أول هجرة من مكة ، وعدة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة ، وهم : عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ، وأبو سلمة وزوجه أم سلمة ، وأخوه لأمه أبو سبرة بن أبي رهم وزوجه أم كلثوم ، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلي ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهيل ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعون ، ومصعب بن عمير ، وسهيل بن البيضاء ، والزبير بن العوام ، وجُلهم من قريش ، وكان عليهم فيما روى ابن هشام عثمان بن مظعون ، فساروا على بركة الله ، ولما انتهوا إلى البحر ، استأجروا سفينة أوصلتهم إلى مقصدهم ، فأقاموا آمنين من أذى يلحق بهم من المشركين ، ولم يبق مع النبي عليه الصلاة والسلام إلا القليل .

(١) سورة الأنبياء الآية : ٦٨ .

(٢) لما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء ، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لکم فرجاً مما أنتم فيه .

إسلام عمر

وفي ذلك الوقت أسلم الشهم الهمام عمر بن الخطاب العدوي القرشي^(١) بعدما كان عليه من كراهية المسلمين وشدة أذاهم ، قالت ليلي^(٢) : إحدى المهاجرات لأرض الحبشة مع زوجها ، كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا ، فلما ركبتُ بعيري أريد أن أتوجه إلى أرض الحبشة إذا أنا به ، فقال لي : إلى أين يا أم عبد الله ؟ فقلت قد آذيتُمونا في ديننا ، نذهبُ في أرض الله حيث لا نُؤذى ، فقال : صحبكم الله ، فلما جاء زوجي عامر أخبرته بما رأيت من رقة عمر ، فقال : ترجين أن يُسَلِّم ! والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ! وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على المسلمين ، ولكن حصلت له بركة دعوة المصطفى ﷺ فانه قال قبيل إسلامه : « اللهم أعز الإسلام بعمر » ، وكان إسلامه في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي كان المسلمون يجتمعون فيها وقد حقق الله بإسلامه ما رجاه عليه الصلاة والسلام ، فقد قال عبد الله بن مسعود من رواية البخاري : « ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر »^(٣) فإنه طلب من رسول الله أن يعلن صلاته في المسجد ففعل ، وقد أدرك الكفار كآبة شديدة حينما رأوا عمر أسلم ، وكانوا قد أرادوا قتله حتى اجتمع جمع حول داره ينتظرونه ، فجاء العاص بن وائل السهمي (وهو من بني سهم حلفاء بني عدي قوم عمر) وعليه حُلّة جَبَرَة^(٤) وقميص مكفوف بحرير ، فقال لعمر : ما بالك ؟ فقال : زعم قومك انهم سيقتلونني إن أسلمت . قال : لا سبيل إليك فأنا لك جار ، فأمن عمر ، وخرج العاص فوجد الناس قد سال بهم الوادي ، فقال أين تريدون ؟ قالوا نريد هذا ابن الخطاب الذي صبا . قال :

(١) وكان إسلامه بعد حمزة بثلاثة أيام ، والمسلمون إذ ذاك بضعة وأربعون رجلاً .

(٢) هي ليلي بنت أبي حثمة بن حذيفة ، أسلمت قديماً وبايعت ، ويقال انها أول طعينة دخلت المدينة في الهجرة .

(٣) رواه البخاري في مناقب الأنصار ، رقم : ٣٨٦٣ .

(٤) حبرة : يعني بردة مخططة بالنقش .

لا سبيل إليه . فرجع الناس من حيث أتوا^(١) .

رجوع مهاجري الحبشة

وبعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجري الحبشة رجعوا إلى مكة حيث لا تيسر لهم الإقامة فيها لأنهم قليلو العدد - وفي الكثرة بعض الأنس - وأضيف إلى ذلك أنهم أشرف قريش ومعهم نساؤهم ، وهؤلاء لا يطيب لهم عيش في دار غربة بهذه الحالة .

وقد أولع بعض المؤرخين بحكاية يجعلونها سبباً في رجوع مهاجري الحبشة ، وهي أنه بلغهم إسلام قومهم حينما قرأ عليهم الرسول سورة النجم ، وتكلم فيها كلاماً حسناً عن آلهتهم حيث قال بعد : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾^(٢) تلك الغرائق - جمع غرنوق وهي الطيور ويراد بها الملائكة - العلى ، وإن شفاعتهن لُترتجى ، فسجدوا إعظاماً لذلك وفرحاً .

وهذا مما لا تجوز روايته إلا من قليلي الإدراك الذين ينقلون كل ما وجدوه غير متبئين من صحته ، وها نحن أولاء نسوق لك أدلة النقل والعقل على بطلان ما ذكر ، أما الحديث فسنده ومتنه قلقان ، فالسند قال فيه القاضي عياض في الشفاء^(٣) : لم يخرج أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم ، وأما المتن فليس أصحاب رسول الله ولا المشركون مجانين حتى يسمعوا مدحاً أثناء ذم ويجوز ذلك عليهم ، فبعد ذكر الأصنام قال : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾^(٤)

(١) رواه البخاري في مناقب الأنصار ، رقم : ٣٨٦ .

وروى ابن ماجة قال ابن عباس لما أسلم عمر قال جبريل للنبي ﷺ : يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر .

(٢) سورة النجم الآية : ١٩ - ٢٠ .

(٣) ٢٨٨/٢ .

(٤) سورة النجم الآية : ٢٣ .

فالكلام غير مُتَّظَم ، ولو كان ذلك قد حصل لاتخذ الكفار عليه حجة يحاجونه بها وقت الخصام ، وهم من نعرفهم من العناد فيما ليس في أدنى حجة ، فكيف بهذه ؟ وليس ذلك القيل أقل من تحويل القبلة إلى الكعبة ، وهذا قالوا فيه ما قالوا حتى سمَّاهم الله سفهاء وأنزل فيهم في سورة البقرة : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ (١) ولكن لم يُسمع عن أي واحد من رجالاتهم والمتصدين للعناد منهم أن قال مالك دُممت آلهتنا بعد أن مدحتها ، وكان ذلك أولى لهم من تجريد السيوف وبذل مُهج الرجال .

على أن المؤرخين الذين ينقلون هذه العبارة ويجعلونها سبباً لرجوع مهاجري الحبشة يقولون أثناء كلامهم : إن الهجرة كانت في رجب ، والرجوع كان في شوال ، ونزول سورة النجم كان في رمضان ، فالمدة بين نزول السورة ورجوع المهاجرين شهر واحد ، والمتأمل أدنى تأمل يرى أن الشهر كان لا يكفي في ذاك الزمن للذهاب من مكة الى الحبشة والإياب منها ، لأنه لم يكن إذ ذاك مراكب بخارية تسهّل السير في البحر، ولا تلغراف يوصل خبر إسلام قريش لمن بالحبشة ، فلا غرابة بعد ذلك إن قلنا إن هذه الخرافة من موضوعات أهل الأهواء الذين ابتلى الله بهم هذا الدين ، ولكن الحمد لله فقد منّ علينا بحفظ كتابنا المجيد ، الذي يحكم بيننا وبين كل مُفترٍ كذاب ففي السورة نفسها : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ (٢) والذي يلقيه الشيطان من أقبح ما يروى ، فكيف يقوله عليه الصلاة والسلام أو يجري على لسانه مما ثبت الشكوك في الوحي ؟ الأمر الذي يريده السفهاء ردّ الله كيدهم في نحركم . والذي ورد في الصحيح في موضوع هذا السجود ما رواه عبد الله بن مسعود « أن النبي عليه الصلاة والسلام قرأ والنجم ، فسجد ، وسجد من كان معه إلا رجلاً أخذ كفاً من حصى وضعه

(١) سورة البقرة الآية : ١٤٢ .

(٢) سورة النجم الآية : ٣ .

على جبهته وقال يكفيني هذا ، فرأيته قُتِلَ بعد كافريناً^(١) ، وليس في هذا الحديث أدنى دلالة على أن الذين سجدوا معه هم مشركون ، بل الذي يفيدُه قوله : فرأيته قُتِلَ بعد كافريناً انه كان مسلماً ثم رأته ارتدَّ ، وهذا ما حصل من بعض ضِعاف القلوب الذين لم يتحملوا الأذى ، فكفروا : منهم علي بن أمية بن خلف^(٢) . (هذا) ولما رجع مهاجرو الحبشة إلى مكة لم يتمكن من الدخول إليها إلا مَنْ وجد له مُجبراً ، فدخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالب ، ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة ، وقد ردَّ عليه جواره حينما رأى ما صنعه بالمسلمين^(٣) ، فلم يرَ أن يكون مرتاحاً وإخوانه يعذبون .

كتابة الصحيفة

ولما ضاقت الحيلُ بكفار قريش عرضوا على بني عبد مناف الذين منهم الرسول عليه الصلاة والسلام دية مضاعفة ويسلمونه فأبوا عليهم ذلك ، ثم عرضوا على أبي طالب أن يُعطوه سيّداً من شبابهم يتبناه ، ويسلمَ إليهم ابن أخيه ، فقال : عجيباً لكم تعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكُم ابني تقتلونهُ ؟ فلما رأوا ذلك أجمعوا أمرهم على منابذة بني هاشم وبني المطلب ولَدَيَّ عبد مناف وإخراجهم من مكة ، والتضييق عليهم فلا يبيعونهم شيئاً ، ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمداً للقتل ، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة ، فانحاز بنو هاشم - بسبب ذلك - في شُعب أبي طالب ، ودخل معهم بنو المطلب سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم ما عدا أبا لهب فإنه كان مع قريش ، وانخرلَ عنهم بنو عَمَّيْهم عبد شمس ونوفل ابني عبد

(١) رواه البخاري في سجود القرآن ، رقم : ١٠٧٠ .

(٢) ارتد بعد إسلامه وقتل كافريناً .

(٣) قال : والله إن غدوي ورواحي آمنأ بجوار رجلٍ من أهل الشرك وأصحابي وأهل دِيني يُلْقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني ، لنقص كبير في نفسي ، فمشى إلى الوليد فقال له : وفَتَ ذمتك ، وقد رددت إليك جوارك .

مناف ، فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر ، وكان أعداؤهم يمنعون
التجار من مبايعتهم وفي مقدمة المانعين أبو لهب .

هجرة الحبشة الثانية

وبعد دخول الرسول وقومه الشعب أمر جميع المسلمين أن يهاجروا
للحبشة حتى يساعد بعضهم بعضاً على الإغتراب ، فهاجر معظمهم وكانوا
نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثمانين عشرة امرأة ، وكان من الرجال جعفر بن أبي
طالب وزوجه أسماء بنت عميس ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن
مسعود ، وعبيد الله بن جحش ، وامراته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وتوجه
لهم الذين أسلموا من جهة اليمن وهم الأشعريون : أبو موسى وبنو
عمه^(١) . ولما رأت قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص
وعُمارة بن الوليد بهديسا إلى النجاشي لِيُسَلِّمَ المسلمين ، فرجعا شراً
رجعة^(٢) ، ولم ينالا من النجاشي إلا إهانة لما خاطبوه به من إخفار ذمته في
قوم لا ذوا به ، أما بنو هاشم فمكثوا في الشعب قريباً من ثلاث سنوات في
شدة الجهد والبلاء لا يصلهم شيء من الطعام إلا خفية .

نقض الصحيفة

وقد قام خمسة من أشرف قريش يطالبون بنقض هذه الصحيفة
الظالمة ، وهم : هشام بن عمرو بن الحارث العامري ، وهو أعظمهم في
ذلك بلائاً ، وزُهَيْر بن أبي أمية المخزومي ابن عمه الرسول عاتكة ،

(١) روى البخاري في فضائل الصحابة ، رقم : ٣٨٧٦ ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه :
بلغنا مخرج النبي ﷺ إلى النجاشي بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا معه حتى
قَدِمْنَا ، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر ، فقال النبي ﷺ : « لكم أنتم يا أهل السفينة
هجرتان » .

(٢) موضوع إرسال الهدايا إلى النجاشي كان في الهجرة الثانية .

والمُطعم بن عديّ النوفلي ، وأبو البُختريّ بن هشام الأسدي ، وزمعة بن الأسود الأسدي ، وانفقوا على ذلك ليلاً ، فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلة ، فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس ، فقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلأى لا يبيعون ولا يبتاعون ! والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة . فقال أبو جهل : كذبت ، فقال زمعة لأبي جهل : أنت والله أكذب ! ما رضينا كتابتها حين كتبت ، فقال أبو البخترى : صدق زمعة ، وقال المطعم بن عدي : صدقتما وكذب من قال غير ذلك . وصدق على ما قيل هشام بن عمرو ، فقام إليها المطعم بن عدي فشققها ، وكانت الأرضة (١) قد أكلتها فلم يبقَ فيها إلا ما فيه اسم الله ، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عمه أبا طالب بذلك قبل أن يفعل ما ذكر ، فخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدة (٢) .

وفود نجران

وقد وفد على الرسول بعد الخروج من الشعب وفد من نصارى نجران (٣) بلغهم خبره من مهاجري الحبشة ، فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفاته مع ما ذكر منها في كتبهم ، وكانوا عشرين رجلاً أو قريباً من ذلك ، فقرأ عليهم القرآن فآمنوا كلهم ، فقال لهم أبو جهل : ما رأينا ركباً أحق منكم أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم ! فقالوا : سلام

(١) دودة تأكل الورق والخشب .

(٢) جاء في سيرة ابن هشام : أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب : يا عم ، إن ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسماً هو الله إلا أثبتته فيها ، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان ، فقال : أربك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال : فوالله ما يدخل عليك أحد ، ثم خرج إلى قريش ، فقال : يا معشر قريش إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا ، فهل من صحيفتكم ، فإن كان كما قال ابن أخي ، فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عمّا فيها ، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي ، فقال القوم : رضينا ، فتعاقدا على ذلك ، ثم نظروا ، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ .

(٣) نجران : بلدة بين مكة واليمن .

عليكم لا نجاهلكم ، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه ، فأنزل الله في ذلك في سورة القصص : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) . وقد كان أهل مكة حينما عجزوا عن أمر رسول الله ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة رموه بالسحر مرة وبالكذب أخرى ، وبالجنون طوراً وبالكهانة تارة ، كل ذلك شأن العاجز المعاند الذي لا يستحي لمزيد عناده أن يقول : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢) .

وفاة خديجة رضي الله عنها

وبعد خروجه عليه الصلاة والسلام من الشعب بقليل وقبل الهجرة بثلاث سنين توفيت خديجة بنت خويلد زوجه رضي الله عنها ، كان عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يذكرها ويترحم عليها ، ولا غرابة فهي أول نفس ذكية صدقت رسول الله فيما جاء به عن ربه ، وقد جاء منها بأولاده كلهم ما عدا إبراهيم (٣) فمنها زينب وهي أكبر بناته تزوجها في الجاهلية أبو العاص بن الربيع (٤) ، وأعقب منها أمامة التي تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة ، ومنها رقية وأم كلثوم تزوجهما عثمان . الأولى بمكة قبل الهجرة ، وهاجر بها إلى الحبشة ، والثانية بالمدينة بعد أن ماتت

(١) سورة القصص الآيات : ٥٢ - ٥٥ .

(٢) سورة الأنفال الآية : ٣٢ .

(٣) فإنه من مارية القبطية التي أهداها له المقوقس .

(٤) هو القاسم بن الربيع بن عبد العزى ، تزوج زينب في الجاهلية ، وتأخر إسلامه ، فكانت عند أبيها ، حتى أسلم فاعيدت إليه .

أختها ، ومنها فاطمة وهي أصغر بناته تزوجها علي بن أبي طالب^(١) ، وقد جاءت خديجة بأولاد توفوا صغاراً ، ولم يعيش بعد رسول الله من أولاده إلا فاطمة عاشت بعده قليلاً . ولما توفيت خديجة حزن عليها رسول الله حزناً شديداً لما كانت عليه من الرقة لرسول الله ومحاجزة الكفار عنه لما لها من الجاه في عشيرتها بني أسد ، ومنها القاسم وكان به يكنى رسول الله ﷺ ، وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر .

زواج سودة

وعقد عليه الصلاة والسلام في الشهر الذي ماتت فيه خديجة على سودة بنت زمعة العامرية القرشية بعد أن توفي عنها زوجها وابن عمها السكران بن عمرو ، وقد كانت آمنت بالله وبرسوله وخالفت أقاربها وبني عمها ، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة في المرة الثانية خوف الفتنة ، وعقب رجوعه من هجرته توفي عنها ، فلم يكن ثم أجمل مما صنعه الرسول بزواج رجل آمن به ، ولو تركت لقومها مع ما هم عليه من الغلظة وكراهة الاسلام لفتنوها ، وكرم نسبها في قومها يمنعها من التزواج برجل أقل منها نسباً وشرفاً .

زواج عائشة رضي الله عنها

وبعد ذلك بشهر عقد على عائشة بنت صديقه أبي بكر وهي لا تتجاوز السابعة من عمرها ، ولم يتزوج عليه الصلاة والسلام بكراً غيرها ، ودخل عليها بالمدينة أما سودة فدخل عليها بمكة .

وبعد وفاة خديجة بنحو شهر توفي عمه أبو طالب^(٢) الذي كان يمنعه

(١) وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام ، فأسلمن وهاجرن معه ﷺ ، وأما القاسم وعبد الله فتوفيا قبل البعثة صغيري السن . وتوفيت السيدة فاطمة بعده ﷺ بستة أشهر .

(٢) وذلك في السنة العاشرة من البعثة .

من أذى أعدائه ، ومع أنه كان لا يُكذِّب رسول الله فيما جاء به بل يعتقد صدقه لم ينطق بالشهادتين حتى آخر لحظة من حياته^(١) ، وفيه نزل في سورة القصص : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾^(٢) . ولكن لأعماله العظيمة التي عملها مع رسول الله نرجو أن يخفف عنه^(٣) . وعدم إسلامه هو وغالب أقارب الرسول فيه من الحكمة ما لا يخفى ، فإنهم لو بادروا باتباعه لقليل : قوم يطلبون سيادة وفخراً ليسا لهم فجاؤوا بهذا الأمر المفترى ، ولكن لما رأى المعاندون أن متبعيه هم الغرباء عنه الذين ليسوا من عشيرته بل من أعدائها أحياناً^(٤) كعثمان بن عفان من بني أمية ، لم يكن عندهم أدنى حجة يقيمونها ، اللهم إلا دعاويهم الكاذبة التي كانوا يتمسكون بها حينما تصدعهم الحجة من قولهم ساحر يُفرِّق بين المرء وزوجه وكاهن يتكهن بالغيب .

وقد سمي رسول الله هذا العام الذي فقد فيه زوجه وعمه « عام الحزن » . ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ما لم يمكنها نيله في حياة أبي طالب ، واشتد الأمر عليه حتى كانوا يثرون التراب على رأسه وهو سائر ، ويضعون أوساخ الشاة عليه في صلاته ، وتعلقت به كفار قريش مرة يتجاذبونه ويقولون له : أنت الذي تريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ فما

(١) روى البخاري في مناقب الأنصار، رقم: ٣٨٨٤، أن أبا طالب لما حضرته الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: « أي عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله ». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية. يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزالا يكلمانه، حتى قال آخر شيء كلمهم به، على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: « لا ستغفرون لك ما لم أئنه عنه » فنزلت: ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾.

(٢) سورة القصص الآية: ٥٦.

(٣) قال رسول الله ﷺ: « هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار » والضحضاح: ما رُق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين.

(٤) لم يكن بنو أمية أعداء لبني هاشم وكل ما في الأمر أنهم متنافسون على مكارم معينة داخل القبيلة دون عداوة وثأر أو حرب.

تقدم أحد من المسلمين حتى يخلصه منهم لما هم عليه من الضعف إلا أبو بكر فانه تقدم وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ! .

هجرة الطائف

فلما رأى عليه الصلاة والسلام إستهانة قريش به أراد أن يتوجه إلى ثقيف بالطائف^(١) يرجو منهم نصرته على قومه ومساعدته حتى يتّم أمر ربه ، لأنهم أقرب الناس إلى مكة وله فيهم خوولة^(٢) ، فإن أم هاشم بن عبد مناف عاتكة السلمية من بني سليم بن منصور وهم حلفاء ثقيف ، فلما توجه إليهم ومعه مولاة زيد بن حارثة قابل رؤساءهم وكانوا ثلاثة : عبدُ يالِيل ومسعود وحبّيب أولاد عمرو بن عمير الثقفي ، فعرض عليهم نصرته حتى يؤدي دعوته فردّوا عليه ردّاً قبيحاً ولم يرَ منهم خيراً^(٣) ، وحينذاك طلب منهم أن لا يُشيعوا ذلك منه كيلا تعلم قريش فيشتدّ اذاهم لأنه استعان عليهم بأعدائهم ، فلم تفعل ثقيف ما رجاء منهم عليه الصلاة والسلام بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون في وجهه في الطريق ويرمون بالحجارة حتى أدموا عقبه^(٤) وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه إلى أن انتهى إلى شجرة كَرَم واستظلّ بها ، وكانت بجوار بستان لعُتبة وشيبة ابني ربيعة وهما من أعدائه وكانا في البستان ، فكره رسول الله مكانهما فدعى الله قائلاً : « اللهم إني أشكو إليك ضعف قوّتي وقِلّة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهّمني^(٥) أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكن

(١) بلد في الجنوب الشرقي من مكة .

(٢) ولم يكن بينه وبينهم عداوة . خاصة أنهم كانوا أخواله .

(٣) قال له أحدهم : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ، وقال الآخر : والله لا أكلمك أبداً لئن كنت

رسول الله لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام .

(٤) ورموا عراقبه بالحجارة ، حتى اختضبت نعلاه بالدماء .

(٥) أي يلقاني بالغلظة .

عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ،
وَصَلِّحْ عَلَيْهِ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ
سَخَطُكَ ، لك العُتْبَى حتى تَرْضَى ولا حول ولا قوة إلا بك » . فلما رآه ابنا
ربيعة رَقًّا له وأرسلا إليه بِقُطْفٍ من العنب مع مولى لهما نصراني اسمه
عَدَّاس : فلما ابتدأ رسول الله ﷺ يأكل قال : « بسم الله الرحمن الرحيم »
فقال عداس : هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له عليه الصلاة
والسلام : من أي البلاد أنت وما دينك ؟ فقال : نصراني من نَيْنَوَى^(١) ،
فقال له عليه الصلاة والسلام : من قرية الرجل الصالح يُوسُف بن مَتَّى ؟
قال : وما علمك بيونس^(٢) ؟ فقرأ له من القرآن ما فيه قصة يونس ، فلما
سمع ذلك عداس أسلم ، وأتى جبريل برسالة من الله جلّ ذكره ، وقال إن
الله أمرني أن أطيعك في قومك لما صنعوه معك فقال عليه الصلاة
والسلام : « اللهم اهدِ قومي فانهم لا يعلمون » فقال جبريل : صدق من
سَمَّاكَ الرؤوف الرحيم .

ولما كان بِنَخْلَةٍ^(٣) وفد عليه نفر من الجن يستمعون القرآن وهم ممّن
ينتمون إلى موسى صلوات الله عليه ، فلما سمعوه أنصتوا له ورجعوا إلى
قومهم منذرين وأبلغوهم خبر رسول الله ﷺ وفيهم نزل في سورة
الأحقاف : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ
قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا أَجِئُوا دَاعِيَ
اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيَجْزِيَكُمْ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبْ

(١) بلد على شاطئ دجلة ، مدينة الموصل . المؤلف .

(٢) فقال له رسول الله ﷺ : ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبي ، فأكتب عداس على رسول الله ﷺ يقبل
رأسه ويديه ورجليه . ثم ذهب إلى سيده وقال يا سيدي : ما في الأرض شي خير من هذا ، لقد
أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي ، قالوا له : ويحك يا عداس : لا بصرفتك عن دينك ، فإن دينك
خير من دينه .

(٣) مكان بعيد عن مكة مسافة ليلة .

دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١﴾
وقد قصَّ الله قصة الجن بعبارة أطول في سورة سميت باسمهم أولها :
﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي
إِلَى الرُّشْدِ فَأَمْنًا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ ﴿٢﴾ .

الإحتماء بالمطعم بن عدي

ولما رجع عليه الصلاة والسلام من الطائف هكذا لم يتمكن من دخوله
مكة لما علمه كفار قريش من أنه توجه الى الطائف يستنصر بأهلها عليهم ،
فأرسل عليه الصلاة والسلام إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف
يخبره أنه سيدخل مكة في جواره فأجاب إلى ذلك ، وتسليح هو وبنيه
وتوجهوا مع رسول الله إلى المطاف ، فقال له بعض المشركين (٣) : أمجير
أنت أم تابع ؟ فقال بل مجير ، قالوا إذا لا تخفروا ذمتك .

وفد دوس

وقدم على رسول الله وهو بمكة الطفيل بن عمرو الدوسي من قبيلة
دوس عشيرة أبي هريرة الصحابي الشهير ، وكان الطفيل شريفاً في قومه
شاعراً نبيلاً ، فلما قرأ عليه القرآن أسلم ، فقال له رسول الله : إذهب إلى
قومك فادعهم إلى الإسلام ، ودعا لهم رسول الله فقال : اللهم اهد دوساً ،
فتوجه إليهم الطفيل ودعاهم فأمن بدعوته كثير منهم (٤) . وستأتي وفادته على
الرسول مرة ثانية بقومه في المدينة .

(١) سورة الأحقاف الآيات : ٢٩ - ٣٢ .

(٢) سورة الجن الآية : ١ - ٢ .

(٣) هو أبو سفيان .

(٤) قال الطفيل : فلم أزل أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ومضى بدر
وأحد والخندق ، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي ، وهو بخير .

الإسراء والمعراج

وقبل الهجرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج ، أما الإسراء فهو توجهه ليلاً إلى بيت المقدس بإيلياء ورجوعه من ليلته ، وأما المعراج فهو صعوده إلى العالم العلوي ، وقد قال جمهور أهل السنة : إن ذلك كان بجسمه الشريف (١) ، وكانت عائشة رضي الله عنها تمنع رؤية رسول الله ربه ، وتقول : من قال إن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله ، والإسراء مذكور في القرآن الكريم قال تعالى في أول سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢) .

وأما المعراج فقد ورد في صحيح السنة وأصح أحاديثه ما رواه الشيخان ونقله القاضي عياض في شفاؤه (٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (٤) : « أُتيت بالبُرّاق (وهو دابة فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه) قال : فركبته حتى أُتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي تربط بها لأنبياء (٥) ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت ، فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن ، فقال جبريل : اخترت الفطرة؟ (٦) ، ثم عُرج بنا إلى السماء ، فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال جبريل : قيل ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير .

(١) أُسْرِيَ بروحه وجسده يقظة لا نماماً في ليلة واحدة . واحذر بعض الكتب المدسوسة كمعراج ابن عباس ابن عباس منه بريء .

(٢) سورة الإسراء الآية : ١ .

(٣) رواه مسلم في الإيمان ، رقم : ١٦٢ . وذكره القاضي عياض في الشفاء ٣٤٣/١ فصل : كرامة الإسراء . والبخاري ٣٢٠٧ .

(٤) في رواية البخاري ذكر لحادثة شقّ بطنه ﷺ مرة ثانية راجع ص ١٣ .

(٥) عند النسائي : كانت تسخرّ للأنبياء قبلي .

(٦) الفطرة : ما فطر الله عليه الخلق .

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بُعثَ إليه ؟ قال : قد بُعثَ إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى بن مريم فرحبا بي ودَعَوَا لي بخير .

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الثالثة فذكر مثل الأول ، ففتح لنا وإذا أنا بيوسف ، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن ، فرحب ودعا لي بخير .

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الرابعة فذكر مثله ، فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير . قال تعالى في سورة مريم : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (١) .

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الخامسة ، فذكر مثله ، فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء السادسة ، فذكر مثله ، فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء السابعة ، فذكر مثله ، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يَدْخُلُهُ كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ، ثم ذُهِبَ بي إلى سِدْرَةِ المنتهى (٢) ، فإذا أوراقها كآذان القيلة ، وإذا ثمرها كالقِلَال (٣) فلما غشيها من أمر ربي ما غشيها تَغَيَّرَتْ ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يَنْتَعِشَ من حسنِها ، فأوحى الله إليّ ما أوحى ، ففرض عليّ وعلى أمتي خمسين صلاة في كل يوم وليلة . فنزلتُ إلى موسى فقال ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة ، قال : ارجع إلى ربك فَسَلِّهُ التَّخْفِيفَ ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإني قد بلوت بني إسرائيل قبلك وخبرتهم ، قال : فرجعت إلى ربي وقلت له : يا ربي خفف عن أمتي ، فحطَّ عني خمساً ، فرجعت إلى موسى ، فقلت حطَّ عني

(١) سورة مريم الآية : ٥٧ .

(٢) شجرة ينتهي إليها علم الملائكة ، ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ﷺ . والله الحمد .

(٣) جمع قلة وهي : الوعاء أو الجرة .

خمساً ، قال : إن أمتك لا يُطبقون ذلك ، فارجع إلى ربك فَسَلُهُ التَّخْفِيفَ ، قال فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال سبحانه : يا محمد إنهنَّ خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فلك خمسون صلاة ، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كُتِبَتْ له حسنة ، ومن همَّ بحسنة فعملها كُتِبَتْ له عشر ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تُكْتَبْ له شيئاً ، ومن همَّ بسيئة فعملها كُتِبَتْ له سيئة واحدة . قال : فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فَسَلُهُ التَّخْفِيفَ ، فقلت : قد رجعتُ إلى ربي حتى استحييت منه . ثم رجع عليه الصلاة والسلام من ليلته ، فلما أَصْبَحَ إلى نادي قريش فجاء إليه أبو جهل بن هشام فحدّثه رسول الله ﷺ بما جرى له فقال أبو جهل : يا بني كعب بن لؤي هلمّوا ، فأقبل عليه كفار قريش ، فأخبرهم الرسول الخبر ، فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً ، وارتد ناس ممّن كان آمن به من ضعاف القلوب . وسعى رجال إلى أبي بكر فقال : إن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا أتصدقه على ذلك ؟ قال : إني لأصدقه على أبعد من ذلك ، فسُمِّي من ذلك اليوم صديقاً ، ثم قام الكفار يمتحنون رسول الله فسألوه نعت بيت المقدس وفيهم رجال رأوه ، أما رسول الله فلم يكن رآه قبل ذلك فجلاه الله له فصار يصفه لهم باباً باباً وموضعاً موضعاً^(١) ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب ، فأخبرنا عن غيرنا ، وكانت لهم غير قادمة من الشام ، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها ، وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورك^(٢) فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية ، فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد أشرقت ، فقال آخر : وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورك كما قال محمد ، فلم يزداهم ذلك إلا كبراً وعناداً ، حتى قالوا هذا سحر مبين .

(١) روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لما كذبتني قريش ، قمت في الحجر ، فجَلَا الله لي بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته ، وأنا أنظر إليه » .

(٢) الأورق : أي لونه بين الغيرة والسواد .

وفي صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلم رسول الله كيفية الصلاة وأوقاتها : فيصلّي ركعتين إذا ظهر الفجر ، وأربع ركعات إذا زالت الشمس ، ومثلها إذا ضوعف ظل الشيء ، وثلاثاً إذا غربت ، وأربعاً إذا غاب الشفق الأحمر . وكان عليه الصلاة والسلام قبل مشروعية الصلاة يصلي ركعتين صباحاً ومثلهما مساءً كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام .

العرض على القبائل

ولما رأى رسول الله ﷺ أنه يجد من قريش منعه من تأدية الرسالة وتسلط الكبر والعظمة على قلوبهم ، أراد الله أن يظهر أمر الدين على أيدي غيرهم من العرب ، فكان عليه الصلاة والسلام يخرج في المواسم العربية (وهي أسواق كانت العرب تعقدها للتجارة والمفاخرة) ويعرض نفسه على القبائل ليحموه حتى يؤدي رسالة ربه ، فكان بعضهم يردّ رداً جميلاً ، وآخرون رداً قبيحاً . وكان من أقبح القبائل رداً بنو حنيفة (رهطٌ مُسَيَّلَمَة الكذاب) ، وطلب منه بنو عامر إن هم آمنوا به أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده ، فقال لهم : الأمر لله يضعه حيث يشاء ، وكان من الذين يحجون البيت عرب يثرب وهي مدينة بين مكة والشام يقطنها قبيلتان : إحداهما من ولد الأوس ، والثانية من ولد الخزرج وهما اخوان وكان بين أولادهما من العداوة ما يجعل الحرب لا تضع أوزارها بين الفريقين ، فكانوا دائماً في شقاق ونزاع ، وكان يجاورهم في المدينة أقوام من اليهود وهم : بنو قَيْنَقاع ، وبنو قُرَيْظَة وبنو النضير وكان لهم الغلبة على يثرب أولاً ، فحاربهم العرب حتى صاروا ذوي النفوذ فيها والقوة ، وكان اليهود إذا خذلوا يستفتحون على أعدائهم باسم نبي يُبعث قد قُربَ زمانه . ولما اختلفت كلمة العرب فيما بينهم وشقت عصا الإلفة حالقوا اليهود على أنفسهم . فحالف الأوس بني قريظة ، وحالف الخزرج بني النضير وبني قينقاع ، وآخر الأيام بينهم يوم بُعَاث^(١) قتل فيه أكثر رؤسائهم ولم يبق إلا عبد الله بن أبي بن

(١) بُعَاث : مكان كانت فيه الحرب بين الأوس والخزرج .

سلول من الخزرج ، وأبو عامر الراهب من الأوس ، ولذلك كانت عائشة تقول : كان يوم بُعث يوماً قدَّمه الله لرسول الله ﷺ ، وقد خطر ببال رؤساء الأوس أن يحالفوا قريشاً على الخزرج ، فأرسلوا إلياس بن معاذ وأبا الحيسر أنس بن رافع مع جماعة يلتمسون ذلك الحلف في قريش ، فلما جاؤوا مكة جاءهم رسول الله وقال : هل لكم في خير مما جئتم له ؟ أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، وقد أرسلني الله إلى الناس كافة ، ثم تلا عليهم القرآن ، فقال إلياس بن معاذ : يا قوم هذا والله خير مما جئنا له ، فحصبه أبو الحيسر وقال له : دعنا منك لقد جئنا لغير هذا ، فسكت^(١) .

بدء إسلام الأنصار

ولما جاء الموسم تعرَّض رسول الله لنفر منهم يبلغون الستة ، وكلهم من الخزرج وهم : أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث من بني النجار ، ورافع بن مالك من بني زريق ، وقُطَبة بن عامر من بني سلمة ، وعقبة بن عامر من بني حَرَام ، وجابر بن عبد الله من بني عبيد بن عدي ، ودعاهم إلى الإسلام وإلى معاونته في تبليغ رسالة ربه ، فقال بعضهم لبعض : إنه للنبي الذي كانت تعدُّكم به يهود . فلا يسبقُنكم إليه ، فأمنوا به وصدقوه ، وقالوا : إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزَّ منك ، ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل ، وهذا هو بدء الإسلام لعرب يثرب .

العقبة الأولى^(٢)

فلما كان العام المقبل قدم إثنا عشر رجلاً ، منهم عشرة من الخزرج ، واثنان من الأوس ، وهم : أسعد بن زرارة ، وعوف ومعاذ ابنا

(١) وهذا كان سبب إسلام إلياس بن معاذ .

(٢) هي العقبة التي تضاف إليها الجمرة ، فيقال : جمرة العقبة .

الحارث ، ورافع بن مالك ، وذكوان بن قيس ، وعُباد بن الصامت^(١) ،
 ويزيد بن ثعلبة ، والعباس بن عباد ، وعقبة بن عامر ، وقطبة بن عامر ،
 وهؤلاء من الخزرج وأبو الهيثم بن التَّيَّهَان ، وعُويم بن ساعدة وهما من
 الأوس ، فاجتمعوا به عند العقبة ، وأسلموا وبايعوا رسول الله على بيعة النساء ،
 وذلك قبل أن تفترض الحرب ، على ألاَّ يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ولا يزناوا ،
 ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا بيهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصونه في
 معروف ، فإنَّ وَفَوْا فلهم الجنة ، وإنَّ غَشَوْا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله عزَّ
 وجلَّ ، إن شاء غفر وإن شاء عذب ، وهذه هي العقبة الأولى .

فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام مصعب بن عمير العبدري
 وعبد الله بن أم مكتوم - وهو ابن خالة خديجة - يقرآنهم القرآن ، ويفقهانهم
 في الدين ، ونزل مصعبه على أحد المبايعين أبي أمامة أسعد بن زرارَة وصار
 يدعوا بقية الأوس والخزرج للإسلام . وبينما هو في بستان مع أسعد بن
 زرارَة إذ قال سعد بن معاذ^(٢) رئيس قبيلة الأوس ، لَأَسِيد بن حُضَيْر^(٣) ابن
 عم سعد : ألا تقوم إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يُسَفِّهَان ضعفاءنا
 لتزجرهما ، فقام لهما أسيد بحربته ، فلما رآه أسعد قال لمصعب : هذا
 سيد قومه وقد جاءك فاصدق الله فيه ، فلما وقف عليهما قال : ما جاء بكما
 تُسَفِّهَان ضعفاءنا إعتزلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة ، فقال مصعب : أَوَّ
 تجلس فتسمع ؟ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كففتنا عنك ما تكره ،
 فقرأ عليه مصعب القرآن فاستحسن دين الإسلام ، وهذاه الله له فتشهد

(١) وتما البيعة «تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تنزوا ، ولا تقتلوا
 أولادكم ، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى
 منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفاراً له ، ومن
 أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله ، إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه» .

(٢) شهد بدرًا وأُحُدًا والخندق ، وتوفي بعد ذلك بشهر سنة ٥ هـ .

(٣) وكان من السابقين إلى الإسلام ، وكان ممن ثبت يوم أُحُد ؛ وجرح وتوفي على أثرها .

ورجع إلى سعد ، فسأله عمّا فعل ، فقال : والله ما رأيت بالرجلين بأساً ، فغضب سعد وقام لهما متغيظاً ، ففعل معه مصعب كسابقه فهداه الله بالإسلام ، ورجع لرجال بني عبد الأشهل (وهم بطن من الأوس) فقال لهم ما تعدّونني فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا . قال : كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تسلموا ، فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلا أجابه ، وقد انتشر الإسلام في دور يثرب حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإسلام .

العقبة الثانية

ولما كان وقت الحج في العام الذي يلي البيعة الأولى ، قدم مكة كثيرون منهم يريدون الحج ، وبينهم كثير من مُشركيهم ، ولما قابل وفدهم رسول الله ، واعدوه المواجهة ليلاً عند العقبة ، فأمرهم أن لا يُنبهوا في ذلك الوقت نائماً ، ولا ينتظروا غائباً ، لأن كل هذه الأعمال كانت خفية من قريش كيلا يطلعوا على الأمر ، فيسعوا في نقض ما أبرم ، شأنهم مع رسول الله في أول أمره . ولما فرغ الأنصار من حجهم توجهوا إلى مواعدهم كاتمين أمرهم عمّن معهم من المشركين ، وكان ذلك بعد مضي ثلث الليل الأول ، فكانوا يتسللون الرجل والرجلين حتى تم عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً ، منهم اثنان وستون من الخزرج ، وأحد عشر من الأوس ، ومعهما امرأتان وهما : نُسَيْبة بنت كعب من بني النجار ، وأسماء بنت عمرو من بني سَلِمة ، ووافقهم رسول الله هناك وليس معه إلا عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه ، ولكن أراد أن يحضر أمر أخيه ليكون متوثقاً له ، فلما اجتمعوا عرفهم العباس بأن ابن أخيه لم يزل في مَنعة من قومه حيث لم يَمَكَّنوا منه أحداً ممّن أظهر له العداوة والبغضاء وتحملوا من ذلك أعظم الشدة ، ثم قال لهم : إن كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممّن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإلا فدعوه بين عشيرته فإنه ليمكن عظيم . فقال كبيرهم المتكلم عنهم البراء بن معرور : والله لو

كان لنا في أنفسنا غير ما نطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق وبذل
 مُهَجَّنَا دون رسول الله ، وعند ذلك قالوا لرسول الله ﷺ : خذ لنفسك
 ولربك ما أحببت . فقال : أشرت لربي أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به
 شيئاً ، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمتُ
 عليكم . فقال له أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله إن بيننا وبين
 الرجال (١) عهداً وإننا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك
 الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم عليه الصلاة والسلام ، وقال بل
 الدِّمَ الدِّمَ والهِدْمَ الهِدْمَ (٢) ، أي إن طالبتكم بدم طالبت به وإن أهدرتموه
 أهدرته .

وحينذاك ابتدأت المبايعة وهي العقبة الثانية ، فبايعه الرجال على ما
 طلب ، وأول من بايع أسعد بن زرارة ، وقيل البراء بن معرور ، ثم تخير
 منهم إثني عشر نقيباً (٣) لكل عشيرة منهم واحد ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة
 من الأوس ، وهم : أبو الهيثم بن التيهان ، وأسعد بن زرارة ، وأسيد بن
 حضير ، والبراء بن معرور ، ورافع بن مالك ، وسعد بن أبي خيثمة (٤) ،
 وسعد بن الربيع ، وسعد بن عبادة ، وعبد الله بن رواحة ، وعبد الله بن
 عمرو ، وعبد الله بن الصامت ، والمنذر بن عمرو ، ثم قال لهم : أنتم كفلاء
 على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي ،
 ولأمر ما أَرَادَهُ اللهُ بَلَّغَ خَبْرُ هَذِهِ الْبَيْعَةِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ، فَجَاءُوا وَدَخَلُوا شُعْبَ
 الْأَنْصَارِ وَقَالُوا : يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ بَلَّغْنَا أَنْكُمْ جِئْتُمْ لَصَاحِبِنَا تَخْرِجُونَهُ مِنْ
 أَرْضِنَا وَتَبَايَعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا ؟ فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ ، وَصَارَ بَعْضُ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ
 لَمْ يَحْضُرُوا الْمُبَايَعَةَ يَحْلِفُونَ لَهُمْ أَنْهُمْ لَمْ يَخْصُلْ مِنْهُمْ شَيْءٌ فِي لَيْلَتِهِمْ

(١) أي اليهود.

(٢) كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار: دمي دمك وهدمي هدمك، يعني اني أبايحك

على أن دمي في دمك وهدمي في هدمك.

(٣) النقيب: العريف، اقتداءً بقوله تعالى في قوم موسى ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ .

(٤) في سيرة ابن هشام سعد بن خيثمة.

وعبد الله بن أبيّ كبير الخزرج يقول : ما كان قومي ليفتاتوا^(١) عليّ بشيء من ذلك .

هجرة المسلمين الى المدينة

ولما رجع الأنصار إلى المدينة ظهر بينهم الإسلام أكثر من المرة الأولى . أما رسول الله ﷺ وأصحابه فازداد عليهم أذى المشركين لما سمعوا أنه حالف قوماً عليهم ، فأمر عليه الصلاة والسلام جميع المسلمين بالهجرة إلى المدينة ، فصاروا يتسلّلون خيفة قريش أن تمنعهم^(٢) . وأول من خرج أبو سلمة المخزومي^(٣) زوج أم سلمة ومعه زوجته ، وكان قومها منعوها منه ولكنهم أطلقوها بعد فَلَاحَتْ به ، وتتابع المهاجرون فراراً بدينهم ليتمكنوا من عبادة الله الذي امتزج حبّه بلحمهم ودمهم ، حتى صاروا لا يعبؤون بمفارقة أوطانهم والابتعاد عن آبائهم وأبنائهم ما دام في ذلك رضا الله ورسوله . ولم يبق منهم إلا أبو بكر وعلي وصهيب وزيد بن حارثة ، وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكّنهم حالهم من الهجرة ، وقد أراد أبو بكر الهجرة فقال له عليه الصلاة والسلام : على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي ، فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السُّمَر^(٤) استعداداً لذلك .

(١) هذا الأمر لا يفتات أي لا يفوت .

(٢) إلّا عمر بن الخطاب ، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه ، وتكب قوسه ، وأخرج سهماً من كنانته . قال : شاهدت الوجوه ، لا يرغب الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن تثكله أمه ، أو ييتم ولده ، أو نرمل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادي ، فما تبعه أحد .

(٣) هو عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ، أخو المصطفى من الرضاعة ، وابن عمته برة .

(٤) هو ضرب من شجر الطَّلح .

دار الندوة

أما قريش فكانوا كأنهم أُصيبوا بمسّ الشيطان حينما طرق مسامعهم مبايعة الأنصار له على الدُّود عنه حتى الموت ، فاجتمع رؤساؤهم وقادتهم في دار الندوة^(١) (وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها) يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه ، فقال قائل منهم : نخرجه من أرضنا كي نستريح منه ، فرفض هذا الرأي لأنهم قالوا إذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه ، وقال آخر : نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت ، فرفض هذا الرأي كسابقه ، لأنهم قالوا إن الخبر لا يلبث أن يبلغ أنصاره ، ونحن أدرى الناس بمن دخل في دينه حيث يفضلونه على الآباء والأبناء ، فإذا سمعوا ذلك جاؤوا لتخليصه وربما جرّ هذا من الحرب علينا ما نحن في غنى عنه . وقال لهم طاغيتهم^(٢) : بل نقتله ، ولنمنع بني أبيه من الأخذ بثأره ، نأخذ من كل قبيلة شاباً جلدأ يجتمعون أمام داره ، فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد ، فيفترق دمه في القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم بل يرّضون بالدية ، فأقروا هذا الرأي . هذا مكرهم ، ولكن إرادة الله فوق كل إرادة ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٣) فأعلم نبيّه بما دبره الأعداء في سرّهم ، وأمره باللاحق بدار هجرته ، بدار فيها ينشر الإسلام ، ويكون فيها لرسول الله ﷺ العزة والمنعة . وهذا من الحكمة بمكان عظيم فإنه لو انتشر الإسلام بمكة لقال المبغضون : إن قريشا أرادوا مُلْكَ العرب ، فعمدوا إلى شخص منهم ، وأوعزوا إليه أن يدّعي هذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم ، ولكنهم كانوا له أعداء ألدّاء آذوه شديد الأذى حتى اختار الله له مفارقة بلادهم والبعد عنهم .

(١) وهي أول دار بنيت بمكة .

(٢) أبو جهل .

(٣) سورة الأنفال الآية : ٣٠ .

هجرة المصطفى

فتوجّه من ساعته إلى صديقه أبي بكر ، وأعلمه أن الله قد أذن له في الهجرة فسأله أبو بكر : الصحبة ، فقال : نعم ، ثم عرض عليه إحدى راحلتيه اللتين كانتا معدّتين لذلك ، فجهزهما أحث^(١) الجهاز ، وصنعت لهما سُفْرَةً^(٢) في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر^(٣) نِطاقها ، وربطت به على فم الجراب ، واستأجرا عبد الله بن أريقط من بني الدّيل بن بكر ، وكان هادياً ماهراً ، وهو على دين كفار قريش فأمناه ودفعنا إليه راحلتيهما ، وواعده غار ثور بعد ثلاث ليالٍ . ثم فارق الرسول عليه الصلاة والسلام أبا بكر وواعده المقابلة ليلاً خارج مكة ، وكانت هذه الليلة هي ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقرّوا عليه ، فاجتمعوا حول باب الدار ، ورسول الله داخله ، فلما جاء ميعاد الخروج ، أمر ابن عمه عليّاً بالمبيت مكانه كيلا يقع الشك في وجوده أثناء الليل ، فإنهم كانوا يردّدون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده ، ثم سجّى^(٤) عليّاً ببرده ، وخرج على القوم وهو يقرأ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾^(٥) . فألقى الله النوم عليهم حتى لم يره أحد ، ولم يزل عليه الصلاة والسلام سائراً حتى تقابل مع الصديق ، وسارا حتى بلغا غار ثور فاختميا فيه .

أما المشركون فلما علموا بفساد مكرهم وأنهم إنما باتوا يحرسون علي بن أبي طالب لا محمد بن عبد الله ، هاجت عواطفهم ، فأرسلوا الطلب من كل جهة ، وجعلوا الجوائز لمن يأتي بمحمد أو يدلّ عليه ، وقد وصلوا في طلبهم الى ذلك الغار الذي فيه طُلِبَتْهُمْ بحيث لو نظر أحدهم

(١) أحثّ : أسرع .

(٢) الزاد الذي يصنع للمسافر .

(٣) أسلمت قديماً بمكة بعد إسلام سبعة عشر إنساناً ، ولها من العمر مائة سنة .

(٤) سجّى : غطّى .

(٥) سورة يس الآية : ٩ .

تحت قدميه لنظرهما حتى أبكى ذلك أبا بكر فقال له عليه الصلاة والسلام : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (١) فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يَجُنْ لأحد منهم التفاتة إلى ذلك الغار بل صار أعدى الأعداء أمية بن خلف يبعد لهم اختفاء المطلوبين في مثل هذا الغار . فأقاما فيه ثلاث ليالٍ حتى ينقطع الطلب ، وكان يبيت عندهم عبد الله بن أبي بكر وهو شاب ثَقِفٌ (٢) وَلَقِنَ (٣) فَيُدْلِجُ (٤) من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائتٍ بها ، فلا يسمع أمراً يكتادان به (٥) إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها حين تذهب ساعة من العشاء ، ويغدو بها عليهما ، فإذا خرج من عندهما عبد الله تبع أثره عامر بالغنم كيلا يظهر لقدميه أثر . ولما انقطع الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل (٦) بالراحتين صبح ثلاث ، وسارا متبعين طريق الساحل ، وفي الطريق لحقهم طالباً ، سُرَاقَة بن مالك المدلجي (٧) وكان قد رأى رُسُلَ مشركي قريش يجعلون في رسول الله وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره . فبينما هو في مجلس من مجالس قومه بني مُدَلِجٍ إذ أقبل رجل منهم حتى قام عليهم وهم جلوس فقال : يا سُرَاقَة إني رأيت أنفاً أسوداً (٨) بالساحل أراها محمداً وأصحابه ، فعرف سُرَاقَة أنهم هم ، ولكنه أراد أن يثني عزم مُخْبِرِهِ عن طلبهم ، فقال : إنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا يتغنون ضالَّةً لهم ، ثم لبث في المجلس ساعة ، وقام وركب فرسه ثم سار حتى دنا من الرسول ومن معه ، فعثرت به فرسه فخر عنها ثم

(١) سورة التوبة الآية : ٤٠ .

(٢) ثقف : حاذق فطن .

(٣) لقن : سريخ الفهم .

(٤) بدليج : يخرج وقت السحر .

(٥) يكتادان به ، أي يُدَبِّرُ بشأنهما .

(٦) عبد الله بن أريقط .

(٧) هو سُرَاقَة بن مالك بن جعشم المدلجي .

(٨) رجالاً .

ركبها ثانياً وسار حتى صار يسمع قراءة المصطفى وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يُكثِرُ الالتفات فساخت قائمتا فرس سُرّاقة في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخرّ عنها ، ثم زجرها حتى نهضت ، فلم تكد تُخرج يديها حتى سَطَعَ لآثرهما غبار ساطع في السماء مثل الدخان ، فعَلِمَ سُرّاقة أن عمله ضائع سُدىً ، وداخله رعب عظيم ، فناداهما بالأمان فوقف عليه الصلاة والسلام ومَنْ معه حتى جاءهم ، ويقول سُرّاقة: وقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول الله ، فقلت: إن قومك قد جعلوا فيك الديّة ، وأخبرهم بما يريد بهم الناس ، وعرض عليهم الزاد والمتاع فلم يأخذوا منه شيئاً بل قالوا له: أخف عنا ، فسأله سُرّاقة أن يكتب له كتابٌ آمِنٌ ، فأمر أبا بكر فكتب^(١) . وبذلك انقضت هذه المشكلة التي أظهر الله فيها مزيد عنايته برسوله .

وكان أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله وقدمه عليهم يخرجون إلى الحرّة^(٢) حتى يردّهم حرّ الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعد أن أطالوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم^(٣) من آطامهم لأمر ينظر اليه ، فبصر برسول الله وأصحابه يزول بهم السراب يظهرهم تارة ويخفيهم أخرى ، فقال اليهودي بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا جدُّكم - أي حظكم - الذي تنتظرون ، فثاروا إلى السلاح فتلّقوا رسول الله بظهر الحرّة .

النزول بقباء

فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقباء^(٤) . والذي حققه المرحوم محمود باشا الفلكي أن ذلك كان في اليوم

(١) وفي ذلك خلاف هل هو أبو بكر أم عامر بن فهيرة .

(٢) هي الأرض ذات الحجارة السود ، المؤلف .

(٣) الأطم : الحصن ، أم بناء من حجر كالقصر .

(٤) وصلها يوم الاثنين في شهر ربيع الأول .

الثاني من ربيع الأول الذي يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ ، وهذا أول تاريخ جديد^(١) لظهور الإسلام بعد أن مضى عليه ثلاث عشرة سنة ، وهو مضيق عليه من مشركي قريش ، ورسول الله ممنوع من الجهر بعبادة ربه ، أما الآن فقد آواه الله هو وصحابته رضوان الله عليهم بعد أن كانوا قليلاً يتخطفهم الناس .

هجرة الأنبياء

وبهذه الهجرة تمت لرسولنا ﷺ سنة إخوانه من الأنبياء من قبله ، فما من نبي منهم إلا نبت به بلاد نشأته ، فهاجر عنها ، من إبراهيم أبي الأنبياء ، وخليل الله إلى عيسى كلمة الله وروحه ، كلهم على عظيم درجاتهم ورفعة مقامهم أهيئوا من عشائهم ، فصبروا ليكونوا مثلاً لمن يأتي بعدهم من متبعيهم في الثبات والصبر على المكاره ما دام ذلك في طاعة الله . فسئل مصر وتاريخها تنبئك عن إسرائيل (يعقوب) وبنيه أنهم هاجروا إليها حينما رأوا من بينيها ترحيباً بهم ، وتركهم وما يعبدون إكراماً ليوسف وحكمته . ولما مضت سنون ، نسي فيها المصريون تدبير يوسف وفضله عليهم ، فاضطهدوا بني إسرائيل وآذوهم ، خرج بهم موسى وهارون ليتمكنوا من إعطاء الله حقه في عبادته ، وهرب المسيح عليه السلام من اليهود حينما كذبوه ، فأرادوا الفتك به حتى كان من ضمن تعاليمه لتلاميذه (طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات) ثم قال بعد (افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات فإنهم طردوا الأنبياء الذين قبلكم) وسئل القرى التي حلت بها نقمة الله بكفر أهلها كديار لوط وعاد وثمود تنبئك عن مهاجرة الأنبياء منها قبل حلول النقمة ، فلا غرابة أن هاجر عليه الصلاة والسلام من بلاد منعه أهلها من تميم ما أراده الله : ﴿ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ

(١) لما أراد المسلمون في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وضع التاريخ جعلوا مبدأه من هذه الهجرة الشريفة .

خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١﴾ .

أعمال مكة

هذا، ولنبين لك مجمل ما دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة من أصول الدين وذلك أمران :

الأول : الإعتقاد بوحداية الله وأن لا يُشرك معه في العبادة غيره ، سواء كان ذلك الغير صنماً كما يفعل مُشركو مكة ، أو أباً أو زوجة أو بنتاً كما عليه بعض الطوائف الأخرى كالنصارى ، ولولا الإعتقاد بوحداية الله ما كُلف أحد نفسه تكاليف الحياة من آداب الأخلاق بل كان يسير فيما تأمر به نفسه من شهواتها وملذاتها ما دام ذلك خافياً عن الناس .

الثاني : الإعتقاد بالبعث والنشور وأن هناك يوماً ثانياً للإنسان يُجازى فيه على ما صنعه في الدنيا إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وعلى هذين الأمرين جاء غالب الآي المكيّة ، فقلّما نرى سورة من سور مكة إلا مشحونة بالإستدلال عليهما وتوبيخ من تركهما ، وكل ذلك بأساليب تأخذ بالعقل ، وبراهين لا تحتاج لفلسفة الذين يشغلون أنفسهم بما لا طائل تحته مما يضيع الوقت سدى . ونزل على رسول الله ﷺ بمكة من القرآن معظمه ، وهو ما عدا ثلاثاً وعشرين سورة منه ، وهي : البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الأنفال ، التوبة ، الحج ، النور ، الأحزاب ، القتال ، الفتح ، الحجرات ، الحديد ، المجادلة ، الحشر ، الممتحنة ، الصف ، الجمعة ، المنافقون ، التغابن ، الطلاق ، التحريم ، النصر ، هذه كلها مدنية وباقي القرآن مكّي .

ولما نزل عليه الصلاة والسلام ببقاء ، نزل على شيخ بني عمرو

(١) سورة الأحزاب الآية : ٦٢ .

كُلثوم بن الهدم^(١) ، وكان يجلس للناس ويتحدث لهم في بيت سعد بن خيثمة^(٢) لأنه كان عزباً ونزل أبو بكر بالسُّنَح (محلة بالمدينة) على خارجة بن زيد من بني الحارث من الخزرج .

مسجد قباء

وأقام رسول الله بقباء ليالي^(٣) أسس فيها مسجد قباء الذي وصفه الله بأنه مسجد أُسِّس على التقوى من أول يوم^(٤) ، وصلى فيه عليه الصلاة والسلام بمن معه من الأنصار والمهاجرين ، وهم آمنون مطمئنون ، وكانت المساجد على عهد رسول الله في غاية من البساطة ليس فيها شيء مما اعتاده بُناة المساجد في القرون الأخيرة ، لأن الرسول وأصحابه لم يكن جُلُّ همهم إلا منصرفاً لتزيين القلوب ، وتنظيفها من حظ الشيطان ، فكان سور المسجد لا يتجاوز القامة وفوقه مظلة يُتَقَى بها حرّ الشمس .

الوصول إلى المدينة

ثم تحوّل عليه الصلاة والسلام إلى المدينة والأنصار محيطون به متقلدي سيوفهم ، وهنا حدّث ولا حَرَج عن سرور أهل المدينة ، فكان يومٌ تحوله اليهم يوماً سعيداً لم يُروا فرحين بشيء فرحهم برسول الله ﷺ ، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا من ثَنِيَّاتِ الوداع^(٥)

(١) كلثوم بن الهدم : أسلم قبل وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة .

(٢) الأوسي الأنصاري ، كان أحد النقباء بالعقبة .

(٣) لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في حَيٍّ يقال لهم بنو عمرو بن عوف ، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة .

(٤) قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رَجَالٌ يَحْبُونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ .

(٥) المنطقة التي يصل إليها المشيعون بسمونها بثنية الوداع .

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوثُ فينا جئت بالأمر المطاع

وكان الناس يسيرون وراء رسول الله ما بين ماشٍ وراكب يتنازعون
زمام ناقته كلٌ يريد أن يكون نزيله .

أول جمعة

وأدرسته عليه الصلاة والسلام صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف^(١) ، فنزل وصلّاها وهذه أول جمعة له عليه الصلاة والسلام ؛ وأول خطبة خطبها عليه الصلاة والسلام حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد أيُّها الناس فقدّموا لأنفسكم ، تعلّموا والله ليضعقنّ أحدكم ، ثم ليدعنّ غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولنّ له ربه ، ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك ، وآتيك مالاً وأفضلتُ عليك ، فما قدّمت لنفسك ؟ فلينظرنّ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرنّ قدّامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقّ تمرّة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنّ بها تُجزى الحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(٢) .

النزول على أبي أيوب

ثم ساروا وكلما مرّوا على دار من دور الأنصار يتضرّع إلى أهلهما بأن ينزل عندهم ، يأخذون بزمام الناقة ، فيقول : دعوها فإنها مأمورة^(٣) ، ولم

(١) ابن مالك الأشجعي .

(٢) سيرة ابن هشام ٥٠٠/١ .

(٣) قال العلامة الزرقاني : الحكمة البالغة في إحالة الأمر على الناقة أن يكون تخصيصه عليه الصلاة والسلام لمن خصّه الله بنزوله عنده آية معجزة تطيب بها النفوس ، وتذهب معها المنافسة بين الصحابة ، ولا يحيك ذلك في صدر أحد منهم شيئاً .

تَزَلْ سَائِرَةً حَتَّى أَتَى بَفَنَاءَ بَنِي عَدِي بْنِ النِّجَارِ (وَهُمْ أَخْوَالُهُ الَّذِينَ تَزَوَّجَ مِنْهُمْ هَاشِمُ جَدُّهُ) فَبَرَكْتَ بِمَحَلَّةٍ مِنْ مَحَلَّاتِهِمْ أَمَامَ دَارِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ وَاسْمُهُ خَالِدُ بْنُ زَيْدٍ (١)، وَذَلِكَ مَحَلُّ مَسْجِدِهِ الشَّرِيفِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَهُنَا الْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٢) فَاحْتَمَلَ أَبُو أَيُّوبَ رَحْلَهُ وَوَضَعَهُ فِي مَنْزِلِهِ، وَجَاءَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ فَأَخَذَ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ فَكَانَتْ عِنْدَهُ، وَخَرَجَتْ وَلَائِدُ بَنِي النِّجَارِ يَقْلُنَ :

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النِّجَارِ يَا حَبَّذاً مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

فَخَرَجَ إِلَيْهِنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : أَتُحِبِّينِي ؟ فَقُلْنَ : نَعَمْ ، فَقَالَ : اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ قَلْبِي يَحْبُكُنْ (٣) وَاخْتَارَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ النَّزُولَ فِي الدَّوْرِ الْأَسْفَلِ مِنْ دَارِ أَبِي أَيُّوبَ لِيَكُونَ أَرِيحٌ لَزَائِرِيهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَرْضَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَلِكَ كِرَامَةً لِرَسُولِ اللَّهِ لَمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَصِيبَهُ مِنَ التَّرَابِ الَّذِي يُحْدِثُهُ وَطَاءُ الْأَقْدَامِ أَرِ الْمَاءِ الَّذِي يَهْرَاقُ ، فَقَدْ اتَّفَقَ أَنْ كُسِرَتْ مِنْ زَوْجَتِهِ جَرَّةٌ مَاءٍ بِاللَّيْلِ ، فَقَامَ هُوَ وَهِيَ بِقَطِيفَتِهِمَا الَّتِي لَيْسَ لِهَمَا غَيْرُهَا ، يَمْسَحَانِ الْمَاءَ خَوْفاً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يَسْتَعْطِفُهُ حَتَّى كَانَ فِي الْعَلَوِ ، وَكَانَتْ تَأْتِيهِ الْجَفَانُ (٤) كُلَّ لَيْلَةٍ مِنْ سَرَاةِ الْأَنْصَارِ كَسَعَدُ بْنُ عَبَادَةَ وَأَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ وَأُمُّ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ (٥) فَمَا مِنْ لَيْلَةٍ إِلَّا وَعَلَى بَابِهِ الثَّلَاثُ أَوْ الْأَرْبَعُ مِنْ جَفَانِ الثَّرِيدِ .

نزول المهاجرين

ولما تحول مع رسول الله أغلب المهاجرين تنافس فيهم الأنصار ،

(١) توفي زمن معاوية في حصار القسطنطينية ودفن هناك خارج المدينة . المؤلف .

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٢٩ .

(٣) ذكره الحاكم والبيهقي .

(٤) وهي القصعة .

(٥) هي النوار بنت مالك ، تزوجها بعد ثابت عمارة .

فحَكِّمُوا الْقِرْعَةَ بَيْنَهُمْ ، فما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة .

أخوة الإسلام

ومن يتأمل إلى هذه المحبة التي يستحيل أن تكون بتأثير بشر ، بل بفضل من الله ورحمته ، يفهم كيف انتصر هؤلاء الأقوام على معانديهم من المشركين وأهل الكتاب مع قلة العدد والعُدَد .

وكان الأنصار يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم قال تعالى في سورة الحشر : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) . وهذا أعلى درجات الأخوة ، وكل ذلك كانوا يرونه قليلاً بالنسبة لما وجب عليهم لإخوانهم ، فإن رسول الله ﷺ لِيُمْكِّنَ بَيْنَهُمُ الْإِخَاءَ ، آخى بين المهاجرين والأنصار ، فكان كل أنصاري ونزيلة أخوين في الله . ومن العبث أن نكلف القلم أن يوضح للقارئ أن هذه الأخوة كانت أرقى بكثير من الأخوة العصبية بل نكل ذلك للإحساس الإسلامي فإنه أفصح منطقاً من القلم . وعلى الإجمال فتلك قلوب ألف الله بينها حتى صارت شيئاً واحداً في أجسام متفرقة ، وعسى الله أن يوفق مسلمي عصرنا إلى هذا الإخاء حتى يسودوا كما ساد المتحدون ، وكان هذا الإخاء على المواساة والحق ، وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوي الأرحام ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لكل اثنين : « تآخيا في الله أخوين أخوين » (٢) ودام هذا الميراث إلى أن أنزل الله سبحانه قوله في سورة الأحزاب : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (٣) .

(١) سورة الحشر الآية : ٩ .

(٢) قال السهيلي : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٦ .

هجرة أهل البيت

ولما استقر عليه الصلاة والسلام بالمدينة أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ليأتيَا بمن تخلف من أهله ، وأرسل معهما عبد الله بن أريقط يدلهما على الطريق ، فقدما بفاطمة وأمّ كلثوم ابنتيه عليه الصلاة والسلام ، وسودة زوجه ، وأم أيمن زوج زيد وابنها أسامة ، وأما زينب فمنعها زوجها أبو العاص بن الربيع ، وخرج مع الجميع عبد الله بن أبي بكر بأمر رومان^(١) زوج أبيه ، وعائشة أخته ، وأسماء زوج الزبير بن العوّام ، وكانت حاملاً بابنها عبد الله ، وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة .

حمى المدينة

ولم يكن هواء المدينة في البدء موافقاً للمهاجرين من أهل مكة ، فأصاب كثيراً منهم الحمى^(٢) ، وكان رسول الله يُعوّدهم فلما شكوا إليه الأمر قال : « اللهم حبب إلينا المدينة كما حبيت إلينا مكة وأشد وبارك لنا في مذهبها وفي صاعها ، وانقل وباءها إلى الجحفة »^(٣) فاستجاب الله جلّ وعلا دعوته ، وعاش المهاجرون في المدينة بسلام .

منع المستضعفين من الهجرة

ومنع مشركو مكة بعضاً من المسلمين عن الهجرة ، وحبسوهم وعذبوهم منهم الوليد بن الوليد ، وعيَّاش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص ، فكان عليه الصلاة والسلام يدعولهم في صلاته ، وهذا أصل القنوت^(٤) ، وقد حصل في أوقات مختلفة ومَحالّ في الصلاة مختلفة ،

(١) أم رومان امرأة أبي بكر الصديق ، توفيت في حياة النبي ﷺ .

(٢) لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعكّ أبو بكر وبلال .

(٣) والجحفة: قرية على اثنتين وثمانين ميلاً من مكة وهي ميقات أهل الشام . وكان بها اليهود

فهلكوا وضربت الجحفة وانتقل الميقات إلى أربع

(٤) عن أنس رضي الله عنه قال : بعث النبي ﷺ سبعين رجلاً لحاجة ، يقال لهم القراء ، فعرض =

فكان في وتر العشاء ، وصلاة الصبح بعد الركوع وقبله ، فروى كل صحابي ما رآه ، وهذا سبب اختلاف الأئمة في مكان القنوت .

= لهم حيَّان من بني سليم ، رُغل وذكوان ، عند بئر يقال لها بئر معونة ، فقال القوم : والله ما إياكم أردنا ، إنما نحن مجتازون في حاجة للنبي ﷺ ، فقتلوهم ، فدعا النبي ﷺ عليه شهراً في صلاة الغداة ، وذلك بدء القنوت وما كنا نقنت . النجاري ٤٠٨٨ .



السنة الأولى

بناء المسجد

ثم شرع عليه الصلاة والسلام في بناء مسجده في مَبْرَكِ ناقته أمام محلة بني مالك بن النجار ، وكان محله مَرَبِداً للتمر^(١) يملكه غلامان يتيمان^(٢) في جِبر أسعد بن زرارة ، فدعا الغلامين ، وساومهما بالمِربد ليتخذه مسجداً ، فقالا : بل نَهْبُهُ لك يا رسول الله ، فأبى عليه الصلاة والسلام أن يقبله منهما هبة بل ابتاعه منهما^(٣) ، وكان فيه قبورٌ للمشرَكين وبعض حفر ونخل ، فأمر بالقبور فُنُبِشت ، وبالحفر فُسُويت ، وبالنخل فُقُطِع ، ثم أمر باتخاذ اللبن فاتخذ وشرعوا في البناء به ، وجعلوا عضادتي الباب من الحجارة ، وسقفوه بالجريد ، وجعلت عَمْدُهُ من جذوع النخل ، ولا يزيد ارتفاعه عن القامة إلا قليلاً ، وقد عمل فيه رسول الله بنفسه ليرغب المسلمين في العمل ، وصاروا يرتجزون وهو يقول معهم :

اللهم لا خيرَ إلا خيرُ الآخرة فارحم الأنصارَ والمُهَاجرة

وَجُعِلَتْ قِبلة المسجد في شماله إلى بيت المقدس ، وجُعِلَ له ثلاثة أبواب ثم حصبت أرضه لأن المطر كان قد أثّر فيه ، فأمر عليه الصلاة

(١) المربد : هو الموضع الذي يجفف فيه التمر .

(٢) هما سُهيل وسهل .

(٣) ولم يقبله هبة لأن المالك دون البلوغ وهو لا يصح .

والسلام بحصبة^(١) ، ولم يزين المسجد بِقُرْشٍ حتى ولا بالحصر ، وبنى بجانبه حجرتين ، إحداهما لِسُودَة بنت زمعة ، والأخرى لعبائشة ، ولم يكن عليه الصلاة والسلام متزوجاً غيرهما إذ ذاك ، وكانت الحجرتان متجاورتين وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه ، وصارت الحجرات تبنى كلما جاءت زوج^(٢) .

بدء الأذان

أوجب الله الصلاة على المسلمين ليكونوا دائماً متذكرين عظمة العلي الأعلى ، فيتبعون أوامره ، ويجتنبون نواهيه ، ولذلك قال في مُحكم كتابه في سورة العنكبوت : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾^(٣) . وجعل أفضل الصلاة ما كان جماعة ليذاكر المسلمون بعضهم بعضاً في شؤونهم واحتياجاتهم . ويقوّوا روابط الإلفة والاتحاد بينهم ، ومتى حان وقت الصلاة فلا بدّ من عمل ينبه الغافل ، ويذكّر الساهي حتى يكون الاجتماع عامّاً ، فائتمر^(٤) النبي عليه الصلاة والسلام مع الصحابة فيما يفعل لذلك ، فقال بعضهم : نرفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس ، فلم يرضوا ذلك لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل ، وقال الآخرون : نُشعل ناراً على مرتفع من الهضاب فلم يقبل أيضاً ، وأشار آخرون بيق (وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم) فكرهه رسول الله لأنه لم يكن يحب تقليد اليهود في عمل ما ، وأشار بعضهم بالناقوس (وهو ما يستعمله النصاري) فكرهه الرسول أيضاً ، وأشار بعضهم بالنداء فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها فقبل هذا الرأي ، وكان أحد المنادين عبد الله بن زيد الأنصاري ، فبينما هو بين النائم واليقظان إذ عرض له شخص وقال : ألا

(١) حتى صار عددها تسع حجرات .

(٢) أي أن تلقى فيه الحصباء وهي الحصى الصغار .

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٤٥ .

(٤) تشاور .

أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة ؟ قال : بلى ، فقال له : قل الله أكبر مرتين ، وتشهد مرتين ثم قل حيّ على الصلاة مرتين ، ثم قل : حيّ على الفلاح مرتين : ثم كبر ربك مرتين ، ثم قل لا إله إلا الله فلما استيقظ توجه إلى النبي ﷺ وأخبره خبر رؤياه ، فقال : إنها لرؤيا حق ، ثم قال له لقن ذلك بلالاً فإنه أندى (١) صوتاً منك ، وبينما بلال يؤذن إذ جاء عمر يجبر رداءه ، فقال : والله لقد رأيت مثله يا رسول الله ، وكان بلال أحد مؤذنيه بالمدينة ، والآخر عبد الله بن أم مكتوم ، وكان بلال يقول في أذان الصبح بعد حيّ على الفلاح : « الصلاة خير من النوم » مرتين ، وأقره الرسول على ذلك ، وكان عليه الصلاة والسلام يأمر في فجر رمضان بأذنين : أولهما يوقظ به الغافلون حتى يَنْتَبِهوا للسحور ، والثاني للصلاة . أما الأذان للجمعة ، فكان أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد نداء آخر على الزوراء . رواه البخاري (٢) . ولما تولى هشام بن عبد الملك أخذ الأذان الذي زاده عثمان بالزوراء وجعله على المنار ، ثم نقل الأذان الذي كان على المنار (٣) حين صعود الإمام على المنبر في العهد الأول بين يديه .

فعلم بذلك أن الأذان في المسجد بين يدي الخطيب « بدعة » أحدثها هشام بن عبد الملك ، ولا معنى لهذا الأذان لأنه هو نداء إلى الصلاة ، ومن هو في المسجد لا معنى لندائه ومن هو خارج المسجد لا يسمع النداء إذا كان النداء في المسجد . ذكر ذلك الشيخ محمد بن الحاج في « المدخل » .

قال الحافظ في فتح الباري (٤) : وأما ما أحدث الناس قبل الجمعة من

(١) أي أرفع وأعلى .

(٢) الزوراء : موضع في سوق المدينة .

(٣) كان الأذان على سطح المسجد ولم يكن مناراً .

(٤) ٣٩٤/٢

الدعاء إليها بالذكر والصلاة على النبي ﷺ فهو في بعض البلاد دون بعض
واتباع السلف الصالح أولى . اهـ .

فعلم من ذلك كله أن سنة رسول الله ﷺ في أذان الجمعة أنه كان
إذا جلس على المنبر أذن مؤذنه على المنار ، فإذا انتهت الخطبة أقيمت
الصلاة وما عدا ذلك فكله ابتداء^(١) .

أما الإقامة وهي الدعوة للصلاة في المسجد ، فقد اختلفت الروايات
في نصّها فرواها محمد بن إدريس الشافعي مفردة إلا لفظ (قد قامت
الصلاة) فمَثْنَى ، ورواها مالك بن أنس مفردة كلها ، ورواها أبو حنيفة
النعمان مَثْنَى كلها .

يهود المدينة

هذا ، وكما ابتلى الله المسلمين في مكة بمُشركي قريش ابتلاهم في
المدينة بيهودها وهم : بنو قينقاع ، وقريظة ، والنضير ، فإنهم أظهروا
العداوة والبغضاء حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق ،
وكانوا قبل مجيء الرسول يستفتحون على المشركين من العرب إذا شُبّت
الحرب بين الفريقين بنبي يبعث قد قرب زمانه ، فلما جاءهم ما عرفوا
استعظم رؤسائهم أن تكون النبوة في ولد إسماعيل ، فكفروا بما أنزل الله
بغياً ، مع أنهم يرون أن رسول الله محمداً لم يأتِ إلا مصداقاً لما بين يديه
من كتب الله التي أنزلها على من سبقه من المرسلين ، مبيّناً ما أفسده
التأويل منها ، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . ومما عابوه
على الإسلام نسخ الأحكام ، وما ذَرَوْا أن القادر العليم يعلم ما يحتاجه
الإنسان أكثر منهم ، فإنه ميال بطبعه للترقي ، والرسول عليه الصلاة والسلام
وجد بادئ بدء بين جماعة من العرب أميين ليسوا على شيء من

(١) تبين مما مضى أن عثمان أخذته لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة، فهي إذا بدعة حسنة لا
سيئة .

الإعتقادات الإلهية ، فكانت الحكمة داعية لأن يكون التشريع لهم على التدرج ، لأنه لو حرّم الله عليهم شرب الخمر وأكل الربا ، وأمرهم بالصلاة والزكاة وهكذا إلى آخر الأوامر والمناهي التي جاء بها الشرع الإسلامي لما أجابه أحد من هؤلاء النافرة قلوبهم ، المختلفة أهواؤهم ، الذين كانوا منغمسين في كثير من الأضاليل ، فجاءهم رسول الله ﷺ بالأمر شيئاً فشيئاً حتى رُوِّضت عقولهم ، وهُدِّبَت نفوسهم ، وكانت الأحكام لا ينزلها الله عليه إلا عقب الحوادث التي تقتضيها ، ليكون التأثير في النفوس أشد ، ولكن اليهود أرادوا غَلُّ يد القدرة عن أن تفعل إلا ما يشتهون ، وقد حجَّهم القرآن الشريف بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البُعد عن الحق ، فقال في سورة البقرة : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) ثم حَتَمَ جَلَّ ذكره عدم إجابتهم بقوله : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٢) فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق لما تأخروا عما طُلب منهم مع سهولته وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين ، ولم ينقل لنا عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو نُطِقاً باللسان . وقد تبيّن الهدى لأحد رؤساء بني قينقاع وهو عبد الله بن سلام ، فترك هواه وأسلم بعد أن سمع القرآن ، وبعد أن كان اليهود يعدّونه من رؤسائهم ، عدّوه من سفهائهم حينما بلغهم إسلامه ، فـ ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (٣) ، ولما استحکمت في قلوبهم عداوة الإسلام صاروا يجهدون أنفسهم في إطفاء نوره : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٤) .

(١) سورة البقرة الآية : ٩٤ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٩٥ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٩٠ .

(٤) سورة التوبة الآية : ٣٢ .

المنافقون

وكان يُساعدُهُم على مقاصدهم جماعة من عرب المدينة أعمى الله بصائرهم ، فأخفوا كفرهم خوفاً على حياتهم ، وكان يرأس هذه الجماعة عبد الله بن أبيّ بن سلول الخزرجي الذي كان مرشحاً لرياسة أهل المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ (١) ، ولا شك أن ضرر المنافقين أشد على المسلمين من ضرر الكفار ، لأن أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم ، ويُشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم كما حصل ذلك مراراً ، والأساس الذي كان عليه رسول الله أن يقبل ما ظهر ويترك الله ما بطن ، ولكنه عليه الصلاة والسلام مع ذلك كان لا يأمنهم في عمل ما . فكثيراً ما كان يتغيب عن المدينة ، ويولي عليها بعض الأنصار ، ولكن لم يُعَهدْ أنه ولي رجلاً مَنَّ عَهدٌ عليه النفاق ، لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم ما يكون منهم لو وُلُّوا عملاً ، فإنهم بلا شك يتخذون ذلك فرصة لإضرار المسلمين ، وهذا درس مهم لرؤساء الإسلام يعلمهم ألا يثقوا في الأعمال المهمة إلا بمن لم تظهر عليهم شبهة النفاق أو إظهار ما يخالف ما في الفؤاد .

معاهدة اليهود

هذا ، وقد علمت أنه كان يضاد المسلمين في المدينة فئتان : اليهود ، والمنافقون ، ولكن الرسول قَبِلَ من هؤلاء ظواهرهم ، وعقد مع أولئك عهداً مقتضاه ترك الحرب والأذى ، فلا يُحاربهم ولا يؤذيهم ، ولا يعينون عليه أحداً ، وإن دهمهم بالمدينة عدو ينصرونه ، وأقرهم على دينهم .

(١) رأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه مُلكه ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على النفاق . والعياذ بالله .

مشروعية القتال^(١)

قد عُلم مما تقدم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يقاتل أحداً على الدخول في الدين ، بل كان الأمر قاصراً على التبشير والإنذار ، وكان الله سبحانه ينزل عليه من الآي ما يقويه على الصبر أمام ما كان يلاقه من أذى قريش ، ومن ذلك قوله في سورة الأحقاف : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾^(١) . وكان كثيراً ما يقص الله عليه أنباء إخوانه من المرسلين قبله ليثبت به فؤاده ، ولما ازداد طغيان أهل مكة ألجؤوه إلى الخروج من داره بعد أن ائتمروا على قتله ، فكانوا هم البادئين بالعداء على المسلمين حيث أخرجوهم من ديارهم بغير حق ، فبعد الهجرة أذن الله للمهاجرين بقتال مشركي قريش بقوله في سورة الحج : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظُلْمُوا وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾^(٢) ثم أمرهم بذلك في سورة البقرة : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾^(٣) . وبذلك لم يكن الرسول يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب فلما تمالاً على المسلمين غير أهل مكة من مشركي العرب واتحدوا عليهم مع الأعداء أمر الله بقتال المشركين كافة بقوله في سورة التوبة : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾^(٤) وبذلك صار الجهاد عاماً لكل مَنْ ليس له كتاب من الوثنيين وهذا مصداق قوله عليه الصلاة

(١) سورة الأحقاف الآية : ٣٥

(٢) سورة الحج الآية : ٣٩ - ٤٠ .

(٣) سورة البقرة الآيات : ١٩٠ - ١٩٣ .

(٤) سورة التوبة الآية : ٣٦ .

والسلام : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ » (١) . ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهد حيث انهم ساعدوا المشركين في حروبهم ، أمر الله بقتالهم بقوله في سورة الأنفال : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (٢) وقاتلهم واجب حتى يدينوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ليأمن المسلمون جانبهم ، وصار قتال رسول الله للأعداء على هذه المبادئ

١ - اعتبار مُشركي قريش محاربين لأنهم بدؤوا بالعدوان فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن الله بفتح مكة أو تعقد هدنة وقتية بين الطرفين .

٢ - متى رُئِيَ من اليهود خيانة وتحيز للمشركين قوتلوا حتى يؤمن جانبهم بالنفي أو القتل .

٣ - متى تعدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشاً قوتلت حتى تدين بالإسلام .

٤ - كل من بدأ بعداوة من أهل الكتاب كالنصارى قوتل حتى يدعن بالإسلام أو يعطي الجزية عن يد وهو صاغر .

٥ - كل من أسلم فقد عصم دمه وماله إلا بحقه ، والإسلام يقطع ما قبله .

وقد أنزل الله في القرآن الكريم كثيراً من الآي تحريضاً على الإقدام في قتال الأعداء وتبعيدها عن الفرار من الزحف فقال في الموضوع الأول في سورة النساء : ﴿ فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان ، رقم : ٢٥ .

(٢) سورة الأنفال الآية : ٥٨ .

وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾ .
 وقال في الموضوع الثاني في سورة الأنفال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ
 أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ﴿٢﴾ .

بدء القتال

كانت عادة قريش أن تذهب بتجارتها إلى الشام لتبيع وتبتاع ، ويُسمى
 الركب السائر بهذه التجارة عيراً ، وكان يسير معها لحراستها كثير من أشرف
 القوم وسرّاتهم ، ولا بدّ لوصولهم إلى الشام من المرور على دار الهجرة ،
 فرأى رسول الله ﷺ أن يُصادر تجارتهم ذاهبةً وآيةً ، ليكون في ذلك عقاب
 لمشركي مكة ، حتى تضعف قوتهم المالية ، فيكون ذلك أدعى لخدلانهم
 في ميدان القتال ، الذي لا بدّ أن يكون ، لأن قريشاً لم تكن لتسكت عمّن
 سَفّه أحلامهم ، وعاب عبادتهم خصوصاً وهم قدوة العرب في الدين .

سرية (٣)

ففي شهر رمضان أرسل عمّه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين رجلاً
 من المهاجرين ، وعقد لهم لواء أبيض حمله أبو مرثد (٤) حليف حمزة ،
 ليعترض عيراً لقريش آيةً من الشام ، فيها أبو جهل وثلاثمائة من أصحابه
 المشركين ، فسار حمزة حتى وصل ساحل البحر من ناحية العيص (٥)
 فصادف العير هناك ، فلما تصافوا للقتال حجز بين الفريقين مجدي بن عمرو
 الجُهني فأطاعوه وانصرفوا ، وشكر عليه الصلاة والسلام مجدياً على عمله

(١) سورة النساء الآية : ٧٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية : ١٥ - ١٦ .

(٣) السرية : القطعة من الجيش .

(٤) هو كنان بن حصين الغنوي .

(٥) عرض من أعراض المدينة ، أي ناحية منها . المؤلف .

لما كان من قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم .

وفي شوال أرسل عُبيدة بن الحارث^(١) بن المطلب بن عبد مناف في ثمانين راكباً من المهاجرين ، وعقد له لواء أبيض حملة مسطح بن أثاثه^(٢) ليعترض عيراً لقريش ، فيها مائتا رجل ، فوافوا العير ببطن رابغ^(٣) ، فكان بينهم الرمي بالنبل ، ثم خاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين فانهزموا ، ولم يتبعهم المسلمون ، وفرّ من المشركين إلى المسلمين المقداد بن الأسود وعتبة بن غزوان وكانا قد أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين .

وفيات

وفي هذه السنة توفي من المهاجرين عثمان بن مظعون أخو رسول الله ﷺ من الرضاع أسلم قديماً ، وهاجر الهجرتين ، ولما دفن أمر عليه الصلاة والسلام بأن يُرَشَّ قبره بالماء ، ووضعَ على قبره حجراً ، وقال : أتعلم به قبر أخي ، وأدفن إليه من مات من أهلي ، وهذا كان القصد من وضع الأحجار على المقابر ، لا ما يقصده أهل العصور الأخيرة من تشييد الهياكل على القبور ، وتصويرها بصور تُرى في عين الناظر كالأصنام ، ليأتي أقارب الميت ويصنعوا عندها احتفالات كثيرة ، تشبه ما كان يفعله مشركو مكة عند معابدهم ، ومن العبث فعل شيء لم يفعله رسول الله مما يتعلق بأمور الآخرة .

ومات من الأنصار أسعدُ بن زُرارة أحد النقباء الإثني عشر ، كان رضي الله عنه نقيب بني النجار ، ولما مات اختار رسول الله نفسه للنقابة عليهم لأن ابن أخت القوم منهم ، ومات أيضاً البراء بن معرور أحد النقباء ، وهو

(١) في الأصل : ابن عم حمزة وهو خطأ ، لأنه ابن ابن عم عبد المطلب .

(٢) اسمه عوف ، أسلم قديماً ، ومات سنة ٣٤ هـ .

(٣) وإد بين الحرمين قرب البحر . المؤلف .

الذي كان يتكلم عن القوم في العقبة الثانية ، ومات من مشركي مكة في هذه السنة الوليد بن المغيرة ، ولما احتضر جزع ، فقال له أبو جهل : ما جزعك يا عم ، فقال : والله ما بي جزع من الموت ، ولكن أخاف أن يظهر دين ابن أبي كبشة بمكة ، فقال أبو سفيان : لا تخف إني ضامن ألا يظهر ، وفيها أيضاً مات العاص بن وائل السهمي . وقد كفى الله المسلمين شر هذين الشقيين .

السنة الثانية

غزوة

ولإثنتي عشرة ليلة خَلَّتْ من السنة الثانية خرج رسول الله ﷺ من المدينة بعد أن استخلف عليها سعد بن عباد ، ليعترض عيراً لقريش ، فسار حتى بلغ وَدَّان^(١) ، وكان يحمل لواءه عمّه حمزة ، ولم يلقَ هناك حرباً لأن العير كانت قد سبقته ، وفي هذه الغزوة صالح بني ضمرة على أنهم آمنون على أنفسهم ولهم النصر على من رامهم ، وأن عليهم نُصْرَةَ المسلمين إذا دُعوا ، ثم رجع إلى المدينة بعد مضي خمس عشرة ليلة .

غزوة بسواط

ولم يمضِ على رجوعه غير قليل حتى بلغه أن عيراً لقريش آية من الشام ، فيها أمية بن خلف ومائة من قريش ، وألفان وخمسمائة بعير ، فسار إليها في مائتين من المهاجرين^(٢) ، وذلك في ربيع الأول ، وكان يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص ، فسار حتى بلغ بُواط^(٣) ، فوجد العير قد فاتته

(١) قرية بين مكة والمدينة بينها وبين الأبواء ستة أميال . المؤلف .

(٢) واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون .

(٣) جبل لجهينة على أبراد من المدينة جهة ينبع . المؤلف .

فرجع ولم يلقَ كيذا^(١) ، وذلك كله لما كان يأخذه المشركون من الحذر على أنفسهم والإجتهاد في تعمية أخبارهم عن أهل المدينة .

غزوة العشيرة^(٢)

وأعقب رجوعه عليه الصلاة والسلام خروج قريش بأعظم عير لها ، فقد جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشي أو قرشية لها مثقالاً فصاعداً إلا بعث به في تلك العير ، وكان يرأسها أبو سفيان بن حرب ومعه بضعة وعشرون رجلاً ، فخرج لها الرسول في جمادى الأولى ، ومعه مائة وخمسون من المهاجرين ، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، وحمل لواءه عمه حمزة ، ولم يزل سائراً حتى بلغ العُشيرة فوجد العير قد مضت ، ووادع عليه الصلاة والسلام في هذه الغزوة بني مُدَلِج وحلفاءهم ، ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ينتظر هذه العير حينما ترجع .

غزوة بدر الأولى

وبعد رجوعه عليه الصلاة والسلام بقليل جاء كُرُزُ بن جابر الفِهري^(٣) ، وأغار على سَرَح^(٤) المدينة وهرب ، فخرج الرسول في طلبه ، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة الأنصاري ، وحمل لواءه علي بن أبي طالب ، فسار حتى بلغ سَفَوان^(٥) وفاته كُرُزُ فلم يلق حرباً ، وتُسمى هذه الغزوة بدرًا الأولى .

(١) أي حرباً.

(٢) رواها البخاري في أول كتاب المغازي .

(٣) كان من رؤساء المشركين ، واستشهد في غزوة فتح مكة .

(٤) الابل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة .

(٥) وادٍ من ناحية بدر . المؤلف .

سرية^(١)

وفي رجب من هذه السنة أرسل سرية عدتها ثمانية رجال ، يرأسها عبد الله بن جحش^(٢) ، وأعطاه كتاباً مختوماً لا يَفْضُضُهُ إلا بعد أن يسير يومين ثم ينظر فيه . فسار عبد الله يومين ، ثم فتح الكتاب فإذا فيه : « إذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نَخْلَةَ ، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم » وإنما لم يخبرهم عليه الصلاة والسلام بمقصدهم وهم بالمدينة حذراً من شيوخ الخبر ، فيدلّ عليهم أحد الأعداء من المنافقين أو اليهود فتترصد لهم قريش . ولا يخفى أن عدد السرية قليل لا يمكنه المقاومة ، ثم سار عبد الله رضي الله عنه ، وفي أثناء السير تخلف سعد بن أبي وقاص وعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ لأنهما أضلّا بغيرهما الذي كانا يعتقبانه ، وسار الباقيون حتى وصلوا نخلة فمرت بهم غير قرشية تريد مكة فيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان ، فأجمع المسلمون أمرهم على أن يحملوا عليهم ويأخذوا ما معهم ، فحملوا عليهم في آخر يوم من رجب ، فقتلوا عمرو بن الحضرمي ، وأسروا عثمان والحكم ، وهرب نوفل ، واستاقوا العير وهي أول غنيمة غنمها المسلمون من أعدائهم قريش ثم رجعوا ، ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم ، فلما قدموا المدينة وشاع أنهم قاتلوا في الأشهر الحرم ، وعابتهم قريش واليهود بذلك ، عَنَّفَهُم المسلمون ، وقال لهم عليه الصلاة والسلام ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحُرْمِ فندموا ، فأنزل الله في سورة البقرة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾^(٣) فَسُرِّيَ عنهم . وقد طلب المشركون فداء أسيريهما ، فقال عليه الصلاة والسلام حتى يرجع سعد وعُتْبَةُ ، فلما رجعا قبل عليه الصلاة

(١) هي سرية عبد الله بن جحش إلى بطن نخلة .

(٢) عبد الله بن جحش بن رباب الأسدي ، دفن هو وحمزة في قبر واحد .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢١٧ .

والسلام الفدية في الأسيرين ، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه مع المسلمين ، وأما عثمان فلهق بمكة كافراً .

تحويل القبلة

مكث عليه الصلاة والسلام بالمدينة ستة عشر شهراً يستقبل بيت المقدس في صلاته ، وكان يحب أن تكون قبلته الكعبة ويقلّب وجهه في السماء داعياً الله بذلك . فبينما هو في صلاته إذ أوحى الله إليه بتحويل القبلة إلى الكعبة فتحول وتحول مَنْ وراءه . وكانت هذه الحادثة سبباً لافتتان بعض المسلمين الذين ضعفت قلوبهم فارتدوا على أعقابهم^(١) . وقد أكثر اليهود من التنديد على الإسلام بهذا التحويل . وما درّوا أن الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

صوم رمضان

وفي شعبان من هذه السنة أوجب الله صوم شهر رمضان على الأمة الإسلامية ، وكان عليه الصلاة والسلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، والصيام من دعائم هذا الدين ، والفرائض التي يتم بها النظام ، فإن الإنسان مجبول على حب نفسه ، والسعي فيما يعود عليها بالنفع الخاص ، تاركاً ما وراء ذلك من حاجات الضعفاء والمساكين ، فلا بدّ من وازع يزعه لحاجات قوم أقعدتهم قواهم عن إدراك حاجاتهم ، ولا أقوى من ذوق قوارص الجوع والعطش ، إذ بهما تلين نفسه ويتهدّب خلقه ، فيسهل عليه بذل الصدقات .

(١) لم يعرف أحد من المسلمين ارتدّ بسبب تحويل القبلة . ولا أدري من أين جاء المؤلف رحمه الله بهذه الرواية .

صدقة الفطر

ولذلك أوجب الشارع الحكيم عقب الصوم زكاة الفطر فترى الإنسان يبذلها بسخاء ومحبة خالصة .

زكاة المال

وفي هذا العام فُرضت زكاة الأموال ، وهذه هي النظام الوحيد الذي به يأكل الفقراء والمساكين من إخوانهم الأغنياء بلا ضرر على هؤلاء ، فإذا بلغت الدنانير عشرين أو الدراهم مائتين ، وحال عليها الحول ، وجب عليك أن تؤدي ربع عشرها (أي اثنين ونصفاً في كل مائة) وما زاد فبحسابه ، وإذا بلغت الشياه أربعين ، والبقر ثلاثين ، والإبل خمساً ، وحال عليها الحول وجب عليك كذلك أن تؤدي منها جزءاً مخصوصاً حدده الشارع ، ومثلها عروض التجارة ومحصولات الزراعة كل هذا يقبضه الإمام ، ويوزعه على مستحقيه من الفقراء والمساكين وبقية المذكورين في آية الصدقة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) واللبيب العاقل البعيد عن التعصب يحكم لأول نظرة أن هذا النظام مع عدم إضراره بالأغنياء مقلل لمصائب الفقر التي ألجأت كثيراً من فقراء الأمم أن يخالفوا نظام دولهم ، ويؤسسوا مبادئ تقويض العمران وتداعي الأمن كما يفعله الاشتراكيون وغيرهم .

غزوة بدر الكبرى^(١)

لم يطل العهد بتلك العير العظيمة التي خرج لها عليه الصلاة والسلام وهي متوجهة إلى الشام ، فلم يدركها ولم يزل مترقباً رجوعها ، فلما سمع

(١) سورة التوبة الآية : ٦٠ .

(٢) بدر : هي قرية مشهورة بين مكة والمدينة .

برجوعها نَدَبَ إليها أصحابه ، وقال : هذه غيرُ قريش فاحرجوا إليها لعلَّ الله أن يُفْلِكُمُوهَا فأجاب قوم وثَقُلَ آخرون لظنهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يُرِدْ حرباً ، فإنه لم يحتفل بها بل قال : من كان ظهره حاضراً فليركب معنا . ولم ينتظر من كان ظهره غائباً . فخرج لثلاث ليالٍ خَلَوْنَ من رمضان بعد أن وَلَّى على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، وكان معه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً : مائتان ونيف وأربعون من الأنصار ، والباقيون من المهاجرين ، ومعهم فَرَسَان ، وسبعون بغيراً يعتقبونها^(١) ، والحامل للواء مصعب بن عمير العبْدَري . ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول ﷺ استأجر راكباً^(٢) ليأتي قريشاً ويخبرهم الخبر ، فلما علموا بذلك أدركتهم حميتهم ، وخافوا على تجارتهم ، فنفروا سراعاً ولم يتخلف من أشrafهم إلا أبو لهب بن عبد المطلب ، فإنه أرسل بدله العاص بن هشام بن المغيرة^(٣) . وأراد أمية بن خلف أن يتخلف لحديث حدثه إياه سعد بن معاذ حينما كان معتمراً بعد الهجرة بقليل ، حيث قال كما رواه البخاري^(٤) : سمعتُ من رسول الله يقول : إنهم قاتلوك ، قال : بمكة ؟ قال : لا أدري . ففزع لذلك وحلف ألا يخرج ، فعابه أبو جهل ولم يزل به حتى خرج قاصداً الرجوع بعد قليل . ولكن إرادة الله فوق كل إرادة ، فإن منيته ساقته إلى حتفه رغم أنفه . وكذلك عَزَمَ جماعةٌ من الأشراف على القعود فَعِيبَ عليهم ذلك ، وبهذا أجمعتُ رجالُ قريش على الخروج ، فخرجوا على الصعب والذلول ، أمامهم القَيْنَات يغنين بهجاء المسلمين : ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾^(٥) . وقد ضرب الله عمل الشيطان هذا مثلاً يعتبر به ذوو الرأي من بعدهم ، فقال في سورة الحشر : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي

(١) الإعتقاب والتعاقب بمعنى ، وهو التناوب والتداول .

(٢) هو ضمضم بن عمرو الغفاري .

(٣) أخا أبي جهل .

(٤) في المغازي ، رقم : ٣٩٥٠ .

(٥) سورة الأنفال الآية : ٤٨ .

بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وهكذا كان عمله في هذه الواقعة ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَّانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ . وكان عدّة من خرج من المشركين تسعمائة وخمسين رجلاً معهم مائة فرس وسبعمائة بعير .

أما رسول الله ﷺ فلم يكن يعرف شيئاً مما فعله المشركون ، ولم يكن خروجه إلا للغير ، فعسكر ببيوت السّقيّا خارج المدينة ، واستعرض الجيش فردّ من ليس له قدرة على الحرب ، ثم أرسل اثنين يتجسسان الأخبار (٣) عن العير . ولما بلغ الرّوحاء (٤) جاءه الخبر بمسير قريش لمنع عيرهم ، وجاءه مخبراه بأن العير ستصل بدرأ غداً أو بعد غد ، فجمع عليه الصلاة والسلام كبراء الجيش وقال لهم : « أيّها الناس إنّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين أنها لكم : العير أو النفير » فتبين له عليه الصلاة والسلام أن بعضهم يريدون غير ذات الشوكة وهي العير ليستعينوا بما فيها من الأموال ، فقد قالوا هلاً ذكرت لنا القتال فنستعد ، وجاء مصداق ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكُوكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴿٥﴾ . ثم قام المقداد بن الأسود (٦) رضي الله عنه فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٧﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، والله لو

(١) سورة الحشر الآية : ١٦ .

(٢) سورة الأنفال الآية : ٤٨ .

(٣) هما بسيس بن الجهني ، وعدي بن أبي الزّغباء .

(٤) موضع على ثلاثين أو أربعين ميلاً جنوب المدينة الغربي . المؤلف .

(٥) سورة الأنفال الآية : ٧ .

(٦) هو المقداد بن عمرو ، أسلم قديماً ، وهو أول من قاتل على فرس في سبيل الله .

(٧) سورة المائدة الآية : ٢٤ .

سرت بنا إلى بَرْكِ الغماد^(١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فدعا له بخير ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : أشيروا عليَّ أيُّها الناس وهو يريد الأنصار لأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لا تَجِبُ عليهم نصرته إلا ما دام بين أظهرهم . فإن فيها : يا رسول الله إنا بُراء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إليها فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فقال سعد بن معاذ^(٢) سيد الأوس : كأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فقال : أجل ، فقال سعد : قد آمنا بك وصدَّقناك ، وأعطيناك على ذلك عهدونا ، فامضِ لما أمرك الله ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضه معك ، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً ، إنا لَصَبْرٌ عند الحرب صُدُقٌ عند اللقاء ، ولعلَّ الله يُريك منا ما تقرُّ به عَيْنُكَ فسر على بركة الله . فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام وسرَّ بذلك وقال كما في رواية البخاري : « أبشروا والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم »^(٣) فعلم القوم من هذه الجملة أن الحرب لا بدَّ حاصلة ، وحقيقة حصلت ، فإن أبا سفيان لما علم بخروج المسلمين له ترك الطريق السلوكية ، وسار متبَعاً ساحل البحر فنجا ، وأرسل إلى قريش يُعَلِّمهم بذلك ، ويشير عليهم بالرجوع ، فقال أبو جهل : لا نرجع حتى نحضر بدرأ^(٤) فنقيم فيه ثلاثاً ننحر الجزور ونطعم الطعام ونُسقي الخمر ، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابونا أبدأ . فقال الأخنس بن شريق الثقفي لبني زهرة وكان حليفاً لهم : إرجعوا يا قوم فقد نجَّى الله أموالكم ، ولم يشهد بدرأ زهري ولا عدوي ، ثم سار الجيش حتى وصلوا وادي بدر فزلوا عدوته القصوى^(٥) عن المدينة في أرض سهلة لينة .

(١) برك الغماد : موضع على خمس ليالٍ من مكة إلى جهة اليمن .

(٢) كان من أطول الناس وأعظمهم جسماً ، ورُمِيَ بسهم يوم الخندق ، فمات من أثر جرحه ، ودفن بالبيع وعمره ٣٧ سنة .

(٣) أي الذين سيُقتلون بدر .

(٤) محل بين مكة والمدينة .

(٥) عدوة الوادي : شاطئه . المؤلف .

أما جيش المسلمين ، فإنه لما قارب بدرًا أرسل عليه الصلاة والسلام عليَّ بن أبي طالب والزبير بن العوام ليعرفا الأخبار ، فصادفا سقاة لقريش فيهم غلام لبني الحجاج و غلام لبني العاص السهميين ، فأتيا بهما ، والرسول عليه الصلاة والسلام قائم يصلي ، ثم سألهما عن أنفسهما فقالا نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء ، فضرباهما لأنهما ظنا أن الغلامين لأبي سفيان . فقال الغلامان : نحن لأبي سفيان فتركاهما . ولما أتمَّ الرسول عليه الصلاة والسلام صلاته قال : إذا صدقاكم ضربتموهما . وإذا كذباكم تركتموهما ؟! صدقا . والله إنهما لقريش . ثم قال لهما : أخبراني عن قريش ؟ قالا : هم وراء هذا الكثيب ، فقال لهما : كم هم ؟ فقالا : لا ندري . قال كم ينحرون كل يوم . قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشرةً . قال القوم ما بين التسعمائة والألف ، ثم سألهما عمَّن في النفير من أشراف قريش فذكرا له عدداً عظيماً ، فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها^(١) ، ثم ساروا حتى نزلوا بَعْدَ الوادي الدنيا من المدينة بعيداً عن الماء في أرض سبخة^(٢) ، فأصبح المسلمون عطاشاً بعضهم جنب وبعضهم مُحدث ، فحدثهم الشيطان بوسوسته ، ولولا فضل الله عليهم ورحمته لثبت عزائمهم ، فإنه قال لهم : ما ينتظر المشركون منكم إلا أن يقطع العطش رقابكم ، ويُذهب قواكم فيتحكموا فيكم كيف شاؤوا .

فأرسل الله لهم الغيث حتى سال الوادي ، فشربوا واتخذوا الحياض على عُدْوَةِ الوادي ، واغتسلوا وتوضؤوا وملؤوا الأسقية ، ولبدت الأرض^(٣) ، حتى ثبتت عليها الأقدام ، على حين أن كان هذا المطر مصيبة على المشركين ، فإنه وَحَلَ الأرض حتى لم يعودوا يقدرّون على الارتحال . ومصدق هذا قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ

(١) قطع كبدها .

(٢) سبخة : مالحة .

(٣) أي صارت قوية لا تسوخ فيها الأرجل .

لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١﴾ وقد أرى الله رسوله في منامه الأعداء كما أراهموه وقت اللقاء قليلي العدة كيلا يفشل المسلمون ، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً . قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٢) ثم سار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر ، فقال الحُبَاب بن المنذر الأنصاري (٣) وكان مشهوراً بجودة الرأي : يا رسول الله هذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، فقال يا رسول الله : ليس لك هذا بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم ، فأني أعرف غزارة مائه وكثرته فننزله ونغور (٤) ما عداه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضاً ، فنملؤه ماءً فشرب ولا يشربون . فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : لقد أشرت بالرأي . ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ، ثم أمر بالآبار التي خلفهم فغُورَت لينقطع أمل المشركين في الشرب من وراء المسلمين ، وبنى حوضاً على القليب (٥) الذي نزل عليه . ثم قال له سعد بن معاذ سيد الأوس : يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً (٦) تكون فيه ونُعدُّ عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحققت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشدَّ لك حباً منهم ، ولا أطوع لك منهم ، لهم رغبة في الجهاد ونية ، ولو

(١) سورة الأنفال الآية : ١١ .

(٣) سورة الأنفال الآية : ٤٣ - ٤٤ .

(٣) الحُبَاب بن المنذر بن الجموح الأنصاري ، أخذ النبي ﷺ برأيه يوم بدر .

(٤) أي ندفن ونطمس .

(٥) هو البئر .

(٦) العريش : شبه الخيمة يستظل به .

ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، إنما ظنوا أنها العير ، يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك ، فقال عليه الصلاة والسلام : أو يقضي الله خيراً من ذلك . ثم بُني للرسول عريش فوق تل مشرف على ميدان الحرب ، ولما اجتمعوا عدل عليه الصلاة والسلام صفوفهم ، مناكبهم متلاصقة ، فصاروا كأنهم بنيان مرصوص ثم نظر لقريش فقال : «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها^(١) وفخرها تُحاذك^(٢) وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني به » . وفي هذا الوقت وقع خُلفٌ بين رؤساء عسكر المشركين ، فإن عتبة بن ربيعة أراد أن يمنع الناس من الحرب ويحمل دم حليفه عمرو بن الحضرمي الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش ، ويحمل ما أصيب من غيره ودعا الناس الى ذلك ، فلما بلغ أبا جهل الخبر وسَمَهُ بالجبين وقال : والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وقبل أن تقوم الحرب على ساقها ، خرج من صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي وقال أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه ، فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب وضربه ضربة قطع بها قدمه بنصف ساقه فوقع على ظهره ، فزحف على الحوض حتى اقتحم فيه ليبر قسمه فأتبعه حمزة فقتله . ثم وقف عليه الصلاة والسلام يحرض الناس على الثبات والصبر وكان فيما قال : « وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به لهم وينجي به من الغم » . ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فخرج من صفوف المشركين ثلاثة نفر : عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبه وابنه الوليد ، فطلبوا أكفاءهم فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار^(٣) ، فقالوا : لا حاجة لنا بكم إنما نريد أكفاءنا من بني عمنا ، فأخرج لهم عليه الصلاة والسلام عبيدة بن الحارث بن المطلب^(٤) للأول ، وحمزة بن عبد المطلب للثاني ، وعلي بن

(١) الخيلاء : الكبر والإعجاب .

(٢) تحاذك : تعاديك .

(٣) هم : عوف ، ومعاذ ، ابنا الحارث ، ورجل آخر قيل هو عبد الله بن رواحة .

(٤) في الأصل - ابن عبد المطلب وهو غلط ، والصواب ما أثبتنا .

أبي طالب للثالث . فأما حمزة وعلي فقتلا صاحبيهما ، وأما عبيدة وعتبة فاختلعا بضربتين كلاهما جرح صاحبه ، فحمل رفيقا^(١) عبيدة على عتبة فأجهزا عليه ، وحُمل عبيدة بين الصفوف جريحاً يسيل مَخ ساقه ، وأضجعوه إلى جانب موقفه ﷺ ، فأفرشه رسول الله قدمه الشريفة ، فوضع خده عليها وبشّره عليه الصلاة والسلام بالشهادة ، فقال : وددتُ والله أن أبا طالب كان حياً ليعلم أننا أحقّ منه بقوله :

وَنُسَلِّمُهُ حَتَّى نُصْرِعَ حَوْلَهُ وَنَذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَائِلِ

وبعد انقضاء هذه المبارزة وقف عليه الصلاة والسلام بين الصفوف يعدّلها بقضيب في يده ، فمرّ بسواد بن غزّية حليف بني النجار وهو خارج من الصف ، فضربه بالقضيب في بطنه وقال : استقم يا سواد ، فقال أوجعتني يا رسول الله ، وقد بُعثت بالحق والعدل فاقدني^(٢) من نفسك . فكشف الرسول عليه الصلاة والسلام عن بطنه ، وقال استقد يا سواد ، فاعتنقه سواد وقبّل بطنه . فقال عليه الصلاة والسلام : ما حملك على ذلك ؟ فقال يا رسول الله قد حضر ما ترى فأردتُ أن يكون آخر العهد أن يمسّ جلدي جللك ، فدعا له بخير ، ثم ابتدأ عليه الصلاة والسلام يوصي الجيش فقال : « لا تحملوا حتى آمركم وإن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ولا تسلّوا السيوف حتى يَغْشَوْكُمْ » ثم حضّهم على الصبر والثبات ثم رجع إلى عريشه ومعه رفيقه أبو بكر وحارسه سعد بن معاذ واقف على باب العريش متوشح سيفه ، وكان من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام ذاك الوقت كما جاء في صحيح البخاري^(٣) « اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تُعبد » فقال أبو بكر : حَسْبِكَ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَنْجِزُ لَكَ وَعْدَهُ . فخرج عليه الصلاة والسلام من العريش وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ

(١) أي علي وحمزة رضي الله عنهما .

(٢) أقدّني : أي اقتصّ لي من نفسك .

(٣) في المغازي ، رقم : ٣٩٥٣ .

وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿١﴾ . ثم قال عليه الصلاة والسلام يُحَرِّضُ الْجَيْشَ : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ومن قتل قتيلاً فله سَلْبُهُ » فقال عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ (٢) وبيده تمرات يأكلها بخ بخ (٣) ! ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، وقاتل حتى قُتِلَ .

واشتد القتال (٤) ، وحمي الوطيس ، وأيد الله المسلمين بالملائكة بُشْرَى لَهُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُهُمْ (٥) . فلم تكن إلا ساعة حتى هُزِمَ الْجَمْعُ ، وولّوا الدبر ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، فقتل من المشركين نحو السبعين ، منهم : من قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، قُتِلُوا مبارزة أول القتال ، وأبو البختری بن هشام ، والجراح والد أبي عبيدة (٦) قتله ابنه بعد أن ابتعد عنه فلم يزدجر ، وقُتِلَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ وابنه علي ، اشترك في قتلها جماعة من الأنصار مع بلال بن رباح وعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ ، وقد سعيا في ذلك لما كان يفعله بهما أُمَيَّةُ فِي مَكَّةَ . ومن القتلَى حنظلة بن أبي سفيان ، وأبو جهل بن هشام ، أثخنة فتيان صغيران من الأنصار ، لما كان يسمعانه من أنه كان شديد الإيذاء لرسول الله ، وأجهز عليه عبد الله بن مسعود ، وقُتِلَ نَوْفَلُ بْنُ خُوَيْلِدٍ قتله علي بن أبي طالب ، وقتل عبيدة

(١) سورة القمر الآية : ٤٥ .

(٢) هو عمير بن الحمام بن الجموح الأنصاري السلمي كان أول من قتل في سبيل الله يوم بدر .

(٣) بخ بخ : كلمة تُقال في موضع الإعجاب .

(٤) قال ابن اسحاق : ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصاء ثم قال : شاهت الوجوه ، ثم نفحهم بها .

(٥) وذلك قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ بِرَبِّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ، وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ الآيات : ١٢٤ - ١٢٦ .

(٦) هو عامر بن الجراح مشهور بكنيته أبو عبيدة وبالنسبة الى جده ومنهم من لم يذكر بين عامر والجراح عبد الله وبذلك جزم مصعب الزبيري في (نسب قريش) . والأكثر على اثباته .

والعاص والد أبي أحيحة سعيد بن العاص بن أمية ، وقُتل كثيرون غيرهم ، أما الأسرى فكانوا سبعين أيضاً ، قتل منهم عليه الصلاة والسلام وهو راجع عقبة بن أبي مُعيط ، والنضر بن الحارث اللذين كانا بمكة من أشد المستهزئين . وكانت هذه الواقعة في ١٧ رمضان ، وهو اليوم الذي ابتدأ فيه نزول القرآن وبين التاريخين ١٤ سنة قمرية كاملة .

وقد أمر عليه الصلاة والسلام بالقتلى فَنُقلوا من مصارعهم التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بها قبل حصول الواقعة الى قليب بدر ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان من سُننه في مغازيه إذا مرَّ بجيفة إنسان أمر بها فدفنت لا يسأل عنه مؤمناً أو كافراً . ولما ألقى عتبة والد أبي حذيفة أحد السابقين إلى الإسلام تغير وجه ابنه ففطن الرسول عليه الصلاة والسلام لذلك ، فقال : لعلك دخلك من شأن أبيك شيء ! فقال : لا والله ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه الله للإسلام ، فلما رأيت ما مات عليه أحزني ذلك ، فدعا له الرسول عليه الصلاة والسلام بخير ، ثم أمر عليه الصلاة والسلام براحلته فشُدَّ عليها حتى قام على شَفَةِ القليب الذي رمي فيه المشركون ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان ، أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله ، فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً . فقال عمر ؛ يا رسول الله ما تُكَلِّمُ من أجساد لا أرواح فيها ! فقال : والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ^(١) ، وتقول عائشة رضي الله عنها : إنما قال إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق ، ثم قرأت : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ ^(٢) ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ ^(٣) ، تقول يعلمون ذلك حينما تبوأوا مقاعدهم من النار (رواه

(١) قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله .

(٢) سورة الروم الآية : ٥٢ .

(٣) سورة فاطر الآية : ٢٢ .

البخاري) (١) ثم أرسل عليه الصلاة والسلام المبشرين ، فأرسل عبد الله بن أبي رواحة لأهل العالية (٢) ، وأرسل زيد بن حارثة لأهل السافلة راجباً على ناقة رسول الله ، وكان المنافقون والكفار من اليهود قد أرجفوا بالرسول ﷺ والمسلمين ، عادة الأعداء في إذاعة الضراء ، يقصدون بذلك فتنة المسلمين ، فجاء أولئك المبشرون بما سرّ أهل المدينة ، وكان ذلك وقت انصرافهم من دفن رقية بنت رسول الله وزوج عثمان . ثم قفل رسول الله راجعاً ، وهنا وقع خُلف بين بعض المسلمين في قسمة الغنائم ، فالشبان يقولون : باشرنا القتال ، فهي لنا خالصة ، والشيخ يقولون : كنا رداءً لكم فنشارككم . ولما كان هذا الاختلاف مما يدعو الى الضعف ، ويزرع في القلوب العداوة والبغضاء المؤديين إلى تشتت الشمل أنزل الله حسماً لهذا الخلاف أول سورة الأنفال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) فسطع على أفئدتهم نور القرآن ، فتألفت بعد أن كادت تفترق ، وتركوا أمر الغنائم لرسول الله يضعها كيف شاء - كما حكم القرآن - فقسمها عليه الصلاة والسلام على اللواء الراجل مع الراجل ، والفارس مع الفارس ، وأدخل في الأسهم بعض مَنْ لم يحضر لأمر كُلف به وهم : أبو لبابة الأنصاري لأنه كان مخلفاً على أهل المدينة ، والحارث بن حاطب لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خلفه على بني عمرو بن عوف ليحقق أمراً بلغه ، والحارث بن الصِّمَّة وخَوَات بن جبير لأنهما كُسِرا بالروحاء فلم يتمكنوا من السير ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد لأنهما أرسلا يتجسسان الأخبار ، فلم يرجعا إلا بعد انتهاء الحرب ، وعثمان بن عفان لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خلفه على ابنته رقية يمرضها ، وعاصم بن عدي لأنه خلفه على أهل قُباء والعالية ، وكذلك أسهم لمن قتل بيدروهم أربعة

(١) في كتاب المغازي، رقم: ٣٩٧٦.

(٢) قرى بظاهر المدينة وهو العوالي . المؤلف.

(٣) سورة الأنفال الآية : ١ .

عشر^(١) منهم عُبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف الذي جُرح في
المبارزة الأولى ، فإنه رضي الله عنه مات عند رجوع المسلمين من بدر
ودفن بالصَّفراء^(٢) . ولما قارب عليه الصلاة والسلام المدينة تلقته الولائد
بالدفوف يقلن :

طلع البدر علينا من ثنّيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المُطاع

أسرى بدر

ولما دخلوا المدينة استشار عليه الصلاة والسلام أصحابه فيما يفعل
بالأسرى ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله قد كَذَّبوك وقَاتَلوك
وأخرجوك فأرى أن تمكّنني من فلان - لقريب له - فأضرب عنقه ، وتمكن
حمزة من أخيه العباس ، وعلياً من أخيه عقيل . وهكذا حتى يعلم الناس أنه
ليس في قلوبنا مودةٌ للمشركين ، ما أرى أن تكون لك أسرى ، فاضرب
أعناقهم ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم^(٣) . ووافقه على ذلك سعد بن
معاذ وعبد الله بن رواحة ، وقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء أهلك وقومك
قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم ، أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم
فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن الله يهديهم بك
فيكونوا لك عضداً . فقال عليه الصلاة والسلام : إن الله ليلين قلوب أقوام
حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشدّ من
الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي

(١) ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار : منهم ستة من الأوس واثان من الخزرج .

(٢) وإد بين مكة والمدينة .

(٣) وهذا الرأي مما وافق به عمر رضي الله عنه ربه .

وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ وَإِنْ مَثَلَكْ يَا عَمْرُ مِثْلَ نُوحٍ ! قَالَ : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا ﴾ ﴿٢﴾ ورأى عليه الصلاة والسلام رأي أبي بكر بعد أن مدح كلاً من الصاحبين لأن الوجهة واحدة وهي إعزاز الدين ، وخذلان المشركين ثم قال لأصحابه : أنتم اليوم عالة ﴿٣﴾ فلا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء ، وقد بلغ قریشاً ما عزم عليه الرسول في أمر الأسرى ، فناحت على القتلى شهراً ثم أشير عليهم من كبارهم ألا يفعلوا كيلا يبلغ محمداً وأصحابه جزعهم فيشمتوا بهم ، فسكتوا وصمّموا على ألا يبكوا قتلاهم حتى يأخذوا بثأرهم ، وتواصوا فيما بينهم ألا يعجلوا في طلب الفداء لئلا يتغالي المسلمون فيه .

الفداء

فلم يلتفت إلى ذلك المطلب بن أبي وداعة السهمي ، وكان أبوه من الأسرى ، فخرج خفية حتى أتى المدينة وفدى أباه بأربعة آلاف درهم ، وعند ذلك بعث قریش في فداء أسراها ، وكان أربعة آلاف درهم ، ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المدينة يُعلّمهم ، وكان ذلك فداءه .

(ومن) الأسرى عمرو بن أبي سفيان ، ولما طلب من أبيه فداؤه أبى ، وقال : والله لا يجمع محمد بين ابني ومالي دعوه يمسكوه في أيديهم ما بدا لهم . فبينما أبو سفيان بمكة إذ وجد سعد بن النعمان الأنصاري معتمراً ، فعدا عليه فحبسه بابه عمرو ، فمضى قوم سعد إلى رسول الله وأخبروه فأعطاهم عمراً ففكّوا به سعداً .

(ومن) الأسرى أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ، وكان

(١) سورة إبراهيم الآية : ٣٦ .

(٢) سورة نوح الآية : ٢٦ . رواه الإمام أحمد في مسنده ٣٨٣/١ .

(٣) عالة : فقراء .

عليه الصلاة والسلام قد أثنى عليه خيراً في مصاهرته ، فإنه لما استحكمت العداوة بين قريش ورسول الله بمكة طلبوا من أبي العاص أن يطلق زينب كما فعل ابن أبي لهب بابنتي الرسول ، فامتنع وقال : والله لا أفارق صاحبتني ، وما أحب أن لي بها امرأة من قريش ، ولما أسر أرسلت زينب في فدائه فلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ليلة عرسها . فلما رأى عليه الصلاة والسلام تلك الفلادة رَقَّ لها رقّة شديدة ، وقال لأصحابه : إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردّوها فلادتها فافعلوا ، فرضي الأصحاب بذلك ، فأطلقه عليه الصلاة والسلام بشرط أن يترك زينب تهاجر إلى المدينة . فلما وصل إلى مكة أمرها باللاحق بأبيها ، وكان الرسول أرسل لها من يأتي بها فاحتملوها . (هذا) ولما أسلم أبو العاص بن الربيع قبيل الفتح ردّ عليه امرأته بالنكاح الأول .

(ومن) الأسرى سهيل بن عمرو^(١) وكان من خطباء قريش وفصحائها وطالما آذى المسلمين بلسانه ، فقال عمر بن الخطاب : دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْزِعْ ثِنْتِي سُهَيْلَ ، يدلع^(٢) لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لَا أُمَثِّلُ فِيمَثَّلَ اللَّهُ بِي وَإِنْ كُنْتُ نَبِيًّا ، وَعَسَى أَنْ يَقُومَ مَقَامًا لَا تَذْمُهُ » وقدم بفدائه مكرز بن حفص ، ولما ارتضى معهم على مقدار حبس نفسه بدله حتى جاء بالفداء . هذا وقد حقق الله خبر الرسول في سهيل ، فإنه لما مات عليه الصلاة والسلام أراد أهل مكة الارتداد كما فعل غيرهم من الأعراب ، فقام سهيل هذا خطيباً وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله : أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنْ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَالَ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾^(٣) وقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

(١) القرشي العامري ، خطيب قريش . وهو الذي تولى أمر صلح الحديبية ، مات في الشام بطاعون

عمواس ، سنة ١٨ هـ .

(٢) أي يخرج .

(٣) سورة الزمر الآية : ٣٠ .

خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِنَّ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴿١﴾ ثم قال :
والله إني أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها فلا يغرّنكم
هذا (يريد أبا سفيان) من أنفسكم ، فانه يعلم من هذا الأمر ما أعلم لكنه
قد ختم على صدره حسد بني هاشم ، وتوكلوا على ربكم ، فإن دين الله
قائم ، وكلمته تامة ، وإن الله ناصر من نصره ومقوِّد دينه ، وقد جمعكم الله
على خيركم (يريد أبا بكر) وإن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رأيناه
ارتدّ ضربنا عنقه (٢) ، فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه ، وكان هذا الخبر
من معجزات نبينا ﷺ .

(ومن) الأسرى الوليد بن الوليد (٣) افتكّه أخواه خالد وهشام ، فلما
افتديّ ورجع إلى مكة أسلم ف قيل له هلاًّ أسلمت قبل الفداء ؟ فقال خفت
أن يعدّوا إسلامي خوفاً . ولما أراد الهجرة منعه أخواه ففرّ إلى النبي في
عمرة القضاء .

(ومن) الأسرى السائب بن يزيد وكان صاحب الراية في تلك الحرب
فدى نفسه وهو الجد الخامس للإمام محمد بن إدريس الشافعي .

(ومنهم) وهب بن عُمير الجُمحي كان أبوه عمير شيطاناً من شياطين
قريش كثير الإيذاء لرسول الله ، جلس يوماً بعد انتهاء هذه الحرب مع
صفوان ابن أمية يتذاكران مُصاب بدر ، فقال عمير : والله لولا دَيْنُ عليّ ليس
عندي قضاؤه وعيال أخشى عليهم الفقر بعدي ، كنت آتي محمداً فأقتله ،
فإن ابني أسير في أيديهم ، فقال صفوان : دَيْنُكَ عليّ وعيالك مع عيالي ،
فأخذ عُمير سيفه وشحذه وسَمَّهُ ، وانطلق حتى قَدِمَ المدينة ، فبينما عمر مع
نفر من المسلمين إذ نظر إلى عمير متوشحاً سيفه ، فقال : هذا الكلب عدو
الله ما جاء إلا بشرّاً ؛ ثم قال للنبي عليه الصلاة والسلام : هذا عدو الله

(١) سورة ال عمران الآية : ١٤٤ .

(٢) خطبة سهيل بن عمرو موجودة في السيرة الحلبية ١٩٦/٢ .

(٣) وهو أخو خالد بن الوليد .

عمير قد جاء متوشحاً سيفه ، فقال : أدخله عليّ . فأخذ عمر بحمائل^(١) سيفه وأدخله . فلما رآه عليه الصلاة والسلام قال : أطلقه يا عمر ، أدن يا عمير فدنا ، وقال : أنعموا صباحاً^(٢) ، فقال عليه الصلاة والسلام : قد أبدلنا الله تحية خيراً من تحيتك وهي : السلام ، ثم قال : ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه ، فقال : فما بال سيف ؟ قال قَبَحَها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئاً ، قال عليه الصلاة والسلام : اصدُقني ما الذي جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك . قال عليه الصلاة والسلام : كلا بل قعدت أنت وصفوان في الحجر وقتلتما كيت وكيت فأسلم عُمير وقال : كنّا نكذبك بما تأتي به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان !! فقال عليه الصلاة والسلام : فقهوا أخاكم في دينه وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا أسيره ، فعاد عمير إلى مكة وأظهر إسلامه .

(ومن) الأسرى أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير مرّ به أخوه فقال للذي أسره : شُدَّ يدك به ، فإن أمه ذات متاع لعلّها تفديه منك . فقال له : يا أخي هذه وصايتك بي ! ثم بعثت أمه بفدائه أربعة آلاف درهم .

(ومن) الأسرى العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ ، كان قد خرج لهذه الحرب مُكرهاً ، ولما وقع في الأسر طُلب منه فداء نفسه وابن أخيه عقيل بن أبي طالب ، فقال : علامَ ندفع وقد استكرهنا على الخروج ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لقد كنت في الظاهر علينا ، فأخذت منه فدية نفسه وابن أخيه ، ثم قال للرسول : لقد تركتني فقير قريش ما بقيت ، قال : كيف وقد تركت لأم الفضل أموالاً ؟ وقلت لها : إن متّ فقد تركتك غنية ! فقال العباس : والله ما أطلع على ذلك أحد . وهذا العمل غاية ما يفعل من العدل والمساواة فإنه عليه الصلاة والسلام لم يُعَفِّ عمّه مع علمه

(١) جمالة السيف : علاقته .

(٢) وكانت تحية أهل الجاهلية .

بأنه إنما خرج مُكرهاً ، وقد أعفى غيره جماعة تحقق له فقرهم فهكذا العدل ، ولا غرابة فذلك أدب قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ (١) .

(ومن) الأسرى أبو عَزَّةَ الجُمحي الشاعر (٢) ، كان شديد الإيذاء لرسول الله بمكة فلما أُسر قال : يا محمد اني فقير ، وذو عيال ، وذو حاجة قد عرفتُها فامْننْ ، فمَنْ عليه فضلاً منه .

العتاب في الفداء

ولما تَمَّ الفداء أنزل الله في شأنه : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) . نهى سبحانه عن اتخاذ الأسرى قبل الإثخان في قتل الذين يصدّون عن سبيل الله ويمنعون دين الله من الإنتشار ، وعاب بعض المسلمين على إرادة عَرَصِ الدنيا وهو الفدية ، ولولا حكم سابق من الله ألا يُعاقَب مجتهداً على اجتهاده ما دام المقصد خيراً لكان العذاب ، ثم أباح لهم الأكل من تلك الفدية المبني أخذها على النظر الصحيح . وهذا من أقوى الأدلة على صدق نبينا عليه الصلاة والسلام فيما جاء به ، لأنه لو كان من عنده ما كان يعاتب نفسه على عمل عمله بناءً على رأي كثير من الصحابة . وقد وعد الله الأسرى الذين يعلم في قلوبهم خيراً بأن يؤتيهم خيراً مما أخذ منهم ويغفر لهم فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ . وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤) .

(١) سورة النساء الآية : ١٣٥ .

(٢) ثم أُسر ، وقتل صبراً .

(٣) سورة الأنفال الآية : ٦٧ - ٦٨ .

(٤) سورة الأنفال الآية : ٧٠ .

وهذه الغزوة هي التي أعزَّ الله بها الإسلام وقوَّى أهله ، ودمغ فيه الشرك ، وخرَّب محله ، مع قلة المسلمين وكثرة عدوهم ، فهي آية ظاهرة على عناية الله تعالى بالإسلام وأهله مع ما كان عليه العدو من القوة بسوابغ الحديد والعدَّة الكاملة ، والخييل المسومة ، والخيلاء الزائدة ، ولذلك قال الله ممتناً على عباده بهذا النصر : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمُ أَذِلَّةٌ ﴾ (١) أي قليل عددكم لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله فهي أعظم غزوات الإسلام إذ بها كان ظهوره ، وبعد وقوعها أشرق على الآفاق نوره ، فقد قتل فيها من صناديد قريش من كانوا الأعداء للأدء للإسلام ، ودخل الرعب في قلوب العرب الآخرين ، فكانت للمسلمين هبة بها يكسرون الجيوش ، ويهزمون الرجال ، فلا جرم أن شكرنا العليَّ الأعلى على هذه العناية ، واتخذنا يوم النصر في بدر وهو السابع عشر من شهر رمضان عيداً نتذكر فيه نعمة الله على رسوله وعلى المسلمين .

غزوة بني قينقاع (٢)

هذا ، وإذا كان للشخص عدوٌّ فانتصر على أحدهما حرَّك ذلك شجوا (٣) الآخر ، وهاج فؤاده ، فتبدو بغضاؤه غير مكترث بعاقبة عدائه ، وهذا ما حصل من يهود بني قينقاع عند تمام الظفر في بدر ، فإنهم نبذوا ما عاهدوا المسلمين عليه ، وأظهروا مكنون ضمائرهم ، فبدت البغضاء من أفواههم ، وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الأنصار ، وهذا ما يدعو المسلمين للتحرّز منهم وعدم ائتمانهم في المستقبل إذا شُبَّت الحرب في المدينة بين المسلمين وغيرهم فأنزل الله في سورة الأنفال : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ (٤)

(١) سورة آل عمران الآية : ١٢٣ .

(٢) بنو قينقاع : بطن من يهود المدينة .

(٣) أي أوقعه في الحزن .

(٤) أي فاطرح لهم العهد على طريق مستو .

إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿١﴾ فدعا عليه الصلاة والسلام رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغي ونكث العهد ، فقالوا : يا محمد لا يغررك ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب ولو لقيتنا لتعلمن أننا نحن الناس ، وكانوا أشجع يهود فأنزل الله في سورة آل عمران : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِنْثِيهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (٢) وعند ذلك تبرأ من حلفهم عباد بن الصامت أحد رؤساء الخزرج وتشبث بالحلف عبد الله بن أبي ، وقال : إني رجل أخشى الدوائر ، فأنزل الله تعليماً للمسلمين في سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فِضْصِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ (٣) . وعندما تظاهر يهود قينقاع بالعداوة وتحصنوا بحصونهم ، سار اليهم عليه الصلاة والسلام في نصف شوال من هذه السنة يحمل لواء عمه حمزة ، وخلف على المدينة أبا لبابة الأنصاري (٤) ، فحاصرهم خمس عشرة ليلة .

جلاء بني قينقاع

ولما رأوا من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين وأدركهم الرعب سألوا رسول الله أن يخلي سبيلهم ، فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية ، وللمسلمين الأموال فقبل ذلك عليه الصلاة والسلام ، ووكل

(١) سورة الأنفال الآية : ٥٨ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٢ - ١٣ .

(٣) سورة المائدة الآية : ٥١ - ٥٢ .

(٤) هو بشير بن عبد المنذر ، أحد النقباء .

بجلاتهم عبادة بن الصامت^(١) وأمهاتهم ثلاث ليالٍ ، فذهبوا إلى أذرعات^(٢) ، ولم يحل عليهم الحَوْل حتى هلكوا ، وخمّس عليه الصلاة والسلام أموالهم ، وأعطى سهم ذوي القربى لبني هاشم ولبني المطلب دون بني أخويهما عبد شمس ونوفل ، ولما سُئِلَ عن ذلك قال : إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد في الجاهلية والإسلام هكذا وشبّك بين أصابعه .

غزوة السويق

كان أبو سفيان متهيجاً لأنه لم يشهد بدرًا التي قتل فيها ابنه وذوو قريبه ، فحلف ألاّ يمَسّ رأسه الماء حتى يغزو محمداً ، وليبرّ بقسمه خرج بمائتين من أصحابه يريد المدينة ، ولما قاربها أراد أن يقابل اليهود من بني النضير ليهيجهم ويستعين بهم على حرب المسلمين ، فأتى سيدهم حُيَ بن أخطب فلم يرضَ مقابلته ، فأتى سَلَام بن مِشْكَم فأذن له واجتمع به ، ثم خرج من عنده ، وأرسل رجالاً من قریش إلى المدينة فحرقوا في بعض نخلها ، ووجدوا أنصارياً فقتلوه ، ولما علم بذلك رسول الله خرج في أثرهم في مائتين من أصحابه لخمس خلّون من ذي الحجة بعد أن ولّى على المدينة بَشِير بن عبد المنذر ، ولكن لم يلحقهم لأنهم هربوا وجعلوا يخفّفون ما يحملونه ليكونوا أقدر على الإسراع ، فألقوا ما معهم من جُرْبِ السَّوِيق^(٣) فأخذه المسلمون ، ولذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السَّوِيق .

صلاة العيد

وفي هذا العام سنّ الله للعالم الإسلامي سنّة عظيمة ، بها يتمكن أبناء البلد الواحد من المسلمين أن يجدّدوا عهد الإخاء ، ويقوّوا عُروة الدين

(١) ابن قيس الأنصاري ، كان أحد النقباء .

(٢) أذرعات : بلد بالشام . المؤلف .

(٣) وهو قمح أو شعير يُقلى ثم يطحن .

الوثقى ، وهي الإجتماع في يومي عيد الفطر وعيد الأضحى . وكان عليه الصلاة والسلام يجمع المسلمين في صعيد واحد ، ويصلي بهم ركعتين تضرعاً إلى الله أن لا يَقْصِمَ عرْوَتَهُمْ ، وأن ينصرهم على عدوهم ، ثم يخطبهم حاضاً لهم على الإئتلاف ، ومذكراً لهم ما يجب عليهم لأنفسهم ، ثم يصافح المسلمون بعضهم بعضاً ، وبعد ذلك يخرجون لأداء الصدقات للفقراء والمساكين^(١) حتى يكون السرور عاماً لجميع المسلمين ، فبعد الفطر زكاته ، وبعد الأضحى توضيحته ، نسأله تعالى أن يؤلف بين قلوبنا ، ويوفّقنا لأعمال سلفنا .

زواج علي بفاطمة عليهما السلام

وفي هذه السنة تزوج علي بن أبي طالب وعمره إحدى وعشرون سنة بفاطمة بنت رسول الله ، وسنّها خمس عشرة سنة ، وكان منها عقب رسول الله بنوه : الحسن والحسين وزينب^(٢) وفيها دخل عليه الصلاة والسلام بعائشة بنت أبي بكر وسنّها اذ ذاك تسع سنوات .

(١) السنة أداء الصدقة (صدقة الفطر) قبل صلاة العيد .

(٢) وأم كلثوم .

السنة الثالثة

يا لله ! يُقضى على الشقي بالشقاوة حتى لا يسمع ولا يبصر ، فيتخذ الغدر رداءً ، والخيانة شعاراً ، فلا ينجح معه إلا إراحة العالم من شره ، هذا كعب بن الأشرف اليهودي عظيم بني النضير ، أعمته عداوة المسلمين حتى خلع بُرْقُع الحياء ، وصار يحرضُ قريشاً على حرب رسول الله ، ويهجوهم بالشعر ، ويجتهد في إثارة الشحناء بين المسلمين ، فكلما جبر عليه الصلاة والسلام كسراً هاضه^(١) هذا الشقي بما ينفثه من سموم لسانه .

قتل كعب بن الأشرف^(٢)

ولما انتصر المسلمون ببدر ، ورأى الأسرى مقرنين في الحبال خرج إلى قريش يبكي قتلاهم ويحرضهم على حرب المسلمين ، فقال عليه الصلاة والسلام : من لكعب بن الأشرف^(٣) ، فإنه قد آذى الله ورسوله ؟ فقال محمد بن مسلمة^(٤) الأنصاري الأوسي : أتجِبُّ أن أقتله ؟ قال : نعم ،

(١) أي أعاد كسره .

(٢) هي سرية محمد بن مسلمة .

(٣) أي من ينتدب لقتله .

(٤) أبو عبد الرحمن ، كان من فضلاء الصحابة ، وهو ممن سمي محمداً في الجاهلية .

قال : أنا لك به ، وأذن لي أقول شيئاً أتمكن به ، فأذن له ، ثم خرج ومعه أربعة من قومه حتى أتى كعباً فقال له : إن هذا الرجل (يريد رسول الله) قد سألنا صدقة وإنه قد عَنَّا^(١) وإني قد أتيتك أستسلفك^(٢) ، قال : وأيضاً والله لَتَمْلَنَّهُ^(٣) ، قال : إنا قد اتبعناه ، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تُسَلِّفنا وسقاً أو وسقين^(٤) . قال : نعم ولكن ارهنوني . قالوا : أي شيء تريد ؟ قال : ارهنوني نساءكم ، قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ قال : فارهنوني أبناءكم . قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم ، فيقال : رهن بوسق أو وسقين ، هذا عار علينا ، ولكن نرهنك اللأمة (يعني السلاح) فرضي ، فواعده ليلاً أن يأتيه فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة^(٥) أخو كعب من الرضاع وعبد بن بشر ، والحرث بن أوس ، وأبو عيس بن جبر (وكلهم أوسيون) فناداه محمد بن مسلمة فأراد أن ينزل فقالت له امرأته : أين تخرج الساعة ! وإنك امرؤ محارب ؟ فقال : إنما هو ابن أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة ، إن الكريم لو دُعي إلى طعنة لبلى لأجاب . ثم قال محمد لمن معه : إذا جاءني فإني آخذ بشعره فأشُمُّه ، فإذا رأيتُموني استمكنت من رأسه فاضربوه ، فنزل إليهم كعب متوشحاً سيفه ، وهو ينفخ منه ريح المسك ، فقال محمد : ما رأيت كاليوم ريحاً أطيب ، أتأذن لي أن أشمَّ رأسك ؟ قال : نعم فشُمِّه ، فلما استمكن منه قال : دونكم فاقتلوه ففعلوا^(٦) ، وأراح الله المسلمين من شر أعماله التي كان يقصدها بهم ثم أتوا النبي فأخبروه ، وكان قتل هذا الشقي في ربيع الأول من هذا العام ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا رأى من رئيس غدرًا ومقاصد سوء ومحبة لإثارة الحرب أرسل له

(١) اتبعنا .

(٢) أستسلفك : استقرضك .

(٣) لتضجر منه .

(٤) الوسق : ستون صاعاً .

(٥) اسمه سلكان بن سلامة ، وهو مشهور بكنته .

(٦) رواه مسلم في الجهاد والسير ، رقم : ١٨٠١ .

من يُريحه من شرّه . وقد فعل كذلك مع أبي عَفْكَ اليهودي وكان مثل كعب في الشر .

غزوة غطفان^(١)

بلغ رسول الله أن بني ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برياسة رئيس منهم اسمه دُعُثُور يريدون الغارة على المدينة ، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يَغْلُ أَيْدِيَهُمْ كيلا يتمكنوا من هذا الإعتداء ، فخرج إليهم من المدينة في أربعمائه وخمسين رجلاً لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ، وخلف على المدينة عثمان بن عفان . ولما سمعوا بسير رسول الله هربوا إلى رؤوس الجبال ، ولم يَزَلْ المسلمون سائرين حتى وصلوا ماء يسمى ذا أَمَرٍّ ، فعسكروا به ، وحدث أنه عليه الصلاة والسلام نزع ثوبه يجفّفه من مطر بلّله وارتاح تحت شجرة والمسلمون متفرقون ، فأبصره دُعُثُور فأقبل إليه بسيفه حتى وقف على رأسه وقال : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي يا محمد ؟ فقال : الله . فأدركت الرجل هيبةً ورعباً أسقطا السيف من يده ، فتناولوه عليه الصلاة والسلام وقال لدعُثُور : من يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قال لا أحد . فعفا عنه فأسلم الرجل ودعا قومه للإسلام ، وحَوَّلَ الله قلبه من عداوة رسول الله ، وَجَمَعَ الناس لحربه إلى محبته وجمع الناس له : ﴿ ذَلِكْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾^(٢) وهذا ما ينتجه حسن المعاملة ، والبعد عن الفظاظَة وغلظ القلب : ﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾^(٣) .

(١) وتسمى أيضاً غزوة ذي أَمَرٍّ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٥٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٥٩ .

غزوة بخران^(١)

بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من بني سليم يريدون الغارة على المدينة ، فسار إليهم في ثلاثمائة من أصحابه لست خَلَوْنَ من جمادى الأولى ، وخلف على المدينة ابن أم مكتوم ولما وصل بُحْران^(٢) تفرقوا ولم يلق كيداً فرجع .

سرية^(٣)

لما تيقنت قريش أن طريق الشام من جهة المدينة أغلق في وجه تجارتهم ، ولا يمكنهم الصبر عنها لأن بها حياتهم ، أرسلوا عيراً إلى الشام من طريق العزاق ، وكان فيها جمع من قريش منهم أبو سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وحويطب بن عبد العزى ، فجاءت أخبارهم لرسول الله فأرسل لهم زيد بن حارثة في مائة راكب يترقبونهم ، وكان ذلك في جمادى الآخرة فسارت السرية حتى لقيت العير على ماء اسمه (القردة) بناحية نجد فأخذت العير وما فيها وهرب الرجال ، وقد خمَس الرسول عليه الصلاة والسلام هذه حينما وصلت له .

غزوة أحد^(٤)

ولما أصاب قريشاً ما أصابها ببدر ، وأغلقت في وجوههم طرق التجارة ، اجتمع من بقي من أشrafهم إلى أبي سفيان رئيس العير التي جلبت عليهم المصائب ، وكانت موقوفة بدار الندوة ، ولم تكن سُلمت

(١) وتسمى غزوة بني سليم .

(٢) موضع بناحية القُرْع ، وهذا موضع من أضخم أعراض المدينة . المؤلف . وبحران : بضم الباء وفتحها ، والضم أشهر .

(٣) وتسمى سرية زيد بن حارثة الى القردة .

(٤) وهو جبل مشهور بالمدينة على أقل من فرسخ منها ، يقال له : ذو عينين ، وهو الذي قال فيه =

لأصحابها بعد ، فقالوا : إن محمداً قد وتَرنا^(١) ، وقتل خيارنا ، وإننا رضينا أن نترك ربح أموالنا فيها استعداداً لحرب محمد وأصحابه ، وقد رضي بذلك كلُّ مَنْ له فيها نصيب ، وكان ربحها نحواً من خمسين ألف دينار ، فجمعوا لذلك الرجال ، فاجتمع من قريش ثلاثة آلاف رجل ومعهم الأحابيش (وهم حلفاؤهم من بني المصْطَلِق وبني الهون بن خزيمة) ومعهم أبو عامر الراهب الأوسي ، وكان قد فارق المدينة كراهية لرسول الله ﷺ ومعهم عدد ممن هم على شاكلته ، وخرج معهم جماعات من أعراب كِنانة وتهامة ، وقال صفوان بن أمية لأبي عَزَّة الشاعر - الذي لا ينسى القارىء أن الرسول مَنْ عليه بيدر وأطلقه من غير فداء - : إنك رجل شاعر فأعِنَّا بلسانك ، فقال : إني عاهدت محمداً ألا أعين عليه ، وأخاف إن وقعتُ في يده مرة ثانية ألا أنجو ، فلم يزل به صفوان حتى أطاعه ، وذهب يستنفر الناس لحرب المسلمين ، ودعا جُبَيْر بن مُطْعَم غلاماً حبشياً له ، اسمه وَحْشي ، وكان رامياً قلماً يُخطيء . فقال له : اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة بعَمِّي طُعَيْمة فأنت حر . ثم خرج الجيش ، ومعهم القِيَان والدفوف والمعازف والخمور ، واصطحب الأشرافُ منهم نساءهم كيلا ينهزموا ، ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا مقابل المدينة بذي الحُلَيْفة .

أما رسول الله عليه الصلاة والسلام فكان قد بلغه الخبر من كتاب بعث به إليه عمه العباس بن عبد المطلب الذي لم يخرج مع المشركين في هذه الحرب محتجاً بما أصابه يوم بدر . ولما وصلت الأخبار باقتراب المشركين ، جمع عليه الصلاة والسلام أصحابه وأخبرهم الخبر . وقال : إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن هم أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم ، فكان مع رأيه شيوخ المهاجرين والأنصار ، ورأى ذلك أيضاً عبد الله بن أبي ، أما الأحداث وخصوصاً مَنْ لم يشهد بدرأ منهم فأشاروا

= عليه الصلاة والسلام : أخذ جبل يحبنا ونحبه . وكانت عنده الوقعة المشهورة في شوال سنة ثلاث بالإتفاق وسمي بذلك : لتوحده وانفراده عن جبال آخر هناك .

(١) الموتور : الذي قتل له قتيل فلم يدرك دمه .

عليه بالخروج ، وكان مع رأيهم حمزة بن عبد المطلب ، وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم ، لأنهم الأكثرون عدداً والأقوون جلدًا ، فصلى الجمعة بالناس في يومها لعشر خَلَوْنَ من شوال ، وحَضُّهُمْ في خطبتها على الثبات والصبر وقال لهم : « لكم النصر ما صبرتم » ثم دخل حجرته ولبس عَدَّتَهُ فظاهر بين درعين^(١) ، وتقلد السيف ، وألقى الترس وراء ظهره . ولما رأى ذؤوب الرأي من الأنصار أن الأحداث استكروها الرسول على الخروج لاموهم ، وقالوا : ردّوا الأمر لرسول الله ، فما أمر ائتمرنا ، فلما خرج عليه الصلاة والسلام ، قالوا : يا رسول الله نَتَّبِعْ رأيك ، فقال : ما كان لنبي لَيْسَ سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . ثم عقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير ، ولواء الخزرج للّجباب بن المنذر ، ولواء الأوس لأسيد بن الحضير ، وخرج من المدينة بألف رجل . فلما وصلوا رأس الثنية نظر عليه الصلاة والسلام الى كتيبة كبيرة ، فسأل عنها . فقيل : هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبيّ من اليهود ، فقال : إنّنا لا نستعين بكافر على مشرك ، وأمر بردّهم لأنه لا يأمن جانبهم من حيث لهم اليد الطُولى في الخيانة . ثم استعرض الجيش فردّ من استصغر^(٢) ، وكان فيمن ردّ : رافع بن خديج ، وسُمُرة بن جُنْدَب ثم أجاز رافعاً لما قيل له انه رام ، فبكى سُمُرة ، وقال لزوج أمه : جاز رسول الله رافعاً وردّني مع أني أصرعه ، فبلغ رسول الله الخبر ، فأمرهما بالمصارعة فكان الغالب سُمُرة فأجازه . ثم بات عليه الصلاة والسلام محله ليلة السبت ، واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة ، وعلى حرسه الخاص ذكوان بن عبد قيس . وفي السحر سار الجيش حتى إذا كان بالشوط (وهو بستان بين أحد والمدينة) رجع عبد الله بن أبيّ بثلاثمائة من أصحابه وقال : عصاني وأطاع الولدان فعلاًمَ نقتل أنفسنا ؟ فتبعهم عبد الله بن عمرو والد جابر ، وقال يا

(١) أي لبس درعاً فوق درع ، وهما ذات الفضول ، وذات الفضول أرسلها له سعد بن عبادة رضي الله عنه حين سار إلى بدر ، المؤلف .

(٢) ومنهم : أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب .

قوم : أَذْكُرْكُمْ اللهُ أَلَا تَخْذِلُوا قَوْمَكُمْ وَنَبِيَّكُمْ : ﴿ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ فِتْيَالًا لَا تَتَّبِعْنَاكُمْ ﴾ (١) فقال لهم : أَبْعَدُكُمْ اللهُ فسيغني الله عنكم نبيّه . ولما فعل ذلك عبد الله بن أبيّ ، هَمَّت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا : بنو حارثة من الخزرج ، وبنو سَلَمَة من الأوس ، فعصمهما الله وقد افترق المسلمون فرقتين فيما يفعلون بالمنخذلين ، فقوم يقولون : نقاتلهم ، وقوم يقولون : نتركهم ، فأنزل الله في سورة النساء : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسُهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ (٢) . ثم سار الجيش حتى نزل الشعب من أحد (٣) ، وجعل ظهره للجبل ووجهه للمدينة ، أما المشركون فنزلوا بطن الوادي من قبل أحد ، وكان على ميمنتهم (٤) خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل . وعلى المشاة صفوان بن أمية ، فجعل عليه الصلاة والسلام الزبير بن العوام بإزاء خالد وجعل آخرين أمام الباقيين ، واستحضر الرماة وكانوا خمسين رجلاً يرأسهم عبد الله بن جبير الأنصاري فوقفهم خلف الجيش على ظهر الجبل وقال : لا تبرحوا : إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تبرحوا (٥) ثم عدل عليه الصلاة والسلام الصفوف ، وخطب المسلمين ، وكان فيما قال : (ألقى في قلبي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها ، لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا ربكم وأجملوا في طلب الرزق ، لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله ، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد ، إذا اشتكى تداعى له سائر جسده) (٦) ، ثم ابتدأ القتال بالمبارزة ، فخرج رجل من صفوف المشركين فبرز له الزبير فقتله ، ثم حمل اللواء طلحة بن أبي طلحة فقتله عليّ ،

(١) سورة آل عمران الآية : ١٦٧ .

(٢) سورة النساء الآية : ٨٨ .

(٣) جبل شمالي المدينة الشرقي . المؤلف .

(٤) أي ميمنة خيل المشركين .

(٥) رواه البخاري بلفظ آخر في كتاب المغازي ، رقم : ٤٠٤٣ .

(٦) هذه الخطبة أوردها صاحب السيرة الحلبية ٢/ ٢٢٢ .

فحمل اللواء أخوه عثمان فقتله حمزة ، فحمله أخٌ لهما اسمه أبو سعيد فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم قضى عليه ، فتناوب اللواء بعده أربعة من أولاد طلحة بن أبي طلحة^(١) وكلهم يُقتلون ، وخرج من صفوف المشركين عبد الرحمن بن أبي بكر^(٢) يطلب البراز فأراد أبوه أن يبرز له ، فقال عليه الصلاة والسلام : مُتَعْنَا بِنَفْسِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، ثم حملتُ خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مراتٍ وفي كلها ينضحهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون . ولما التقت الصفوف ، وحميت الحرب ابتدأ نساء المشركين يضربن بالدفوف ، وينشدن الأشعار تهيجاً لعواطف الرجال ، وكان عليه الصلاة والسلام كلما سمع نشيد النساء يقول : « اللهم بك أحول^(٣) وبك أصول وفيك أقاتل ، حسبي الله ونعم الوكيل » . وفي هذه المعركة قُتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله سيد الشهداء ، غافله وحشي^(٤) وهو يجول في الصفوف وضربه بحربة لم تخطيء ثنايا بطنه^(٥) .

هذا ، ولما قُتل حَمَلَةُ اللواء من المشركين ، ولم يقدر أحدٌ على الدنو منه ولَّوا الأدبار ونساؤهم يكيبن ويُولولن ، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب ، فلما رأى ذلك الرماة الذين يحمون ظهور المسلمين فوق الجبل ، قالوا : ما لنا في الوقوف من حاجة ، ونسوا أمر السيد الحكيم ﷺ ، فذكَّروهم رئيسهم به فلم يلتفتوا وانطلقوا يتتهبون . أما رئيسهم فثبت وثبت معه قليل منهم ، فلما رأى خالد بن الوليد أحد رؤساء المشركين خلَّو الجبل من الرماة انطلق ببعض الجيش ، فقتل من ثبت من الرماة ، وأتى المسلمين من ورائهم وهم مشغولون بدنياهم ، فلما رأوا ذلك البلاء دهشوا وتركوا ما بأيديهم ، وانتقضت صفوفهم ، واختلطوا من غير شعار^(٦) ، حتى

(١) وهم : مسافع والحارث وكلاب والجلال .

(٢) كان من أشجع قريش وأرماهم بسهم ، وكان شاعراً ، مات في مكة سنة ٥٣ هـ .

(٣) أحول : بالحاء المهملة ، أي : أضعف .

(٤) روى البخاري في المغازي حديث قتل وحشي حمزة رضي الله عنه ، رقم : ٤٠٧٢ .

(٥) والثنية موضع تحت السرة وفوق العانة كذا في السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٦) هي ما يعرف اليوم بكلمة السر .

صار يضرب بعضهم بعضاً ، ورفعت إحدى نساء المشركين^(١) اللواء فاجتمعوا حوله ، وكان من المشركين رجل يقال له ابن قمئة قتل مُصعب بن عمير صاحب اللواء ، وأشاع أن محمداً قد قتل ، فدخل الفشل في المسلمين حتى قال بعضهم : علامَ نقاتل إذا كان محمد قد قتل ؟ فارجعوا إلى قومكم يؤمنكم ، وقال جماعة : إذا كان محمد قد قُتل فقاتلوا عن دينكم ، وكان من نتيجة هذا الفشل أن انهزم جماعة من المسلمين من بينهم الوليد بن عقبة ، وخارجة بن زيد ، ورفاعة بن المعلى ، وعثمان بن عفان ، وتوجهوا إلى المدينة ، ولكنهم استحيوا أن يدخلوها فرجعوا بعد ثلاث ، وثبت رسول الله ﷺ ومعه جماعة منهم : أبو طلحة الأنصاري استمر بين يديه يمنع عنه بحَجَفَتِهِ^(٢) ، وكان رامياً شديداً الرمي . فنشر كنانته بين يدي رسول الله ، وصار يقول : نفسي لنفسك الفداء ووجهي لوجهك الوقاء ، وكل من كان يمر ومعه كنانة يقول له عليه الصلاة والسلام : « انثرها لأبي طلحة » ، وكان ينظر إلى القوم ليرى مواضع النبل ، فيقول له أبو طلحة : يا نبي الله بأبي أنت وأمي ، لا تنظر يصيبك سهم من سهام القوم ! نحري دون نحرك .

وممن ثبت سعد بن أبي وقاص ، فكان عليه الصلاة والسلام يقول له : « ارم سعد ! فذاك أبي وأمي » . ومنهم سهل بن حنيف وكان من مشاهير الرماة نضح عن رسول الله بالنبل حتى انفرج عنه الناس . ومنهم أبو دُجَانَةَ سِمَاكُ بْنُ خَرْشَةَ الأنصاري تترس على رسول الله ، فصار النبل يقع على ظهره وهو منحني حتى كثر فيه . (وكان) يقاتل عن الرسول زياد بن السكن^(٣) حتى أصابت الجراحُ مقاتله ، فأمر به فأدني منه ووسده قدمه حتى مات . وقد أصابه عليه الصلاة والسلام شدائد عظيمة تحملها بما أعطاه الله من الثبات ، فقد أقبل أبي بن خلف يريد قتله ، فأخذ عليه الصلاة والسلام

(١) هي عمرة بنت علقمة .

(٢) الترس من الجلد .

(٣) في الأصل : زيادة بن الحارث وهو خطأ .

الحرية ممّن كانوا معه ، وقال : خلّوا طريقه ، فلمّا قَرَّب منه ضربه ضربةً كانت سبب هلاكه وهو راجع ، ولم يقتل رسول الله غيره لا في هذه الغزوة ولا في غيرها^(١) . (وكان) أبو عامر الراهب قد حفر حُفْراً وغطاها ليقع فيها المسلمون ، فوقَعَ الرسول في حفرة منها ، فأغمي عليه ، وُخِدت ركبته ، فأخذ عليّ بيده ، ورفع طلحة بن عبيد الله - وهما ممّن ثبت - حتى استوى قائماً ، فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباعيته فنبعه حاطب بن أبي بلتعة فقتله ، وشجَّ وجهه عليه الصلاة والسلام عبد الله بن شهاب الزهري ، وجرحته وجنتاه بسبب دخول حلقتي المغفر^(٢) فيهما من ضربة ضربه بها ابن قمئة غضب الله عليه ، فجاء أبو عبيدة وعالج الحلقتين حتى نزعهما ، فكسرت في ذلك ثنيته ، وقال حينئذ عليه الصلاة والسلام : كيف يفلح قوم خضّبوا وجه نبيّهم ؟ فأُنزل الله في سورة آل عمران : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾^(٣) وكان أول من عرف رسول الله بعد هذه الدهشة كعب بن مالك الأنصاري فنادى : يا معشر المسلمين أبشروا ، فأشار إليه الرسول أن اصمت . ثم سار بين سعد بن أبي وقاص وسعد بن عباد يريد الشعب ومعه جمع منهم أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير والحارث بن الصّمّة ، وأقبل عليه إذ ذاك عثمان بن عبد الله بن المغيرة يقول : أين محمد لا نجوتُ إن نجا ، فعثر به فرسه ، ووقع في حفرة فمشى إليه الحارث بن الصّمّة وقتله . ولما وصل الشّعب جاءت فاطمة فغسلت عنه الدم ، وكان علي يسكب الماء ، ثم أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ووضعتها على الجرح فاستمسك الدم . ثم أراد عليه الصلاة والسلام أن يعلو الصخرة التي في الشعب فلم يمكنه القيام لكثرة ما نزل من دمه ، فحمله طلحة بن عبيد الله حتى أصعده ، فنظر إلى

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه ، رقم ١٧٩٣ قال رسول الله ﷺ : « اشتد غضب الله على رجل

يقتله رسول الله في سبيل الله عزّ وجلّ » .

(٢) المغفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٢٨ .

جماعة من المشركين على ظهر الجبل فقال : لا ينبغي لهم أن يعلنوا ، اللهم لا قوة لنا إلا بك ، ثم أرسل اليهم عمر بن الخطاب في جماعة فأنزلوهم . (وقد) أصاب المسلمين الذين كانوا يحوطون رسول الله كثير من الجراحات لأن الشخص منهم كان يتلقى السهم خوفاً أن يصل للرسول ، فوجد بطلحة نيفاً وسبعون جراحة ، وشلت يده ، وأصاب كعب بن مالك سبع عشرة جراحة . أما القتلى فكانوا نيفاً وسبعين منهم : ستة من المهاجرين^(١) ، والباقيون من الأنصار . (ومن) المهاجرين : حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، ومن الأنصار حنظلة بن أبي عامر ، وعمر بن الجموح ، وابنه خلاد بن عمرو وأخو زوجته والد جابر بن عبد الله ، فأثت زوج عمرو هند بنت عمرو بن حرام وحملتهم : زوجها وابنها وأخاها على بعير لتدفنهم بالمدينة ، فنهى عليه الصلاة والسلام عن الدفن خارج أحد فجعوا . وقتل سعد بن الربيع ، وأرسل عليه الصلاة والسلام من يأتيه بخبره فوجده بين القتلى وبه رمق ، فقبل له : إن رسول الله يسأل عنك ، فقال لمبلغه : قل لقومي : يقول لكم سعد بن الربيع الله الله وما عاهدتم عليه رسوله ليلة العقبة ، فوالله ما لكم عندي عذر ، وقتل أنس بن النضر عم أنس بن مالك ، فإنه لما سمع بقتل رسول الله قال : يا قوم ما تصنعون بالبقاء بعده ؟ موتوا على ما مات عليه إخوانكم ، فلم يزل يقاتل حتى قُتل رضي الله عنه .

ومثلت قريش بقتلى أحد حتى إن هنداً زوج أبي سفيان بقرت بطن حمزة ، وأخذت كبده لتأكلها ، فلاكتها ثم أرسلتها ، وفعلوا قريباً من ذلك بإخوانه الشهداء . ثم إن أبا سفيان صعد الجبل ونادى بأعلى صوته^(٢)

(١) قُتل من المهاجرين أربعة هم : حمزة ، وعبد الله بن جحش ، ومصعب بن عمير ، وشماس بن عثمان .

وفي السيرة الحلبية قال الحافظ ابن حجر : لعل الخامس سعد مولى حاطب بن أبي بلتعة والسادس ثقيف بن عمر وحليف بني عبد شمس .

(٢) « قال أبو سفيان : أعل هبل ، فقال النبي ﷺ أجيبوه . قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله أعلى =

أنعمت^(١) فعال ، إن الحرب سجل يوم بيوم بدر ، وموعدهم بدر العام المقبل ، ثم قال : إنكم ستجدون في قتلاكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني . ثم إن المشركين رجعوا إلى مكة ، ولم يعرجوا على المدينة ، وهذا مما يدل على أن المسلمين لم يهزموا في ذلك اليوم ، وإلا لم يكن بد من تعقب المشركين لهم حتى يغيروا على مدينتهم . ثم تفقد عليه الصلاة والسلام القتلى وحزن على عمه حمزة حزناً شديداً ، ودفن الشهداء كلهم بأحد كل شهيد بثوبه الذي قتل فيه ، وكانوا يدفنون الرجلين والثلاثة في لحد واحد لما كان عليه المسلمون من التعب ، فكان يشق عليهم أن يحضروا الكل شهيد حفرة . ولما رجع المسلمون إلى المدينة سخر منهم اليهود والمنافقون ، وأظهروا ما في قلوبهم من البغضاء ، وقالوا لإخوانهم : ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾^(٢) .

وهذا الذي ابتلي به المسلمون درس مهم لهم ، يذكرهم بأمرين عظيمين تركهما المسلمون فأصيبوا ، أولهما : طاعة الرسول في أمره ، فقد قال للرماة لا تبرحوا مكانكم إن نحن نصرنا أو قهرنا فعصوا أمره ونزلوا . الثاني : أن تكون الأعمال كلها لله غير منظور فيها لهذه الدنيا التي كثيراً ما تكون سبباً في مصائب عظيمة ، وهؤلاء أرادوا عرض الدنيا ، والتهوا بالغنائم حتى عوقبوا ، وفي ذلك أنزل الله في سورة آل عمران التي فصلت غزوة أحد : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُجِبُونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٣) فسبب هذا الابتلاء : التنازع فينبغي الاتفاق ، والفشل فينبغي الثبات ، والعصيان فينبغي طاعة الرئيس . نسأل الله التوفيق .

= وأجل . قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال : النبي ﷺ : أجيئوه . قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم . . . » .

أي الحرب . (فتح الباري) .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٥٦ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٥٢ .

غزوة حمراء الأسد^(١)

لما رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة أصبح خَذِراً من رجوع المشركين إلى المدينة ليتمموا انتصارهم ، فنادى في أصحابه بالخروج خلف العدو ، وألاً يخرج إلا من كان معه بالأسد^(٢) ، فاستجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، فضمّدوا جراحاتهم وخرجوا واللواء معقود لم يُحلّ ، فأعطاه علي بن أبي طالب ، وولى على المدينة ابن أم مكتوم ، ثم سار الجيش حتى وصلوا حمراء الأسد^(٣) وقد كان ما ظنه الرسول حقاً ، فإن المشركين تلاوموا على ترك المسلمين من غير شن الغارة على المدينة حتى يتم لهم النصر ، فأصروا على الرجوع ، ولكن لما بلغهم خروج الرسول في أثرهم ظنوا أنه قد حضر معه مَنْ لم يحضر بالأسد ، وألقى الله الرعب في قلوبهم ، فتمادوا في سيرهم إلى مكة ، وظفر عليه الصلاة والسلام وهم في حمراء الأسد بأبي عزة الشاعر الذي مَنْ عليه بعدد بعد أن تعهد ألا يكون على المسلمين فأمر بقتله ، فقال : يا محمد أقلني ، وامنن عليّ ، ودعني لبناتي ، وأعطيك عهداً ألا أعود لمثل ما فعلت ، فقال عليه الصلاة والسلام : (لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول : خدعتُ محمداً مرتين ، لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جحرٍ مرتين)^(٣) ، إضرب عنقه يا زيد^(٤) فضرب عنقه ، وفي هذا تأديب عظيم من صاحب الشرع الشريف ، فإن الرجل الذي لا يحترز مما أُصيب منه ليس بعاقل فلا بدّ من الحزم لإقامة دعائم المُلْك .

حوادث

وفي هذه السنة زوّج عليه الصلاة والسلام بنته أم كلثوم لعثمان بن

(١) ليكون بذلك مرهّباً للعدو .

(٢) موضع على ثمانية أميال من المدينة بطريق مكة . المؤلف .

(٣) رواه البخاري في الأدب ، رقم : ٦١٣٣ .

(٤) قال ابن هشام : بلغني أنه قال : اضرب ثابت .

عُفان بعد أن ماتت رقية عنده ، ولذلك كان يُسَمَّى ذا النورين . وفيها تزوج عليه الصلاة والسلام حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وأمها أخت عثمان بن مظعون ، وكانت قبله تحت خنيس بن حذافة السهمي رضي الله عنه ، فتوفي عنها بجراحة أصابته ببدر^(١) ، وفيها تزوج عليه الصلاة والسلام زينب بنت خزيمة الهلالية من بني هلال بن عامر ، وكانت تدعى في الجاهلية أم المساكين لرأفتها وإحسانها إليهم ، وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش ، فقتل عنها بأحد وهي أخت ميمونة بنت الحارث لأُمها ، وفيها ولد الحسن بن علي رضي الله عنهما .

وفيها حُرِّمَت الخمر ، وكان تحريمها بالتدريج لما عليه العرب من المحبة الشديدة لها ، فيصعب إذاً تحريمها دفعة واحدة ، وكان ذلك التحريم تابعاً لحوادث تُنفَر عنها ، لأن المنكر إذا أُسند تحريمه لحادثة أقر الجميع على تقبيحها ، كان ذلك أشدَّ تأثيراً في النفس . فأول ما بُين فيها قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾^(٢) فمنفعة الميسر التصدق بربحه على الفقراء كما كانت عادة العرب ، ومنفعة الخمر تقوية الجسم^(٣) ، ولما شربها بعض المسلمين وخلط في القراءة حُرِّمَت الصلاة على السكران ، فقال تعالى في سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾^(٤) ، ولما حدث من شربها اعتداء بعض المسلمين على إخوانهم حُرِّمَت قطعياً بقوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ^(٥) وَالْأَزْلَامُ^(٦) رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا

(١) وقيل بأحد ، والأول أشهر .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢١٩ .

(٣) ليس للخمر أن يقوِّي الجسم ، بل يُضعفه بإجماع الأطباء مؤمنهم وكافرهم .

(٤) سورة النساء الآية : ٤٣ .

(٥) هي حجارة تصب عليها دماء الذبح وتعبد . المؤلف .

(٦) هي القداح التي كانوا يستقسمون بها ، وفي قرن الخمر والميسر بالأنصاب والأزلام نهاية التنفير ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « شارب الخمر كعابد الوثن » . المؤلف .

يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ
وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿١﴾ وقد أجاب المسلمون على ذلك بقولهم : انتهينا ،
فليُجِبِ المسلمون الآن .

(١) سورة المائدة الآية : ٩٠ - ٩١ .



السنة الرابعة

سرية^(١)

في بدء السنة الرابعة بلغ رسول الله أن طليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين يدعوان قومهما بني أسد لحربه عليه الصلاة والسلام ، فدعا أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وعقد له لواءً وقال له : سِرْ حتى تنزل أرض بني أسد بن خزيمة فَأَغْرَ عليهم ، وأرسل معه رجالاً ، فسار في هلال المحرم حتى بلغ قَطْنًا^(٢) فَأَغَارَ عليهم ، فهربوا من منازلهم ، ووجد أبو سلمة إبلاً وشاء فأخذها ، ولم يلق حرباً ، ورجع بعد عشرة أيام من خروجه .

وفي بدئها أيضاً^(٣) بلغه عليه الصلاة والسلام أن سفيان بن خالد بن نُبَيْح الهذلي المقيم بَعْرَةَ^(٤) يجمع الجموعَ لحربه ، فأرسل له عبد الله بن أنيس الجهني وحده ليقته ، فاستأذن رسول الله ﷺ أن يتقول حتى يتمكن ، فأذن له ، وقال : انتسب لخزاعة ، فخرج لخمس خَلَوْن من المحرم ، ولما وصل إليه قال له سفيان : ممّن الرجل ؟ قال : من خُزاعة ،

(١) هي سرية أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد إلى قطن .

(٢) جبل لبني أسد بناحية قَيْد شرقي المدينة . المؤلف .

(٣) هي سرية عبد الله بن أنيس إلى عُرّة .

(٤) موضع قرب عُرّة .

سمعتُ بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك ، فقال له : أجل إنني لفي الجمع له ، فمشى عبد الله معه وحدَّته وسفيان يستحلي حديثه ، فلما انتهى إلى خبائه تفرق الناس عنه فجلس معه عبد الله حتى نام ، فقام وقتله ، ثم ارتحل حتى أتى المدينة ، ولم يلحقه الطلب وكفى الله المؤمنين القتال .

سرية^(١)

وفي صَفَر أرسل عليه الصلاة والسلام عشرة رجال عيوناً على قريش مع رهط عضل والقارة^(٢) الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يطلبون من يفقههم في الدين ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري ، فخرجوا يسيرون الليل ويكمنون النهار حتى إذا كانوا بالرجيع^(٣) غدر بهم أولئك الرهط ، ودلُّوا عليهم هذيلاً قوم سفيان بن خالد الهذلي الذي كان قتله عبد الله بن أنيس ، فنفروا إليهم فيما يقرب من مائتي رام^(٤) ، واقتنفوا آثارهم حتى قربوا منهم ، فلما أحسَّ بهم رجال السرية لجؤوا إلى جبل هناك ، فقال لهم الأعداء انزلوا ولكم العهد ألا نقتلكم ، فنزل اليهم ثلاثة اغتروا بعهدهم ، وقتلهم الباقون ، ومعهم عاصم غير راضين بالنزول في ذمة مشرك . ولما رأى الثلاثة الذين سلّموا عين الغدر امتنع أحدهم^(٥) فقتلوه ، وأما الإثنين^(٦) فباعوهما بمكة ممَّن كان له ثار عند المسلمين وهناك قُتِلَا . وقد قال أحدهما وهو خبيب بن عدي حين أرادوا قتله :

(١) هي سرية عاصم بن ثابت إلى الرجيع .

(٢) ذكر البخاري في صحيحه ، رقم : ٤٠٨٦ ، أن النبي ﷺ بعث سرية عيناً ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت ، يتجسسون على قريش ، ولم يذكر إرسالهم مع رهط عضل والقارة كما ذكر المؤلف .

(٣) ماء لبني هذيل بين مكة وعُسفان . المؤلف .

(٤) وفي البخاري ، رقم : ٤٠٨٦ ، فتبعوهم بقريب من مائة رام .

(٥) وفي رواية البخاري : فأبى أن يصحبهم فجرّوه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه .

(٦) وهما : خبيب بن عدي ، وزيد بن الدثنة .

ولستُ أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو مُمزع

سرية^(١)

وفي صَفَر وفد على رسول الله أبو براء عامر بن مالك مُلاعِبُ الأُسنة^(٢)، وهو من رؤوس بني عامر، فدعاه عليه الصلاة والسلام إلى الإسلام فلم يسلم ولم يَبْعُد، بل قال: إني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً ولو بعثت معي رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوههم إلى أمرك رجوتُ أن يستجيبوا لك، فقال عليه الصلاة والسلام: إني أخشى عليهم أهل نجد. فقال أبو براء عامر: أنا لهم جار، فأرسل معه المنذر بن عمرو في سبعين من أصحابه كانوا يُسمَّونَ القراء لكثرة ما كانوا يحفظون من القرآن، فساروا حتى نزلوا بئر معونة^(٣)، فبعثوا حَرَام بن ملحان بكتاب إلى عامر بن الطفيل^(٤) سيد بني عامر، فلما وصل إليه لم يلتفت إلى الكتاب بل عدا على حَرَام فقتله^(٥)، ثم استصرخ على بقية البعثة أصحابه من بني عامر فلم يرضوا أن يخفروا جوار ملاعب الأُسنة، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سُليم، وهم رِعلٌ وذُكوان وعُصية فأجابوه وذهبوا معه، حتى إذا التقوا بالقراء أحاطوا بهم، وقتلوهم حتى قتلوههم عن آخرهم، بعد دفاع شديد لم يُجِدْهم نفعاً لقلَّة عددهم وكثرة عدوهم، ولم ينجُ إلا كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظنَّ أنه منهم، وعمرو بن أمية كان في سَرَح القوم. وأبلغ عليه الصلاة والسلام خبر القراء فخطب في أصحابه، وكان فيما قال: «إن إخوانكم قد لقوا المشركين وقتلوهم، وإنهم قالوا ربنا بلغ قومنا أننا قد لقينا

(١) تسمى سرية المنذر بن عمرو إلى بئر معونة.

(٢) جمع سنان وهو نصل الرمح.

(٣) شرقي المدينة.

(٤) العامري عدو الله، مات كافراً.

(٥) استشهد يوم بئر معونة.

ربنا فرضينا عنه ورضي عنا » ، وكان وصول خبر هذه السرية وسرية الرجيع في يوم واحد ، فحزن عليهم ﷺ حزناً شديداً ، وأقام يدعو على الغادرين بهم شهراً في الصلاة .

غزوة بني النضير

يا لله ما أسوأ عاقبة الطيش ، فقد تكون الأمة مرتاحة البال هادئة الخواطر ، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر ، يظنون من ورائه النجاح ، فيجلب عليهم الشرور ويشتتهم من ديارهم ، وهذا ما حصل لليهود بني النضير حلفاء الخزرج الذين كانوا يجاورون المدينة ، فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر ، ولكن بنو النضير لم يوفوا بهذه العهود حسداً منهم وبغياً . فبينما رسول الله ﷺ وبعض من أصحابه في ديار بني النضير إذ ائتمر جماعة منهم على قتله بأن يأخذ أحد منهم صخرة ويلقيها عليه من علو ، فأطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم فرجع وتبعه أصحابه ، ثم أرسل لهم محمد بن مسلمة يقول لهم : اخرجوا من بلادي فقد هممت بما هممت من الغدر (إذ الحزم كل الحزم ألا يتهاون الإنسان مع مَنْ عُرِفَ منه الغدر) فتهيأ القوم للرحيل فأرسل لهم إخوانهم المنافقون يقولون لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم : ﴿ لَئِنْ أَخْرَجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ لَئِنْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ^(١) ولكن اليهود طمعوا بهذا الوعد وتأخروا عن الجلاء ، فأمر عليه الصلاة والسلام بالتهيؤ لقتالهم ، فلما اجتمع الناس خرج بهم واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى رايته علياً . أما بنو النضير فتحصنوا في حصونهم وظنوا أنهم مانعتهم من الله ، فحاصروهم عليه الصلاة والسلام ست ليالٍ ، ثم أمر بقطع نخيلهم ليكون أدعى إلى

(١) سورة الحشر الآية : ١١ - ١٢ .

تسليمهم ، فقص الله في قلوبهم الرعب ولم يروا من عبد الله بن أبي مساعدة ، بل خذلهم كما خذل بني قنيقاع من قبلهم ، فسألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم ، إلا آلة الحرب ففعل ، وصار اليهود يُخربون بيوتهم بأيديهم كيلا يسكنها المسلمون . ولما سار اليهود نزل بعضهم بخير ، ومنهم أكابرهـم حُي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق ، ومنهم من سار الى أذرعات بالشام ، وأسلم منهم اثنان : يا مين بن عمرو وأبو سعد بن وهب ، ولم يخمس رسول الله ما أخذ من بني النضير ، فإنه فيء لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب^(١) . ومثل هذا يكون لمعدات الحرب ، وللرسول ، يطعم منه أهله ، ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كما قال تعالى في سورة الحشر : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾^(٢) فأعطى عليه الصلاة والسلام من هذا الفيء فقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وردوا لإخوانهم من الأنصار ما كانوا قد أخذوه منهم أيام هجرتهم ، وأخذ عليه الصلاة والسلام أرضاً يزرعها ويدخر منها قوت أهله عاماً .

غزوة ذات الرقاع^(٣)

وفي ربيع الآخر بلغه عليه الصلاة والسلام أن قبائل من نجد يتهيؤون لحربه ، وهم : بنو محارب وبنو ثعلبة ، فتجهز لهم وخرج في سبعمئة

(١) الفيء : كل مال أخذ من الكفار من غير قتال .

(٢) سورة الحشر الآية : ٧ .

(٣) عن أبي موسى قال : خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نتعقبه ، فنقبت أقدامنا ونقبت قدماي وسقطت أظفاري ، وكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع .

مقاتل ، وولّى على المدينة عثمان بن عفان ، ولم يزلوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم فلم يجدوا فيها أحداً غير نسوة فأخذهنّ ، ، فبلغ الخبر رجالهم ، فخافوا وتفرقوا في رؤوس الجبال ، ثم اجتمع جمع منهم وجاءوا للحرب ، فتقارب الناس وأخاف بعضهم بعضاً . ولما حانت صلاة العصر وخاف عليه الصلاة والسلام ان يغدر بهم الأعداء وهم يصلّون ، صلى بالمسلمين صلاة الخوف^(١) ، فألقى الله الرعب في قلوب الأعداء ، وتفرقت جموعهم خائفين منه ﷺ .

ومال الإمام البخاري إلى أن هذه الغزوة كانت في السنة السابعة وأجمع أهل السير على خلافه^(٢) .

غزوة بدر الآخرة^(٣)

لما أهل شعبان هذا العام كان موعد أبي سفيان ، فإنه بعد انقضاء غزوة أحد قال للمسلمين : موعدنا بدر العام المقبل ، فأجابه الرسول الى ذلك ، وكان بدر محل سوق تُعقد كل عام للتجارة في شعبان يقيم التجار فيه ثمانياً ، فلما حَلَّ الأجل وقريش مُجدبون ، لم يتمكن ابو سفيان من الايفاء بوعدده ، فأراد أن يخذل المسلمين عن الخروج كيلا يُوسم بخلف الوعد ، فاستأجر نعيم بن مسعود الأشجعي ، ليأتي المدينة ويُرجفَ بما جمعه أبو سفيان من الجموع العظيمة ، فقدم نعيم المدينة وقال للمسلمين : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾^(٤) ، ولم يلتفت عليه الصلاة والسلام لهذا الارجاف اتكالا على ربه

(١) روى مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة الخوف، رقم: ٨٤٢ - ٨٤٣.

(٢) والذي ينبغي الجزم به أنها بعد غزوة بني قريظة، وقد رويت عند البخاري عن أبي موسى الأشعري وهو إنما هاجر في السنة السابعة. هذا ويرى البيهقي أن الغزوة قبل نجد قد تكررت مرتين وعلى هذا يمكن الجمع بين ما في الصحيح وبين ما في كتب السير.

(٣) ويقال لها بدر الموعود.

(٤) سورة آل عمران الآية: ١٧٣.

بل خرج بألف وخمسمائة من أصحابه ، واستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي (١) ، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا بدرًا ، فلم يجدوا أحداً لأن أبا سفيان أشار على قريش بالخروج على نية الرجوع بعد مسير ليلة أو ليلتين ظاناً أن إرجاف نعيم يفيد فيكون المخلف هم المسلمون ، فسار حتى أتى مَجَنَّةَ - وهي سوق معروفة من ناحية مَرَّ الظهران - فقال لقومه : إن هذا عام جذب ولا يصلحنا إلا عام عشب فارجعوا ، أما المسلمون فأقاموا ببدر لا يشاركونهم في تجارته أحد : ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٢) ولما سمع بذلك صفوان بن أمية قال لأبي سفيان : قد والله نهيتك أن تعد القوم قد اجترؤوا علينا ورأوا أننا أخلفناهم .

حوادث

وفي هذا لعام ولد الحسين بن علي ، وفيه توفيت زينب بنت خزيمة أم المؤمنين (٣) ، وفيه توفي أبوسلمة رضي الله عنه ابن عمه رسول الله وأخوه من الرضاعة وأول من هاجر إلى المدينة (٤) ، وفيه تزوج عليه الصلاة والسلام أم سلمة هنداً زوج أبي سلمة بعد وفاته .

(١) وقيل عبد الله بن رواحة .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٧٤ .

(٣) لبثت عنده ثمانية أشهر وماتت بالمدينة سنة ٤ هـ .

(٤) في الأصل (إلى الحبشة) وهو خطأ ، وقد ذكره المؤلف في فصل - هجرة المسلمين إلى المدينة - .

السنة الخامسة

غزوة دومة الجندل^(١)

وفي ربيع الأول من هذا العام بلغ النبي ﷺ أن جمعاً من الأعراب بدومة الجندل يظلمون من مَرَّ بهم ، وأنهم يريدون الدنو من المدينة ، فتجهز لغزوتهم ، وخرج في ألفٍ من أصحابه بعد أن ولى على المدينة سباع بن عُرفطة الغفاري ، ولم يزل يسير الليل ويكمن النهار حتى قرب منهم ، فلما بلغهم الخبر تفرقوا ، فهجم المسلمون على ماشيتهم ورعاتهم ، فأصيب مَنْ أُصيبَ وهرب من هرب ، ثم نزل بساحتهم فلم يلقَ أحداً ، وبث السرايا فلم تجد منهم أحداً ، فرجع عليه الصلاة والسلام غانماً ، وصالح وهو عائد عينة بن حصن الفزاري ، وهو الذي كان يسمّيه عليه الصلاة والسلام الأحمق المطاع ، لأنه كان يتبعه ألف قنّاة ، وأقطعه عليه الصلاة والسلام أرضاً يرعى فيها بهمه^(٢) على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة لأن أرضه كانت قد أجذبت .

(١) مدينة بينها وبين دمشق خمس ليالٍ .

(٢) صغار غنمه .

غزوة بني المصطلق^(١)

في شعبان بلغه عليه الصلاة والسلام. أن الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين في أخذ يجمع الجموع لحربه ، فخرج له عليه الصلاة والسلام في جمع كثير ، وولّى على المدينة زيد بن حارثة ، وخرج معه من نسائه عائشة وأم سلمة . وخرج معه ناس من المنافقين لم يخرجوا قط في غزوة قبلها ، يرجون أن يصيخوا من عَرْض الدنيا ، وفي أثناء مسيره عليه الصلاة والسلام التقى بعين^(٢) بني المصطلق ، فسأله عن أحوال العدو فلم يجب فأمر بقتله . ولما بلغ الحارث رئيس الجيش مجيء المسلمين لحربه ، وأنهم قتلوا جاسوسه خاف هو وجيشه خوفاً شديداً حتى تفرق عنه بعضهم ، ولما وصل المسلمون إلى المريسي^(٣) تصافّ الفريقان للقتال ، بعد أن عرض عليهم الإسلام فلم يقبلوا ، فتراموا بالنبل ساعة ، ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد ، فلم يتركوا لرجل من عدوهم مجالاً للهرب ، بل قتلوا عشرة منهم وأسروا باقيهم مع النساء والذرية ، واستاقوا الإبل والشاء ، وكانت الإبل ألفي بغير والشاء خمسة آلاف ، واستعمل الرسول على ضبطها مولاه شُقران^(٤) ، وعلى الأسرى بُريدة . وكان في نساء المشركين برة بنت الحارث سيد القوم ، وقد أخذ من قومها مثنى بنت^(٥) أسرى وُرعت على المسلمين ، وهنا يظهر حسن السياسة ومنتهى الكرم ، فإن بني المصطلق من أعزّ العرب داراً فأسر نسائهم بهذه الحال صعب جداً ، فأراد عليه الصلاة والسلام ان يجعل المسلمين يمنون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم ، فتزوج برة بنت الحارث التي سماها جويرية ، فقبال المسلمون :

(١) وذلك سنة ست هـ.

(٢) العين : الجاسوس .

(٣) ماء لخزاعة على يوم من الفرع . المؤلف .

(٤) وكان عبداً حبشياً .

(٥) وفي رواية مثنى بنت .

أصهار رسول الله لا ينبغي أسرهم في أيدينا فمَنّوا عليهم بالعق ، فكانت جويرية أيمَن امرأة على قومها كما قالت عائشة رضي الله عنها ، وتسبب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة الجليلة ان أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم ، وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم .

وقد حصل في هذه الغزوة نادرَتان ، لولا أن صاحِبَتُهُما حكمة رسول الله ﷺ لعادتا بالتفريق على المسلمين .

(فأولاهما) أن أجيراً^(١) لعمر بن الخطاب اختصم مع حليف للخزرج^(٢) ، فضرب الأجير الحليف حتى سال دمه ، فاستصرخ بقومه الخزرج واستصرخ الأجير بالمهاجرين ، فأقبل الذعر^(٣) من الفريقين ، وكادوا يقتتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله فقال : (ما بال دعوى الجاهلية ؟) (وهي ما يقال في الإستغاثة يا فلان) فأخبر الخبر ، فقال : (دَعُوا هذه الكلمة فإنها متنته) ثم كلم المضروب حتى أسقط حقه وبذلك سكنت الفتنة ، فلما بلغ عبد الله بن أبي هذا الخصام غضب ، وكان عنده رهط من الخزرج فقال : ما رأيت كالיום مذلة أوقد فعلوها ؟ نافرونا^(٤) في ديارنا ، والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول^(٥) : سَمَنَ كَلْبِكَ يَا كَلْكُ ، أما والله : ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾^(٦) ، ثم التفت الى مَنْ معه ، وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم اموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضاً

(١) هو جهجاه بن مسعود .

(٢) هو سنان بن وبر .

(٣) فأقبل جمع من الجيشين وشهروا السلاح ، حتى كاد أن تكون فتنة عظيمة . وهذه العبارة أحسن من قوله . فأقبل الذعر .

(٤) أي غلبونا وكاثرونا في بلادنا .

(٥) أي الأقدمون في أمثالهم .

(٦) سورة المنافقين الآية : ٨ .

للمنايا دون محمد فأيتتم أولادكم وَقَلَّتُمْ وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى يَنْفُضُوا من عنده ، وكان في مجلسه شاب حديث السن قوي الإسلام اسمه زيد بن أرقم ، فأخبر رسول الله الخبر فتغير وجهه ، وقال يا غلام لعلك غضبت عليه فقلت ما قلت؟ فقال : والله يا رسول الله لقد سمعته . قال : لعله أخطأ سمعك ، فاستأذن عمر الرسول في قتل ابن أبيّ أو أن يأمر أحداً غيره بقتله فنهاه عن ذلك . وقال : كيف يا عمر اذا تحدث الناس ان محمداً يقتل أصحابه ، ثم أذن بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتد الحر ، يقصد بذلك عليه الصلاة والسلام شَغَلَ الناس عن التكلم في هذا الموضوع ، فجاءه أسيد بن حُضير وسأله عن سبب الإرتحال في هذا الوقت ؟ فقال : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ زعم انه إن رجَعَ الى المدينة ليخرجنَّ الأعزَّ منها الأذل ، قال : أنت والله يا رسول الله تخرجه إن شِئْتَ ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم سارَ عليه الصلاة والسلام بالناس سيراً حثيثاً^(١) حتى أذتهم الشمس ، فنزل بالناس فلم يلبثوا ان وجدوا مَسَّ الأرض حتى وقعوا نياماً ، وكلّم رجالٌ من الأنصار عبدَ الله بن أبيّ في أن يطلب من الرسول الإستغفار فلوى رأسه واستكبر . وهنا نزل على الرسول سورة المنافقين التي فضحت عبد الله بن أبيّ وإخوانه وصدّقت زيد بن أرقم ، ولما بلغَ ذلك عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ، استأذن رسول الله في قتل أبيه حذراً من أن يُكَلَّفَ بذلك غيره ، فيكون عنده من ذلك أضغان وأحقاد^(٢) ، فأمره عليه الصلاة والسلام بالإحسان إلى أبيه .

(١) أي سريعاً .

(٢) فانه قال : فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر ، فأدخل النار .

حديث الإفك^(١)

(النادرة الثانية) وهي أقطع من الأولى وأجلبُ منها للمصائب وهي رمي عائشة الصديقة زوج رسول الله بالإفك ، فاتَّهموها بصفوان بن المعطل السلمي^(٢) وذلك أنهم لما دنوا من المدينة أذن عليه الصلاة والسلام ليلة بالرحيل ، وكانت السيدة عائشة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش ، فلما قضت شأنها أقبلت الى رَحْلها ، فلمست صدرها فإذا عَقْدُ لها من جَزَعٍ ظَفَار^(٣) قد انقطع فرجعت تلمس عقدها ، فحبسها ابتغاؤه ، فأقبل الرهط^(٤) الذين كانوا يُرْجِلُونَهَا فاحتملوا هودجها^(٥) ظانِّين أنها فيه لأن النساء كنَّ إذ ذاك خفافاً لم يَغْشَهُنَّ اللحم ، فلم يستنكر القوم خِفَّةَ الهودج ، وكانت عائشة جارية حديثة السن ، فجاءت منزل الجيش بعد أن وجدت عقدها ، وليس بالمنزل داعٍ ولا مُجيب ، فغلبتها عيناها فنامت ، وكان الذي يسير وراء الجيش يفتقد ضائعه صفوان بن المعطل ، فأصبح عند منزلها فعرفها لأنه كان رآها قبل الحجاب ، فاسترجع ، فاستيقظت باسترجاعه^(٦) وسترَت وجهها بجلبابها^(٧) ، فأناخ راحلته وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة ، ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصل الجيش وهو نازل للراحة ، فقامت قيامة أهل الإفك ، وقالوا ما قالوا في عائشة وصفوان ، والذي تَوَلَّى كبر الإفك عبد الله بن أبي ، ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهراً ، والناس يفيضون^(٨) في قول أهل الإفك ، وهي لا تشعر

(١) الإفك : الكذب والافتراء .

(٢) ظفار : مدينة باليمن .

(٣) صفوان الأسلمي سكن الخندق والشاهد كلها مع رسول الله ﷺ يوم استشهد ١٩ هـ .

(٤) الرهط : قوم الرجل وقبيلته .

(٥) يُرْجِلُونَ : أي يجعلون الهودج على الرجل .

(٦) أي بقوله : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٧) الجلباب : ثوب يغطي جسم المرأة .

(٨) أي يخوضون .

بشيء ، وكانت تعرف في رسول الله رقة اذا مرضت ، فلم يعطها نصيباً منها في هذا المرض بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله : كيف حالكم ؟ مما جعلها في ريب عظيم ، فلما نَقَهَتْ^(١) خرجت هي وأم مسطح بن أثاة أحد أهل الإفك للتبرّز خارج البيوت ، فعثرت أم مسطح في مِرْطَها^(٢) فقالت : تعس مسطح ! فقالت عائشة : بئس ما قلت !!! أتسيين رجلاً شهد بديراً ؟ فقالت يا هَتَّاهُ^(٣) أو لم تسمعي ما قالوا ؟ فسألته عائشة عن ذلك فأخبرتها الخبر ، فازدادت مرضاً على مرضها . ولما جاءها عليه الصلاة والسلام كعادته ، استأذنته أن تمرّض في بيت أبيها ، فأذن لها ، فسألت أمها عما يقول الناس ، فقالت : يا بنية هوّني عليك ، فوالله لقلّما كانت امرأة قطّ وضيئة^(٤) عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . فقالت عائشة : سبحان الله ! أو قد تحدّث الناس بهذا ؟! وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم . وفي خلال ذلك كان عليه الصلاة والسلام يستشير كبار أهل بيته فيما يفعل ، فقال له أسمة بن زيد لما يعلمه من براءة عائشة : أهلك أهلك ولا نعلم عليهم إلا خيراً . وقال علي بن أبي طالب : لم يُضَيّقَ الله عليك والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدّقك . فدعا عليه الصلاة والسلام بريرة جارية عائشة وقال لها : هل رأيت من شيء يريئك ؟ فقالت : والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قطّ أغمّصه^(٥) غير أنها جارية حديثة السنّ تنام عن عجينها فتأتي الداجن^(٦) فتأكله .

فقام عليه الصلاة والسلام من يومه وصعد المنبر والمسلمون مجتمعون

(١) أي أفادت من المرض .

(٢) أي إزارها ، وهو كساء من صوف أو خز . وأم مسطح هي رائطة بنت صفر مشهورة بكنيتها .

(٣) أي يا هذه .

(٤) أي حسنة جميلة .

(٥) أي أعياه عليها .

(٦) هي الشاة التي تألف في البيوت .

وقال : مَنْ يَعْذِرُنِي^(١) من رجل قد بلغني أذاه في أهلي ، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما يدخل على أهلي إلا معي . فقال سعد بن معاذ : أنا يا رسول الله أعْذِرُكَ منه ، فإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعدُ بن عبادة الخزرجي وقال : كذبتَ لعمرُ الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببتُ أنه يُقتل ، فقام أسيدُ بن حُضير ، وقال لسعد بن عبادة : كذبتَ لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادلُ عن المنافقين . وكادت تكون فتنة بين الأوس والخزرج لولا أن رسول الله نزل من فوق المنبر وخَفَضَهُمْ حتى سكتوا ، أما عائشة فبقيت ليلتين لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم . وبينما هي مع أبيها إذ دخل النبي عليه الصلاة والسلام فسَلَّمَ ثم جلس فقال : أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئةً فسيبرئكَ الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف وتاب تاب الله عليه ، فتقلَّصَ^(٢) دمعُ عائشة ، وقالت لأبويها : أجيبا رسول الله ، فقالا : والله ما ندري ما نقول ، فقالت : إني والله لقد علمتُ أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلتُ لكم : إني بريئة لا تصدقوني ، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ والله يعلم أنني منه بريئة لتُصَدِّقُنِي فوالله لا أجِدُ لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حيث قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾^(٣).

ثم تحولت واضطجعت على فراشها ، ولم يزاوِلْ رسول الله ﷺ مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من سورة النور^(٤) ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصديقة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ

(١) أي من ينصرني إن جازيته على سوء صنيعه .

(٢) أي ارتفع .

(٣) سورة يوسف الآية : ١٨ .

(٤) وفي البخاري من حديث الإفك ، قالت السيدة عائشة : لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر .

خَيْرَ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ . لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَقُلْتُ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالْئِسْئَاتِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ . وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَتَّبِعَ الْفَاحِشَةَ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَوْفٌ رَحِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ فَسَرَّيْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، وبشر عائشة بالبراءة، فقالت لها أمها: قومي فاشكري رسول الله، فقالت: لا والله، لا أشكر إلا الله الذي برأني. وبعد ذلك أمر عليه الصلاة والسلام بأن يُجلد من صرَّح بالإفك ثمانين جلدة (وهي حد القاذف)، وكانوا ثلاثة: حمنة بنت جحش ومسطح بن أثانة وحسان بن ثابت. وكان أبو بكر ينفق على مسطح بن أثانة لقرايته منه، فلما تكلم بالإفك قطع عنه النفقة، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢)؟ فقال أبو بكر: بل نحب ذلك يا رسول الله، وأعاد

(١) سورة النور الآيات: ١١ - ٢١. وكان الأجدر بالمؤلف رحمه الله ذكره لآيات البراءة التي برأت الست عائشة.

(٢) سورة النور الآية: ٢٢.

النفقة على مسطح^(١). فهذه مضار المنافقين الذين يدخلون بين الأمم مظهرين لهم المحبة وقلوبهم مملوءة حقداً يتربصون الفتن، رأوا باباً لها وَلَجُوه فنعود بالله منهم.

غزوة الخندق^(٢)

لم يقرّ لعظماء بني النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم وإرث المسلمين لها، بل كان في نفوسهم دائماً أن يأخذوا ثأرهم ويستردّوا بلادهم، فذهب جمع منهم إلى مكة، وقابلوا رؤساء قريش، وحرّضوهم على حرب رسول الله ومنّوهم المساعدة، فوجدوا منهم قبولاً لما طلبوه، ثم جاؤوا إلى قبيلة غطفان وحرّضوا رجالها كذلك، وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب، فوجدوا منهم ارتياحاً، فتجهزت قريش وأتباعها يرأسهم أبو سفيان، ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري، وعددهم أربعة آلاف معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير. وتجهزت غطفان يرأسهم عُيَيْنَةُ بن حصن الذي جازى إحسان رسول الله كفراً، فإنه كما قدّمنا أقطعه أرضاً يرعى فيها سوائمه، حتى إذا سَمِنَ خُفُّه وحافره قام يقود الجيوش لحرب من أنعم عليه، وكان معه ألف فارس. وتجهزت بنو مرة يرأسهم الحارث بن عوف المري وهم أربعمائة، وتجهزت بنو أشجع يرأسهم مسعود بن رُخَيْلَة^(٣)، وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس، وهم سبعمائة، وتجهزت بنو أسد يرأسهم ظليحة بن خويلد الأسدي، وعدّة الجميع عشرة آلاف محارب قائدتهم العام أبو سفيان. ولما بلغه عليه الصلاة والسلام أخبار هاتِهِ التجهيزات، استشار أصحابه فيما

(١) انظر مسلم في التوبة، باب: في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم: ٢٧٧٠. وغيره من كتب الصحاح.

(٢) قال البخاري: وهي الأحزاب، وكانت في شوال سنة خمس من الهجرة.

(٣) في الأصل أبو مسعود وهو خطأ.

يصنع أيملك بالمدينة أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرّار ؟ فأشار عليه سلمان الفارسي بعمل الخندق وهو عمل لم تكن العرب تعرفه ، فأمر عليه الصلاة والسلام المسلمين بعمله ، وشرعوا في حفره شمالي المدينة من الحرّة^(١) الشرقية الى الحرّة الغربية ، وهذه هي الجهة التي كانت عورة تؤتى المدينة من قبلها . أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل ، لا يتمكن العدو من الحرب جهتها ، وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة في حفر الخندق ، لأنهم لم يكونوا في سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل^(٢) ، وعمل معهم عليه الصلاة والسلام ، فكان ينقل التراب متمثلاً بشعر ابن رواحة :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكيناً علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بَغَوْا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

وأقام الجيش في الجهة الشرقية مسنداً ظهره الى سَلْع (وهو جبل مطل على المدينة) وعدّتهم ثلاثة آلاف ، وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة ، ولواء الأنصار مع سعد بن عباد . أما قريش فنزلت بمجتمع الأسيال^(٣) ، وأما غطفان فنزلت جهة أُحُد . وكان المشركون معجبين بمكيدة الخندق التي لم تكن العرب تعرفها ، فصاروا يترامون مع المسلمين بالنبل . ولما طال المطال عليهم أكره جماعة منهم أفراسهم على اقتحام الخندق ، منهم : عكرمة بن أبي جهل ، وعمرو بن عبد ود وآخرون ، وقد برز علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لعمر بن عبد ود فقتله وهرب إخوانه ، وهوى في الخندق نوفل بن

(١) الحرّة: أرض ذات حجارة سود نخرة. والمدينة بين حرتين شرقية وهي واهم وغربية وهي الدبرة.

(٢) وقد وقع في حفر الخندق آيات من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام . أي الموضع الذي تجتمع فيه السيول.

عبد الله فاندقت عنقه ورُمي سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم قطع أكمّله - وهو شريان الذراع - واستمرت المناوشة والمراماة بالنبل يوماً كاملاً حتى فانت المسلمين صلاة ذاك اليوم وقضوها بعد ، وجعل عليه الصلاة والسلام على الخندق حُرّاساً حتى لا يقتحمه المشركون بالليل ، وكان يحرس بنفسه ثلثة^(١) فيه مع شدة البرد ، وكان عليه الصلاة والسلام يبشّر أصحابه بالنصر والظفر ويَعِدُّهم الخير . أما المنافقون فقد أظهروا في هذه الشدة ما تكنه ضمائرهم حتى قالوا : ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴾^(٢) وانسحبوا قائلين إن بيوتنا عورة نخاف أن يُغير عليها العدو : ﴿ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾^(٣) ، واشتدت الحال بالمسلمين ، فإن هذا الحصار صاحبه ضيق على فقراء المدينة ، والذي زاد الشدة عليهم ما بلغهم من أن يهود بني قريظة الذين يُساكنونهم في المدينة^(٤) قد انتهزوا هذه الفرصة لنقض العهد ، وسبب ذلك أن حُيَّي بن أخطب سيد بني النضير المجليين توجه الى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة ، وكان له كالشيطان ﴿ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفِر ﴾ فحسّن له نقض العهد ، ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين ، ولما بلغت هذه الأخبار رسول الله ﷺ أرسل مسلمة بن أسلم في مائتين وزيد بن حارثة في ثلاثمائة لحراسة المدينة خوفاً على النساء والذراري ، وأرسل الزبير بن العوام يستجلي له الخبر ، فلما وصلهم وجدهم حائقين يظهر على وجوههم الشر ونالوا من رسول الله ﷺ والمسلمين أمامه ، فرجع وأخبر الرسول بذلك . وهناك اشتدَّ وجَلَّ المسلمين ﴿ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالاً شَدِيداً ﴾ ، لأن العدو جاءهم من فوقهم ومن أسفل منهم ﴿ وَزَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ وظنوا بالله الظنون وتكلم

(١) سورة الأحزاب الآية : ١٢ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ١٣ .

(٣) الثلثة : الخلل في الحائط وغيره .

(٤) لم يساكنوا المسلمين في المدينة بل كانوا بجوارها في حصون لهم

المنافقون بما بدا لهم ، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يرسل لُعَيْنَةَ بن حصن ، ويصالحه على ثلث ثمار المدينة لينسحب بغطفان ، فأبى الأنصار ذلك قائلين : إنهم لم يكونوا ينالون منّا إلا قليلاً من ثمارنا ونحن كفار ، أفبعد الإسلام يشاركوننا فيها ؟! وإذا أراد الله العناية بقوم هيا لهم أسباب الظفر من حيث لا يعلمون . فانظر الى هذه العناية من الله للمتمسكين بدينه القويم . جاء نعيم بن مسعود الأشجعي وهو صديق قريش واليهود ومن غطفان . فقال : يا رسول الله إني قد أسلمت وقومي لا يعلمون بإسلامي فمُرني بأمرك حتى أساعدك . فقال انت رجل واحد وماذا عسى أن تفعل ؟ ولكن خذل عنا ما استطعت فإن الحرب خُذعة .

الخُذعة في الحرب

فخرج من عنده وتوجه إلى بني قريظة الذين نقضوا عهد المسلمين ، فلما رآه أكرموه لصداقته معهم ، فقال : يا بني قريظة تعرفون ودّي لكم وخوفي عليكم ، وإني محدثكم حديثاً فاكنموه عني ، قالوا : نعم ، فقال : لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع والنضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم ، وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم فهم اذا رأوا فرصة انتهبوها وإلا انصرفوا لبلادهم . وأما أنتم فتساكنون الرجل (يريد الرسول) ولا طاقة لكم بحربه وحكم فأرى ألا تدخلوا في هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً منهم^(١) ، فاستحسنوا رأيهِ وأجابوه الى ذلك .

ثم قام من عندهم وتوجه إلى قريش فاجتمع برؤسائهم ، وقال : أنتم

(١) جاء في سيرة ابن هشام ، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشrafهم ، يكونون بأيديكم ثقة لكم .

تعرفون ودي لكم ومحبي إياكم وإني محدثكم حديثاً فاكتموه عني ، قالوا
نعمل ، فقال لهم : إن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد وخافوا منكم
أن ترجعوا وتتركوهم معه ، فقالوا له أيرضيك أن نأخذ جمعاً من أشرفهم
ونعطيهم لك ، وترد جناحنا الذي كسرت (يريد بن النضير) فرضي بذلك
منهم . وها هم مرسلون إليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفاً . ثم
أتى غطفان فأخبرهم بمثل ما أخبر به قريشاً فأرسل أبو سفيان وفد^(١) لقريظة
يدعوهم للقتال غداً فأجابوا إنا لا يمكننا أن نقاتل في السبت (وكان إرساله لهم
ليلة السبت) ولم يُصَبنا ما أصابنا إلا من التعدي فيه ، ومع ذلك فلا نقاتل حتى
تعطونا رهائن منكم حتى لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم فتحقت قريش وغطفان
كلام نعيم بن مسعود ، وتفرقت القلوب فخاف بعضهم بعضاً ، وكان عليه
الصلاة والسلام قد ابتهل الى الله الذي لا ملجأ إلا إليه ودعاه بقوله : « اللهم
مُنزل الكتاب سريع الحساب ، إهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم »^(٢)
وقد أجاب الله دعاءه عليه الصلاة والسلام فأرسل على الأعداء ريحاً باردة في
ليلة مظلمة ، فخاف العرب أن تتفق اليهود مع المسلمين ويهجموا عليهم في
الليلة المدلهمة فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح . ولما سمع
عليه الصلاة والسلام الضوضاء في جيش العدو ، قال لأصحابه : لا بد من
حادث ، فمن منكم ينظر لنا خبر القوم ؟ فسكتوا حتى كرر ذلك ثلاثاً . وكان
فيهم حذيفة بن اليمان ، فقال عليه الصلاة والسلام : تسمع صوتي منذ الليلة
ولا تجيب ! فقال : يا رسول الله البرد شديد ، فقال : اذهب في حاجة رسول
الله واكشف لنا خبر القوم فخطر رضي الله عنه بنفسه في خدمة نبيه حتى أطلع
على جليّة الخبر ، وأن الأعداء عازمون على الرحلة .

(١) هم عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان .

(٢) وفي رواية « ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً » .

هزيمة الأحزاب

وقد بلغ من خوفهم أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم ليتعرف كل منكم أخاه ، وليمسك بيده حذراً من أن يدخل بينكم عدو ، وقد حلَّ عقال بعيره يريد أن يبدأ بالرحيل ، فقال له صفوان بن أمية^(١) : إنك رئيس القوم فلا تتركهم وتمضي ، فنزل أبو سفيان وأذن بالرحيل ، وترك خالد بن الوليد في جماعة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لا يدهموا من ورائهم ، وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التي تحزب فيها الأحزاب من عرب ويهود على المسلمين ، ولولا لطف الله وعنايته بهذا الدين منة منه وفضلاً لساءت الحال . وكان جلاء الأحزاب في ذي القعدة ، وكان حقاً على الله أن يسميه نعمة بقوله في سورة الأحزاب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءُواكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾^(٢).

غزوة بني قريظة

ولما رجع عليه الصلاة والسلام بأصحابه ، وأراد أن يخلع لباس الحرب ، أمره الله باللحوق ببني قريظة^(٣)، حتى يطهر أرضه من قوم لم تعد تنفع معهم

(١) فقال له عكرمة بن أبي جهل وليس صفوان . على ما جاء في السيرة الحلبية .

(٢) سورة الأحزاب الآيات : ٩ - ١٣ .

(٣) أتاه جبريل عليه السلام ، فقال : قد وضعت السلاح ؟ والله ما وضعناه ، فخرج إليهم ، قال : إلى أين ، قال : ها هنا وأشار إلى بني قريظة ، فخرج النبي ﷺ إليهم .

العهود ، ولا تربطهم المواثيق ، ولا يأمن المسلمون جانبهم في شدة ، فقال لأصحابه : « لا يصلينَ احد منكم العصر إلا في بني قريظة »^(١) فساروا مسرعين ، وتبعهم عليه الصلاة والسلام راكباً على حماره ، ولوأوه بيد علي بن أبي طالب ، وخليفته على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف ، وقد أدرك جماعة من الأصحاب صلاة العصر في الطريق فصلاًها بعضهم حاملين أمر الرسول بعدم صلاتها على قصد السرعة ، ولم يصلها الآخرون إلا في بني قريظة بعد مضي وقتها حاملين الأمر على حقيقته فلم يُعَنَفَ فريقاً منهم^(٢) . ولما رأى بنو قريظة جيش المسلمين ألقى الله الرعب في قلوبهم ، وأرادوا التنصّل من فعلتهم القبيحة وهي الغدر بمن عاهدوهم وقت الشغل بعدو آخر ، ولكن أنى لهم ذلك وقد ثبت للمسلمين غدرهم ، فلما رأوا ذلك تحصنوا بحصونهم وحاصروهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة ، فلما رأوا أن لا مناص من الجرب ، وأنهم إن استمروا على ذلك ماتوا جوعاً ، وطلبوا من المسلمين أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح ، فلم يقبل الرسول ﷺ ، فطلبوا أن يجلوا بأنفسهم من غير مال ولا سلاح ، فلم يرض أيضاً ، بل قال : لا بدّ من النزول والرضا بما يحكم عليهم خيراً كان أو شراً ، فقالوا له : أرسل لنا أبا لبابة^(٣) نستشيره ، وكان أوسياً من حلفاء بني قريظة ، له بينهم أولاد وأموال^(٤) ، فلما توجه اليهم استشاروه في النزول على حكم الرسول . فقال لهم : انزلوا وأوماً بيده الى حلقة يريد أن الحكم الذبح^(٥) ، ويقول أبو لبابة : لم أبارح موقفي حتى علمتُ أنني خنت الله ورسوله ، فنزل من عندهم قاصداً المدينة خجلاً من مقابلة رسول الله ، وربط

(١) رواه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

(٢) لا الفاعلين ولا التاركين .

(٣) هو بشير بن عبد المنذر ؛ أحد النقباء .

(٤) ولذلك خصّوه بالمشارة .

(٥) وكان أبا لبابة فهم ذلك .

نفسه في سارية من سواري المسجد حتى يقضي الله فيه أمره . ولما سأل عنه عليه الصلاة والسلام أخبر بما فعل ، فقال : أما أنه لو جاءني لاستغفرت له ، أما وقد فعل ما فعل فتركه حتى يقضي الله فيه . ثم إن بني قريظة لما لم يروا بدءاً من النزول على حكم رسول الله فعلوا ، فأمر برجالهم فكُتِفُوا ، فجاءه رجال من الأوس وسألوه أن يعاملهم كما عامل بني قينقاع حلفاء إخوانهم الخزرج ، فقال لهم : ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم؟ فقالوا: نعم . واختاروا سيدهم سعد بن معاذ الذي كان جريحاً من السهم الذي أصيب به في الخندق ، وكان مقيماً بخيمة في المسجد معدة لمعالجة الجرحى ، فأرسل عليه الصلاة والسلام مَنْ يأتي به ، فحملوه على حماره ، والتفت عليه جماعة من الأوس يقولون له : أحسن في مواليك ألا ترى ما فعل ابن أبي في مواليه ؟ فقال رضي الله عنه : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم . ولما أقبل على الرسول وأصحابه وهم جلوس ، قال عليه الصلاة والسلام : قوموا إلى سيّدكم فأنزلوه ، ففعلوا ، وقالوا له : إن رسول الله قد ولّك أمر مواليك لتحكم فيهم . وقال له الرسول : احكم فيهم يا سعد ! فالتفت سعد للناحية التي ليس فيها رسول الله وقال : عليكم عهدُ الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت ؟ فقالوا : نعم ، فالتفت إلى الجهة التي فيها الرسول وقال : وعلى مَنْ هنا كذلك ؟ وهو غاضٌ طرفه إجلالاً فقالوا : نعم ، فقال : فإني أحكم أن تقتلوا الرجال ، وتسبوا النساء والذرية ، وتغنموا الأموال ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لقد حكمت فيهم بحكم الله » لأن هذا جزاء الخائن الغادر . ثم أمر بتنفيذ الحكم فنفذ عليهم ، وجمعت غنائمهم ، فكانت ألفاً وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع وألفي رمح وخمسمائة ترس وحجفة ، ووجد أثاثاً كثيراً وآنية وجمالاً نواضح (١) وشيهاً ، فخمّس ذلك كله مع النخل والسبي للرجال ثلث الفارس ، وأعطى

(١) جمع ناضح .

النساء اللاتي يُمرضن الجرحى ، ووجد في الغنيمة جرار خمر فأريقته . وبعد تمام هذا الأمر انفجر جرح سعد بن معاذ فمات رضي الله عنه وأرضاه^(١) ، وكان في الأنصار كأبي بكر في المهاجرين . وقد كان له العزم الثابت في جميع المشاهد التي تقدمت الخندق ، وكان عليه الصلاة والسلام يحبه كثيراً وبشره بالجنة على عظيم أعماله وعقب رجوع المسلمين الى المدينة تاب الله على أبي لُبابة بقوله : ﴿وَأَخْرَوْنَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) وقد عاهد الله أن يهجر ديار بني قريظة التي حصلت فيها هذه الزلّة . وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة ، ولم تبقَ إلا بقية من كبارهم بخير مع أهلها وهم الذين كانوا السبب في إثارة الأحزاب . وسيأتي للقارىء قريباً اليوم الذي يعاقبون فيه .

زواج زينب بنت جحش

وفي هذا العام تزوج عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش - وأمها أمة عمته - بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة ، وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول ﷺ خطبها له فتأفّف أهلها من ذلك لمكانها في الشرف العظيم ، فإن العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالى ، ويعتقدون أن لا كفاء من سواهم لبناتهم ، وزيد وإن كان الرسول تبناه ولكن هذا لا يُلحِقُه بالأشراف ، فلما نزل قوله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ

(١) قال عند وفاته : اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فإن كان قد بقي من حرب قريش شيء فأبقني له ، حتى أجاهدكم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتي فيها ، فانفجرت .

(٢) سورة التوبة الآية : ١٠٢ .

ضَلَالاً مُبِيناً ﴿١﴾. لم يروا بدءاً من القبول ، فلما دخل عليها زيد أَرَتْهُ من كبريائها وعظمتها ما لم يتحملة ، فاشتكاها لرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها إلى أن ضاقت نفسه ، فأخبره بالعزم على طلاقها وقرر ذلك ، ولما كانت العشرة بين مثل هذين الزوجين ضرباً من العيب ، أمر الله نبيّه أن يتزوج زينب بعد طلاقها حسماً لهذا الشقاق من جهة وحفظاً لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى ، ولكن رسول الله خشي لوم اليهود والعرب له في زواجه بزواج ابنه ، فقال لزيد : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى في نفسه ما أبداه الله فَبَتَّ الله حكمه بإبطال هذه القاعدة وهي : تحريم زوج المتبنّى بقوله في سورة الأحزاب : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٢) ثم إن الله حرم التبنّي على المسلمين لما فيه من الأضرار وأنزل فيه سورة الأحزاب : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٣) ومن هذا الحين صار اسم زيد (زيد بن حارثة) بدل (زيد بن محمد) ، وأبدل بذلك أَنْ ذَكَرَ اسمه في قرآن يتلى على مرّ الدهور والأعوام (٤).

يقول المؤرخون وذوو المقاصد السافلة منهم في هذه القصة أقوالاً لا تجوز إلا مَن ضاع رشده ، ولم يفقه حقيقة ما يقول ، فإنهم يذكرون أن الرسول توجه يوماً لزيارة زيد فرأى زوجه مصادفة لأن الريح رفعت الستر عنها فوقعت في قلبه ، فقال : سبحان الله ، فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك ، فرأى من الواجب عليه فراقها ، فتوجه وأخبر الرسول بعزمه فنهاه عن ذلك إلخ . وهذا

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٦ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٣٧ .

(٣) سورة الأحزاب الآية : ٤٠ .

(٤) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن زيد بن حارثة ما كنّا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

مما يكذبه أن نساء العرب لم تكن قبل ذلك تعرف ستر الوجوه ، وزينب بنت عمته أسلمت قديماً ورسول الله بمكة ، فكيف لم يرها ، وقد مضى على إسلامها نحو عشر سنوات وهي بنت عمته ، إلا حينما رفعت الريح الستر مصادفة ، ورسول الله هو الذي زوجها زيداً ، فلو كان له فيها رغبة حب أو عشق لتزوجها هو ولا مانع يمنعه من ذلك . ومن مَنَّا يتصور أن السيد الأكرم يقول لقومه إنه مرسل من ربه ، ويتلو عليهم صباح مساء أمر الله له بقوله في سورة الحجر المكية ؛ ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ ﴾ (١) وفي سورة طه المكية أيضاً : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٢) ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متبعيه ، وينظر الى زوجه مصادفة ثم يشتهي زواجها؟ إن هذا الأمر عظيم تشعر بذلك صدورنا . ولو حدث أمر مثل ذلك من أقل الناس لعب عليه ، فكيف بمن اجتمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقاً ، وأبعدهم عن الدنيا ، وأشدَّهم ذكاء وفراصة حتى مدحه الله بقوله في سورة نّ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣) لا شك أن هذه الخرافة مما يلتحق بخرافة الغرائق ، وضعها أعداء الدين ليصلوا بها إلى أغراضهم ، والحمد لله قد ناقضت النقل والعقل ، فلم تبق شبهة في أن الحقيقة ما نقلناه لك أولاً ، وهو الذي يستفاد من القرآن الشريف قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِ رَبُّكَ وَاتَّقِ اللَّهَ تَخَفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ . فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٤) . والذي أبداه الله هو زواجه بها ، ولم يبد غير ذلك وهذا القرآن أعظم شاهد .

(١) سورة الحجر الآية : ٨٨ .

(٢) سورة طه الآية : ١٣١ .

(٣) سورة نّ الآية : ٤ .

(٤) سورة الأحزاب الآية : ٣٧ .

الحجاب

وفيه نزلت آية الحجاب وهو خاص بنساء رسول الله ﷺ ، وكان عمر بن الخطاب قبل نزول آيته يحبّه ويذكره كثيراً ، ويودّ أن ينزل فيه قرآناً^(١) ، وكان يقول : لو أطاع فيكن ما رأيتكن عین ، فنزل في سورة الأحزاب : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلَّكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾^(٢) فقال بعضهم : انتهى أن نكلم بنات عمّا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لآتزوجن عائشة ! فنزل بعد الآية المتقدمة : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلَّكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾^(٣) أما غير أزواجه عليه الصلاة والسلام من المؤمنات ، فأمرن بغضّ الأبصار ، وحفظ الفروج ، كما أمر بذلك الرجال ، وأمرن ألا يبدین زینتهنّ للأجانب إلا ما ظهر منها كالخاتم في الإصبع ، والخضاب في اليد ، والكحل في العين ، أما ما خفي منها فلا يحلّ إبداءه كالسوار للذراع ، والدُمْلَج للعضد ، والخلخال للرجل ، والقلادة للعنق ، والإكليل للرأس ، والوشاح للصدر ، والقرط للأذن . والمراد بالزينة الظاهرة والخفية موضعها ، وأمرن أيضاً بأن يضربن بخمرهنّ على الجيوب كيلا تبقى صدورهنّ مكشوفة^(٤) ، فإن النساء إذ ذاك كانت جيوبيهنّ واسعة تبدو منها نحورهنّ وصدورهنّ وما حواليتها ، وكُنّ يسدلن الخُمُر من ورائهنّ ، ونُهين عن أن يضربن بأرجلهنّ ليعلم أنهنّ ذوات خلخال . وإذا كان النهي عن إظهار صوت الحلي بعد ما نهين عن إظهار الحلي ، عَلِمَ بذلك ان النهي عن إظهار مواضع الحلي أبلغ وأبلغ ، قال تعالى في سورة النور : ﴿ وَقُلْ

(١) قال عمر رضي الله عنه وافقت ربي في ثلاث : منها آية الحجاب قلت : يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجن فانه يكلمهنّ البرّ والفاجر فنزلت آية الحجاب .

(٢ - ٣) سورة الأحزاب الآية : ٥٣ .

(٤) عن عائشة رضي الله عنها قالت : «يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله - وليضربن بخمرهنّ على جيوبيهنّ - شققن مروطهنّ فاخترن بها» .

لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ^(١) وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَتِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(٢) وَكَانَ النِّسَاءُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ كَمَا كُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَتَبَذَلَاتٍ تَبْرُزُ الْمَرْأَةُ فِي دِرْعٍ وَخِمَارٍ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْحُرَّةِ وَالْأَمَةِ ، وَكَانَ الْفَتَيَانِ وَأَهْلُ الشُّطَارَةِ^(٣) يَتَعَرَّضُونَ لِلْإِمَاءِ إِذَا خَرَجْنَ بِاللَّيْلِ إِلَى مَقَاضِي حَوَائِجِهِنَّ فِي النَّخِيلِ وَالْغَيْطَانِ^(٤) ، وَرَبَّمَا تَعَرَّضُوا لِلْحُرَّةِ بَعْلَةً الْأَمَةُ يَقُولُونَ حَسْبُنَاهَا أَمَةٌ ، فَأَمْرٌ أَنْ يَخَالَفَنَ بَزِيهَهُنَّ عَنْ زِيِّ الْإِمَاءِ بِأَنْ يَدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ لِيُغْطِيَ الْوَجْهَ وَالْأَعْطَافَ^(٥) لِيَحْتَشِمْنَ ، وَيُهَيِّبْنَ فَلَا يَطْمَعُ فِيهِنَّ طَامِعٌ ، قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾^(٦) أَمَّا حَجَبُ الْمَرْأَةِ عَمَّنْ يَرِيدُ خُطْبَتَهَا فَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ يُفْعَلُ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ وَلَا فِي عَهْدِ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، فَإِنَّ الشَّارِعَ الْحَكِيمَ سَنَّ ذَلِكَ لِيَكُونَ الرَّجُلُ عَلَى عِلْمٍ مِمَّا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ ، حَتَّى يَتِمَّ الْوِفَاقُ وَالْوَثَامُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ فِي أَمْرٍ أَجْمَعَ عَلَيْهِ أُمَّةُ الدِّينِ . قَالَ حُجَّةُ الْإِسْلَامِ الْغَزَالِيُّ فِي الْإِحْيَاءِ : (وَقَدْ نَدَبَ الشَّرْعُ إِلَى مِرَاعَاةِ أَسْبَابِ الْإِلْفَةِ وَلِذَلِكَ اسْتَحَبَّ النَّظَرُ ، فَقَالَ : (إِذَا أَوْقَعَ اللَّهُ فِي نَفْسٍ أَحَدَكُمْ مِنْ امْرَأَةٍ ، فَلْيَنْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ

(١) والبصر هو الباب الأكبر إلى القلب .

(٢) سورة النور الآية : ٣١ .

(٣) الشاطر : من أعيا أهله خبثاً .

(٤) الغيطان جمع غيط ، وهو الواسع من الأرض .

(٥) عطفاً كل شيء : جانبه .

(٦) سورة الأحزاب الآية : ٥٩ .

يؤدم بينهما) - أي يؤلف بينهما - من وقوع الأذمة ، والأدمة : هي الجلدة الباطنة ، والبشرة : الجلدة الظاهرة ، وإنما ذكر ذلك للمبالغة في الإئتلاف ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إن في أعين الأنصار شيئاً فإذا أراد أحدكم ان يتزوج منهنّ فليُنظر إليهنّ » قيل : كان في أعينهنّ عمش وقيل صغر . وكان بعض الصالحين لا ينكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور ، وقال الأعمش : كل تزويج يقع على غير نظر فأخره هم وغم) ، ولا يبعد أن يكون فساد الزمن والإبتعاد عن التربية الدينية التي تسوق إلى مكارم الأخلاق قد حسّنا عند عامة المسلمين في العصور الأولى حجب المرأة مطلقاً حسماً للمفاسد ودَراً للفتنة .

فرض الحج

وفي هذا العام ، على ما عليه الأكثرون فرض الله على الأمة الإسلامية حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ليجتمع المسلمون من جميع الأقطار ، فيتجهوا إلى الله ويبتهلوا إليه أن يؤيدهم بنصره ويُعينهم على اتباع دينه القويم . وفي ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب ما فيه للمسلمين الفائدة العظمى .



السنة السادسة

سرية

ولعشر خلون من محرم السنة السادسة ، أرسل عليه الصلاة والسلام^(١) محمد بن مسلمة في ثلاثين راكباً لشن الغارة على بني بكر بن كلاب الذين كانوا نازلين بناحية صَرْيَّة^(٢) ، فسار إليهم يكمن النهار ، ويسير الليل حتى دهمهم فقتل منهم عشرة ، وهرب باقيهم ، فاستاقت السرية النعمَ والشيء ، وعادوا راجعين الى المدينة ، وقد التقوا وهم عائدون بثمامة بن أثال الحنفي من عظماء بني حنيفة فأسروه وهم لا يعرفونه ، فلما أتوا به رسول الله عرفه وعامله بمنتهى مكارم الأخلاق ، فإنه أطلق إسارة بعد ثلاث أبي فيها الإنقياد للإسلام بعد أن عرض عليه . ولما رأى ثمامة هذه المعاملة ، وهذه المكارم . رأى من العتب أن يتبع هواه ويترك ديناً عماده المحامد ، فرجع إلى رسول الله وأسلم غير مكره وخاطب الرسول بقوله : « يا محمد والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ ، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إليّ من دينك ، فقد أصبح أحبّ الدين كله إليّ ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك ، فقد أصبح أحبّ البلاد إليّ » فسّر عليه الصلاة والسلام كثيراً بإسلامه لأن

(١) هي سرية محمد بن مسلمة إلى القُرطاء .

(٢) موضع على سبع ليالٍ من المدينة في طريق البصرة . المؤلف .

من ورائه قوماً يطيعونه . ولما رجع ثُمَامَة الى بلاده مرَّ بمكة معتمراً وأظهر فيها إسلامه ، فأرادت قريش إيذاءه ، فذكروا احتياجهم لحبوب اليمامة التي منها ثُمَامَة فتركوه ، ومع ذلك فقد حلف هو ألا يرسل إليهم من اليمامة حبواً حتى يؤمنوا ، فجهدوا جداً ولم يروا بداً من الإستغاثة برسول الله ، فعاملهم عليه الصلاة والسلام بما جُبِلَ عليه من الشفقة والرحمة ، وأرسل لثُمَامَة أن يُعيد عليهم ما كان يأتيهم من أقوات اليمامة ففعل . وقد كان لهذا الرجل الكريم الأصل قدم راسخة في الإسلام عقب وفاة الرسول حينما ارتدَّ أكثر أهل بلاده ، فكان ينهي قومه عن اتباع مُسَيْلِمَة ، ويقول لهم : إياكم وأمرأ مظلماً لا نور فيه ، وإنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه ، فثبت معه كثير من قومه رضي الله عنه .

غزوة بني لحيان

بنو لحيان هم الذين قتلوا عاصم بن ثابت وإخوانه ، ولم يزل رسول الله حزيناً عليهم متشوقاً للقصاص من عدوهم حتى ربيع الأول من هذه السنة ، فأمر أصحابه بالتجهُّز ، ولم يُظهر لهم مقصده كما هي عادته عليه الصلاة والسلام في غالب الغزوات ، لتعمى الأخبار عن الأعداء ، وولى على المدينة ابن أم مكتوم ، وسار في مائتي راكب معهم عشرون فرساً ، ولم يزل سائراً حتى مقتل أصحاب الرجيع ، فترحم عليهم ودعا لهم ، ولما سمع به بنو لحيان تفرقوا في الجبال ، فأقام عليه الصلاة والسلام بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يجدون أحداً ، ثم أرسل بعضاً من أصحابه ليأتوا عُسفان^(١) حتى يعلم بهم أهل مكة فيدخلهم الرعب ، فذهبوا الى كُرَاع الغميم^(٢) ، ثم رجع عليه الصلاة والسلام الى المدينة وهو يقول : « آيئون تائبون لربنا حامدون أعوذ بالله من وعثاء^(٣) السفر

(١) عُسفان : موضع قرب مكة . المؤلف .

(٢) جبل جنوب عُسفان بثمانية أميال . المؤلف .

(٣) وعثاء السفر مشقته وشدته .

وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال»^(١).

غزوة الغابة^(٢)

كان للنبي عليه الصلاة والسلام عشرون لِقَاحَةً^(٣) ترعى بالغابة^(٤)، فأغار عليها عُيَينة بن حصن في أربعين فارساً واستلبها من راعيها ، فجاءت الأخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والذي بلغه هو سلمة بن الأكوع^(٥) أحد رماة الأنصار ، وكان عَدَاءً فأمره الرسول بأن يخرج في أثر القوم ليشغلهم بالنبل حتى يدرتهم المسلمون ، فخرج يشتد في أثرهم حتى لحقهم ، وجعل يرميهم بالنبل ، فإذا وجَّه الخيل نحوه رجع هارباً ، فلا يُلحق ، فإذا دخلت الخيل بعض المضايق علا الجبل فرمى عليها الحجارة حتى ألقوا كثيراً مما بأيديهم من الرماح والأبراد^(٦) ليخففوا عن أنفسهم حتى لا يلحقهم الجيش ، ولم يزل سلمة على ذلك حتى تلاحق به الجيش ، فإن الرسول دعا أصحابه فأجابوه ، وأول من انتهى إليه المقداد بن عمرو ، فقال له : اخرج في طلب القوم حتى ألحقك وأعطاه اللواء فخرج ، وتبعته الفرسان حتى أدركوا أواخر العدو ، فحصلت بينهم مناوشات قتل فيها مسلم^(٧) ومشركان ، واستنقذ المسلمون غالب اللقاح ، وهرب أوائل القوم بالبقية ، وطلب سلمة بن الأكوع من رسول الله أن يرسله مع جماعة في أثر القوم ليأخذهم على غِرَّة وهم نازلون على أحد مياههم فقال له عليه الصلاة والسلام : « ملكت فأسجح » ثم رجع بعد خمس ليال .

(١) بعض من حديث رواه مسلم في الحج .

(٢) وتسمى غزوة ذي قرد .

(٣) الجمع لِقاح .

(٤) موضع على بريد من المدينة جهة غطفان . المؤلف .

(٥) المعروف بابن الأكوع ، بايع النبي ﷺ عند الشجرة على الموت .

(٦) الأبراد جمع برد وهو الثوب المخطط .

(٧) هو محرز بن نُضلة .

سرية (١)

كان بنو أسد الذين مرّ ذكرهم كثيراً ما يؤذون مَنْ يمرّ بهم من المسلمين ، فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام عُكاشة بن مُحَصَّن^(٢) في أربعين راكباً ليُغير عليهم ، ولما قارب بلادهم علموا به فهربوا ، وهنا وجدوا رجلاً نائماً فأمنّوه ليدلّهم على نَعَم القوم ، فدلّهم عليها فاستاقوها ، وكانت مائة بعير ، ثم قدموا المدينة ولم يلقوا كيداً .

سرية (٣)

وفي ربيع الأول بلغه عليه الصلاة والسلام ان من بذى القصّة^(٤) يريدون الإغارة على نَعَم المسلمين التي ترعى بالهيفاء^(٥) فأرسل لهم محمد بن مسلمة في عشرة من المسلمين ، فبلغ ديارهم ليلاً ، وقد كَمَن المشركون حينما علموا بهم ، فنام المسلمون ولم يشعروا إلا والنبل قد خالطهم ، فتواثبوا على أسلحتهم ولكن تغلب عليهم الأعداء فقتلوهم غير محمد بن مسلمة تركوه لظنهم أنه قُتِل ، فعاد إلى المدينة ، وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح في ربيع الآخر ليقْتَصَّ من الأعداء ، فلما وصل ديارهم وجدهم تشتتوا هاربين فاستاق نَعَمهم ورجع .

سرية (٦)

عاكس بنو سُليم الذين كانوا من المتحزبين في غزوة الخندق المسلمين

(١) هي سرية عكاشة .

(٢) عُكاشة : بضم العين وتشديد الكاف ، من السابقين الأولين .

(٣) هي سرية محمد بن مسلمة إلى ذى القصّة .

(٤) موضع على أربعة وعشرين ميلاً من المدينة في طريق الربذة . المؤلف .

(٥) موضع قرب المدينة المؤلف على سبعة أميال .

(٦) هي سرية زيد بن حارثة إلى الجُمُوم .

في سيرهم ، فأرسل عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة في ربيع الآخر ليغير عليهم في الجُمُوم^(١) فلما بلغوا ديارهم وجدوهم تفرقوا ، ووجدوا هناك امرأة من مُزينة دلتهم على منازل بني سُليم ، أصابوا بها نَعَمًا وشَاءَ ، ووجدوا رجالاً أسروهم وفيهم زوج تلك المرأة فرجعوا بذلك الى المدينة ، فوهب الرسول لهذه المرأة نفسها وزوجها .

سرية (٢)

بلغ الرسول أن عيراً لقريش ، أقبلت من الشام تريد مكة ، فأرسل لها زيد بن حارثة في مائة وسبعين راكباً ليعترضها ، فأخذها وما فيها وأسر من معها من الرجال ، وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ، وكان من رجال مكة المعدودين تجارة ومالاً وأمانةً ، فاستجار بزوجه زينب فأجارته ، ونادت بذلك في مجمع قريش فقال عليه الصلاة والسلام : « المسلمون يُد واحدة يُجير عليهم أذنانهم وقد أجرنا من أجرتِ » وهذا أبلغ ما قيل في المساواة بين أفراد المسلمين وردّ عليه الرسول ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً ، فذهب الى مكة . فأدى لكل ذي حقّ حقه ، ورجع إلى المدينة مسلماً فردّ عليه رسول الله زوجه .

سرية (٣)

وفي جمادي الآخرة أرسل عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة في خمسة عشر رجلاً للإغارة على بني ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة وهم

(١) ناحية من بطن نخل من المدينة . المؤلف .

(٢) هي سرية زيد بن حارثة إلى العيص .

(٣) هي سرية زيد بن حارثة إلى الطُرف .

مقيمون بالطَّرف^(١) فتوجهت السرية لذلك ، ولما رأهم الأعداء ظنَّوهم طليعة لجيش رسول الله ، فهربوا وتركوا نَعْمهم وشاءهم ، فاستاقها المسلمون ورجعوا الى المدينة بعد أربع ليالٍ .

سرية^(٢)

وفي رجب أرسل عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة لِيُغَيِّرَ على بني فزارة لأنهم تعرضوا لزيد وهو راجع بتجارة من الشام ، فسلبوا ما معه ، وكادوا يقتلونه ، فلما جاء المدينة ، وأخبر الرسول الخبر ، أرسله مع رجاله للقصاص من فزارة المقيمين في وادي القُرى^(٣) ، فساروا حتى دهموا العدو وأحاطوا بهم ، وقتلوا منهم جمعاً كثيراً ، وأخذوا امرأة من كبارهم أسيرة ، فاستوهبها عليه الصلاة والسلام ممَّن أسرها وفدى بها أسيراً كان بمكة .

سرية^(٤)

وفي شعبان أرسل عليه الصلاة والسلام عبد الرحمن بن عوف مع سبعمائة من الصحابة لغزو بني كلب في دومة الجندل^(٥) ، وقد وصَّاهم عليه الصلاة والسلام قبل السفر بقوله : «إغزوا جميعاً في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، ولا تَغْلُوا^(٦) ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً فهذا عهد الله وسيرة نبيّه فيكم » ثم أعطاه اللواء فساروا على بركة الله حتى حلّوا بديار العدو ، فدعوهم إلى الإسلام

(١) ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة في طريق العراق . المؤلف .

(٢) هي سرية زيد بن حارثة إلى وادي القري .

(٣) موضع شمالي المدينة . المؤلف .

(٤) هي سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل .

(٥) حصن وقرى بينها وبين دمشق خمس ليالٍ ، وبين المدينة خمس عشرة ليلة . المؤلف .

(٦) من الغلول ، وهو الخيانة في المغنم .

ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع أسلم رئيس القوم الأصبغ بن عمرو النصراني (١) ، وأسلم معه جمع من قومه ، وبقي آخرون راضين بإعطاء الجزية ، فتزوج عبد الرحمن بنت رئيسهم ، كما أمره بذلك عليه الصلاة والسلام ، وهذه أقرب واسطة لتمكين صلات الود بين الأمراء بحيث يهّم كلّ ما يهّم الآخر ، فنعماً هي سياسة السلم والمحبة .

سرية (٢)

وفي شعبان أرسل عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب في مائة لغزو بني سعد بن بكر بَدَك (٣) لأنه بلغه أنهم يجتمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين مقابل تمر يُعطونه من تمر خيبر ، فسارت السرية ، وبينما هم سائرون التقوا بجاسوس العدو ، أرسلوه إلى خيبر ليعقد المعاهدة مع يهودها ، فطلبوا منه أن يدلّهم على القوم وهو آمن ، فدلّهم على موضعهم ، فاستاق منه المسلمون نَعَم القوم ، وهرب الرعاة ، فحذّروا قومهم ، فداخلهم الرعب وتفرقوا ، فرجع المسلمون ومعهم خمسمائة بعير وألفاً شاة ، وردّ الله كيّد المشركين فلم يمدّوا اليهود بشيء .

قتل أبي رافع (٤)

وكان المحرّك لأهل خيبر على حرب المسلمين ، وهو سيدهم ، ابورافع سلام بن أبي الحقيق الملقب بتاجر أهل الحجاز ، لما كان له من المهارة في التجارة ، وكان ذا ثروة طائلة يُقَلَّبُ بها قلوب اليهود كما يريد ، فانتدب له عليه

(١) أسلم علي يد عبد الرحمن بن عوف ، وتزوج عبد الرحمن ابنته ثُمَاضِر .

(٢) هي سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد .

(٣) قرية بينها وبين المدينة ست ليالٍ من جهة خيبر . المؤلف .

(٤) هي سرية عبد الله بن عتيك لقتل أبي رافع .

الصلاة والسلام مَنْ يقتله ، فأجاب لذلك خمسة رجال من الخزرج رئيسهم عبد الله بن عَتِيك^(١) ، ليكون لهم مثل أجر إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشرف ، فإن من نعم الله على رسوله أن كان الأوس والخزرج يتفاخرون بما يفعلونه من تنفيذ رغبات رسول الله ، فلا تعمل الأوسُ عملاً إلا اجتهد الخزرج في مثله ، فأمرهم الرسول بذلك بعد أن وصّاهم ألا يقتلوا وليداً ولا امرأة ، فساروا حتى أتوا خيبر ، فقال عبد الله لأصحابه : مكانكم . فإني منطلق للبواب ومتلطف له لعلّي أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنّع بثوب كأنه يقضي حاجته ، وقد دخل الناس ، فهتف به البواب ، ادخل يا عبد الله إن كنت تريد الدخول ، فإني أريد أن أغلق الباب ، فدخل وكَمَن حتى نام البواب ، فأخذ المفاتيح ، وفتح ليسهل له الهرب ، ثم توجه الى بيت أبي رافع ، وصار يفتح الأبواب التي تُوصل اليه ، وكلما فتح باباً أغلقه من داخل حتى انتهى اليه ، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، فلم يمكنه تمييزه ، فنادى يا أبا رافع ، قال : من ؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يغن شيئاً ، وعند ذلك قالت امرأته : هذا صوت ابن عتيك ، فقال لها : ثكلتك أمك وأين ابن عتيك الآن ؟ فعاد عبد الله للنداء مُغيّراً صوته قائلاً : ما هذا الصوت الذي نسمعه يا أبا رافع ؟ قال : لأملك الويل إن رجلاً في البيت ضربني بالسيف ، فعمد اليه فضربه أخرى لم تُغن شيئاً ، فتوارى ثم جاءه كالمُغيث وغيّر صوته ، فوجده مستلقياً على ظهره ، فوضع السيف في بطنه ، وتحامل عليه حتى سمع صوت العظم ، ثم خرج من البيت ، وكان نظره ضعيفاً فوقع من فوق السلم فكسرت رجله ، فعصّبها بعمامته ثم انطلق الى أصحابه ، وقال : النجاة قُبل والله أبو رافع ، فانتهوا إلى الرسول ، فحدّثوه ثم قال لعبد الله : أبسط رجلك فمسحها عليه الصلاة والسلام فكأنه لم يشكّها قط ، وعادت أحسن ما كانت . فانظر - رعاك الله - إلى ما كان

(١) وهم : عبد الله بن عتيك ، وعبد الله بن أنيس ، وأبو قتادة الحرث بن ربيعي ، ومسعود بن سنان والأسود بن خزاعي .

عليه المسلمون من استسهال المصاعب ما دامت في إرضاء رسول الله ﷺ
فرضي الله عنهم وأرضاهم .

سرية (١)

(ولما) قُتل أبو رافع (٢) ولَّى اليهود مكانه أسير بن رزام ، فأرسل عليه الصلاة والسلام مَنْ يستعلم له خبره ، فجاءته الأخبار بأنه قال لقومه : سأصنع بمحمد ما لم يصنعه أحدٌ قبلي ، أسير الى غطفان فأجمعهم لحربه وسعى في ذلك . فأرسل عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة الخزرجي في ثلاثين من الأنصار لاستمالته ، فخرجوا حتى قديموا خيبر ، وقالوا لأسير : نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ، قال : نعم ولي مثل ذلك ، فأجابوه ، ثم عرضوا عليه أن يقدم على رسول الله ويترك ما عزم عليه من الحرب فيولِّيه الرسول على خيبر ، فيعيش أهلها بسلام ، فأجاب إلى ذلك وخرج في ثلاثين يهودياً كلُّ يهودي رديفٌ لمسلم ، وبينما هم في الطريق ندم أسير على مجيئه ، وأراد التخلص مما فعل بالغدر بمن أئمنوه فأهوى بيده الى سيف عبد الله بن رواحة ، فقال له : أغدراً يا عدو الله ! ثم نزل وضربه بالسيف فأطاح عامّة فخذة ، ولم يلبث أن هلك ، فقام المسلمون على مَنْ معه من اليهود فقتلوه عن آخرهم وهذا عاقبة الغدر .

قصة عُكْلٍ وعُرَيْنة (٣)

قدِمَ على رسول الله في شَوَّال جماعة من عُكْلٍ وعُرَيْنة ، فأظهروا الإسلام وبايعوا رسول الله وكانوا سقاماً ، مصفرةً ألوانهم ، عظيمةً بطونهم ،

(١) هي سرية عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام .

(٢) في الأصل كعب وهو خطأ .

(٣) ويقال لها سرية كُرْز بن جابر .

فلم يوافقهم هواء المدينة ، فأمر لهم عليه الصلاة والسلام بدُّود من الإبل^(١) معها راعٍ ، وأمرهم بالحقوق بها في مرعاها ليشربوا من ألبانها وأبوالها ففعلوا ، ولما تم شفاؤهم جازوا الإحسان كفراً ، فقتلوا الراعي ومَثَّلُوا به ، واستقاموا الإبل ، فلما بلغ ذلك رسول الله أرسل وراءهم كُرْز بن جابر الفهري في عشرين فارساً فلحقوا بهم ، وقبضوا على جميعهم ، ولما جيء بهم إلى المدينة أمر عليه الصلاة والسلام أن يُمَثَّلَ بهم كما مَثَّلُوا بالراعي ، فَقُطِعَتْ أيديهم وأرجلُهم وسُـمِرَتْ^(٢) أعينُهم ، وأُلْقُوا بالحرّة حتى ماتوا ، فهكذا يكون جزاء الخائن الذي لا يُنتظر منه صلاح ، وعَمَلُ هؤلاء الشريرين مما يدل على فساد الأصل ولؤم العشيرة ، وقد نهى رسول الله ﷺ بعد ذلك عن المُثَلَّة .

سرية^(٣)

جلس أبو سفيان بن حرب يوماً في نادي قومه ، فقال : ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غدرًا فإنه يمشي بالأسواق لنستريح منه ؟ فتقدم له رجل وتعهد له بما أراد ، فأعطاه راحلةً ونفقةً وجهّزه لذلك . فخرج الرجل حتى وصل إلى المدينة صُبَحَ سادسةٍ من خروجه ، فسأل عن رسول الله فذُلَّ عليه وهو بمسجد بني عبد الأشهل ، فلما رآه عليه الصلاة والسلام قال : إن هذا الرجل ليريد غدرًا وإن الله ما نعي منه فذهب لينحني على الرسول ، فجذبه أسيد بن حضير من إزاره وهنالك سقط الخنجر ، فندم الرجل على فعلته ، ثم سأل عليه الصلاة والسلام عن سبب عمله فصدقه بعد أن توثق من حفظ دمه فخلّى عليه الصلاة والسلام سبيله . فقال الرجل : والله يا محمد ما كنت أخافُ الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت نفسي ، ثم إنك أطلعت على ما هَمَمْتُ به مما

(١) الذود من الإبل : ما بين الثلاثة إلى العشرة . وقال أبو عبيد الذود من الإناث دون الذكور .

(٢) أي كُحِلَتْ بمسامير محمية .

(٣) يقال لها : سرية عمرو بن أمية الضميرى إلى أبي سفيان بن حرب .

لم يعلمه أحد ، فعرفتُ أنك ممنوع ، وأنتك على حق ، وأن حزب أبي سفيان حزبُ الشيطان ثم أسلم . وعند ذلك أرسل عليه الصلاة والسلام عمرو بن أمية الضمري^(١) ، وكان رجلاً جريئاً فاتكأ في الجاهلية ، وأصبحه برفيق^(٢) ، ليقتلا أبا سفيان غيلة جزاء اعتدائه ، فلما قدما مكة توجهتا ليطوفا بالبيت قبل أن يؤديا ما أرسلتا له ، فعرف عمرأ أحدُ رجال مكة فقال : هذا عمرو بن أمية ما جاء إلا بشر ، فلما رأهم علموا به لم يجد مناصاً من الهرب ، فاصطحب معه رفيقه ، ورجعا إلى المدينة ، وكأن الله سبحانه أراد أن يعيش أبو سفيان حتى يُسلّم بيده مفاتيح مكة للمسلمين ، ويعتق الدين الحنيفي القويم .

غزوة الحُدَيْبِيَّة^(٣)

رأى عليه الصلاة والسلام في نومه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين ، فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه ، حذراً من أن تردّهم قريش عن عمرتهم ، ولكن هؤلاء الأعراب أبطأوا عليه لأنهم ظنوا ألا ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ، وتخلّصوا بأن قالوا : شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، فخرج عليه الصلاة والسلام بمن معه من المهاجرين والأنصار تبلغ عدّتهم ألفاً وخمسمائة^(٤) ، وولى على المدينة ابن أم مكتوم ، وأخرج معه زوجته أم سلمة ، وأخرج الهدى ليعلّم الناس أنه لم يأت محارباً ، ولم يكن مع أصحابه شيء من السلاح إلا السيوف في القُرب ، لأن الرسول لم يرض أن يحملوا السيوف مجردة وهم معتمرون ، ثم سار الجيش حتى وصل عُسفان^(٥) فجاءه

(١) صحابي مشهور، عاش إلى خلافة معاوية، ومات بالمدينة .

(٢) هو سلمة بن أسلم بن حريس .

(٣) الحديبية : قرية متوسطة ليست بالكبيرة ، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة .

(٤) وفي الصحيحين ألف وأربعمائة .

(٥) موضع على مرحلتين من مكة . المؤلف .

عينه^(١) يخبره أن قريشاً أجمعت رأيها أن يصدّوا المسلمين عن مكة وألاً يدخلوها عليهم غَنَوَةً أبداً . وتجهزوا للحرب ، وأعدّوا خالد بن الوليد في مائتي فارس طليعة لهم ليصدّوا المسلمين عن التقدم ، فقال عليه الصلاة والسلام : هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم ؟ فقال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله . فسار بهم في طريق وعرة ثم خرج بهم إلى مستوٍ سهل يملك مكة من أسفلها ، فلما رأى خالد ما فعل المسلمون رجع إلى قريش وأخبرهم الخبر . ولما كان عليه الصلاة والسلام بشيئة المِرَار^(٢) بركت ناقته . فزجروها فلم تقم ، فقالوا خلّأت القَصُوء^(٣) فقال عليه الصلاة والسلام ما خلّأت وما ذلك لها بخُلُقٍ ، ولكن حبسها حابسُ الفيل^(٤) . والذي نفسُ محمد بيده لا تدعوني قريش لِخَصَلَةٍ فيها تعظيمُ حرّمات الله^(٥) إلا أجبتهُم إليها ، مع أن المسلمين لو قاتلوا أعداءهم في مثل هذا الوقت لظفروا بهم ، ولكن كفَّ الله أيدي المسلمين عن قريش . وكفَّ أيدي قريش عن المسلمين كيلاً تُنتهك حُرّمات البيت الذي أراد الله أن يكون حرماً آمناً ، يوطّد المسلمون من جميع الأقطار دعائم أخوتهم فيه . ثم أمرهم عليه الصلاة والسلام بالنزول أقصى الحديبية^(٦) وهناك جاء بُدَيْل بن وَرْقَاء الخُزَاعِي رسولاً من قريش يسأل عن سبب مجيء المسلمين ، فأخبره عليه الصلاة والسلام بمَقْصده^(٧) ، فلما رجع بُدَيْل إلى قريش وأخبرهم بذلك ، لم يثقوا به لأنه من خزاعة الموالية لرسول الله كما كانت لأجداده ، وقالوا : أيريد

(١) أي جاسوسه .

(٢) مهبط الحديبية . المؤلف .

(٣) خلّأت : وبركت من غير علة .

(٤) أي حبسها الله عن دخول مكة .

(٥) أي من ترك القتال في الحرم .

(٦) بئر قرب مكة سميت الحديبية باسمها . المؤلف .

(٧) قائلًا له : إنا لم نجء لقتال أحد ولكنّا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرّت بهم ، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ، ويخلوا بيني وبين الناس .

محمدٌ أن يدخل علينا في جنوده معتمراً تسمع العرب أنه قد دخل علينا عَنوةً ، وبيننا وبينهم من الحرب ما بيننا ؟ والله لا كان هذا أبداً ومنا عَيْنَ تَطْرَف ! ثم أرسلوا حُلَيْسَ بن علقمة سَيِّدَ الأحابيش (وهم حلفاء قريش) ، فلما رآه عليه الصلاة والسلام قال : هذا مِنْ قوم يعظّمون الهَدْيَ ابعثوه في وجهه حتى يراه ، ففعلوا واستقبله الناس يُلبُّون ، فلما رأى ذلك حُلَيْسَ رجع وقال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدَّوا أتججَّ لحمٍ وجذامٍ وحمير ، ويُمنع عن البيت ابن عبد المطلب ؟ هلكت قريش وربّ البيت ، إن القوم أتوا معتمرين !! فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا له : إجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك بالمكاييد ، ثم أرسلوا عُروَةَ بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف فتوجه إلى رسول الله وقال : يا محمد قد جمعت أوباش الناس^(١) ثم جئت إلى أهلك وعشيرتك لِتَفُضَّها^(٢) بهم ! إنها قريش قد خرجت تعاهد الله ألا تدخلها عليهم عَنوةً أبداً . وإيّم الله لكأنني بهؤلاء قد انكشفوا عنك ، فنال منه أبو بكر وقال : نحن ننكشف عنه ؟ ويحك ! وكان عروة يتكلم وهو يمسّ لحية رسول الله ، فكان المغيرة بن شعبه^(٣) ، يقرع يده إذا أراد ذلك ، ثم رجع عروى وقد رأى ما يصنع بالرسول أصحابه ، لا يتوضأ وُضوءاً إلا كادوا يقتتلون عليه يتمسحون به ، وإذا تكلموا خَفَضُوا أصواتهم عنده ، ولا يُجِدُّون^(٤) النظر إليه^(٥) ، فقال : والله يا معشر قريش جئت كسرى في ملكه وقيصَرَ في عظمته ، فما رأيتُ مَلِكاً في قومه مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيتُ قوماً لا يُسلمونه لشيء أبداً ، فانظروا رأيكم ، فإنه عرض عليكم رشداً فاقبلوا ما عرض عليكم ، فإني لكم ناصح ، مع أني أخاف ألا تنصروا عليه .

(١) الأوباش : الأخلاط من الناس .

(٢) لتكسرها .

(٣) أسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها .

(٤) يحدون : يُدِيمون .

(٥) وكأنهم أرادوا بذلك الرد على ما خشيهِ عروة من فرارهم .

فقال قريش : لا تتكلم بهذا ، ولكن نردّه عامنا ويرجع إلى قابل . ثم ان الرسول اختار عثمان بن عفان رسولاً من عنده إلى قريش حتى يعلمهم مَقْصِده ، فتوجّه وتوجّه معه عشرة استأذنوا الرسول في زيارة أقاربهم ، وأمر عليه الصلاة والسلام عثمان أن يأتي المستضعفين من المؤمنين بمكة ، فيبشرهم بقرب الفتح وأن الله مُظهِر دينه ، فدخل عثمان مكة في جوار أبان بن سعيد الأموي^(١) فَبَلَّغَ ما حمل ، فقالوا : إن محمداً لا يدخلها علينا عَنوة أبداً . ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت ، فقال : لا أطوف ورسول الله ممنوع ، ثم إنهم حبسوه ، فشاع عند المسلمين أن عثمان قُتِلَ ، فقال عليه الصلاة والسلام حينما سمع ذلك : « لا نبرح حتى نناجزهم الحرب » .

بيعة الرضوان

ودعا الناس للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك^(٢) . سميت بعد بشجرة الرضوان^(٣) . على الموت^(٤) ، فشاع أمر هذه البيعة في قريش فدخلهم منها رعب عظيم ، وكانوا قد أرسلوا خمسين رجلاً عليهم مَكْرَزُ بن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين لعلهم يصيرون منهم غِرَّة^(٥) ، فأسرهم حارس الجيش محمد بن مسلمة وهرب رئيسهم ، ولما علمت بذلك قريش جاء جمع منهم وابتدؤوا يناوشون المسلمين حتى أسر منهم إثنا عشر رجلاً وقُتِلَ من المسلمين واحد .

(١) أبان بن سعيد بن العاص القرشي الأموي ، أسلم يوم خيبر وشهدها ، ومات النبي ﷺ وأبان على البحرين .

(٢) أمر عمر بقطعها زمن خلافته لما رأى تبرك الناس بها فليتأمل . المؤلف .

(٣) وعندها نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح ١٠) .

(٤) بايعوه على الموت أي على عدم الفرار مطلقاً فيما الفتح وإما الموت .

(٥) غرة : غفلة .

صلح الحديبية

وعند ذلك خافت قريش وأرسلت سهيل بن عمرو للمكالمة في الصلح ، فلما جاء قال : يا محمد إن الذي حصل ليس من رأي عقلائنا بل شيء قام به السفهاء منّا فابعث بمن أسرت ، فقال : حتى ترسلوا من عندكم . وعندئذ أرسلوا عثمان والعشرة الذين معه ، ثم عرض سهيل الشروط التي تريدها قريش وهي :

- ١ - وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنوات .
 - ٢ - من جاء المسلمين من قريش يردّونه ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يُلزمون برده .
 - ٣ - أن يرجع النبي من غير عمرة هذا العام ، ثم يأتي العام المقبل فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش ، فيقيم بها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف في القراب والقوس^(١).
 - ٤ - من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه .
- فقبل عليه الصلاة والسلام كل هذه الشروط . أما المسلمون فدخلهم منها أمر عظيم وقالوا : سبحان الله ! كيف نَرُدُّ إليهم من جاءنا مسلماً ، ولا يردّون من جاءهم مُرتدّاً ؟ فقال عليه الصلاة والسلام إنه من ذهب منّا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً . أما الأمر الثالث وهو صدُّ المسلمين عن الطواف بالبيت فكان أشدّ تأثيراً في قلوبهم لأن الرسول أخبرهم أنه رأى في منامه أنهم دخلوا البيت آمنين ، وقد سأل عمر أبا بكر في ذلك فقال رضي الله عنه : وهل ذكر أنه في هذا العام ؟ ثم كتبت

(١) وفي ابن هشام والسيرة الحلبية السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها .

شروط الصلح بين الطرفين ، وكان الكاتب علي بن أبي طالب ، فأمله عليه الصلاة والسلام : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سُهَيْل : أكتب باسمك اللهم ، فأمره الرسول بذلك ، ثم قال : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال سُهَيْل ؛ لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك ، أكتب محمد بن عبد الله . فأمر عليه الصلاة والسلام علياً بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله ، فامتنع فمحاها النبي بيده ، وكتبت نسختان نسخة لقريش ونسخة للمسلمين . وبعد كتابة الشروط جاءهم أبو جندل بن سُهَيْل^(١) يَحْجُلُ في قيوده^(٢) ، وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة ، فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه ، فقال عليه الصلاة والسلام : إصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطينا على ذلك عهداً فلا نخدر بهم . هذا ، وقد دخلت قبيلة خزاعة في عهد رسول الله ودخل بنو بكر في عهد قريش .

ولما انتهى الأمر ، أمر عليه الصلاة والسلام أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا الهدي ليتحللوا من عمرتهم ، فاحتمل المسلمون من ذلك همّاً عظيماً ، حتى إنهم لم يبادروا بالإمثال ، فدخل عليه الصلاة والسلام على أم المؤمنين أم سلمة وقال لها : هلك المسلمون أمرتهم فلم يمتثلوا ، فقالت : يا رسول الله أعذرهم ، فقد حمّلت نفسك أمراً عظيماً في الصلح ، ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك مكرويون ، ولكن اخرج يا رسول الله وأبدأهم بما تريد فإذا رأوك فعلت تبعوك ، فتقدم عليه الصلاة والسلام إلى هديه فنحره ودعا بالحلّاق فحلق رأسه ، فلما رآه المسلمون تواثبوا على الهدي فنحروه وحلقوا ، ثم رجع المسلمون إلى المدينة ، وقد أمن كل فريق الآخر . ولما قرّ قرارهم

(١) كان من السابقين إلى الإسلام ، وممن عذب بسبب إسلامه عذاباً شديداً .

(٢) أي يمشي بطيناً .

جاءتهم مهاجرة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أخت عثمان لأمة، فطلبها المشركون فقالت يا رسول الله إني امرأة وإن رجعت إليهم فتنوني في ديني فأنزل الله في سورة الممتحنة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَّهُنَّ وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلَا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) فكانت المرأة المهاجرة تُستحلف أنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ولا من بغض زوج ، ولا لالتماس دنيا ولا لرجل من المسلمين ، وما خرجت إلّا حباً لله ولرسوله ، ومتى حلفت لا تردّ بل يُعطى لزوجها المشرك ما أنفق عليه ، ويجوز للمسلم تزوجها . وفي الآية تحريم إمساك الزوجة الكافرة بل تردّ إلى أهلها بعد أن يعطوا ما أنفقوا عليها (وقد تمكن) أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي (٢) رضي الله عنه من الفرار إلى رسول الله ، فأرسلت قريش في أثره رجلين يطلبان تسليمه ، فأمره عليه الصلاة والسلام بالرجوع معهما ، فقال يا رسول الله : أتردني إلى الكفار يفتنونني في ديني بعد أن خلّصني الله منهم ؟ ! فقال : إن الله جاعل لك ولاخوانك فرجاً ، فلم يجد بداً من اتّباعه ، فرجع مع صاحبيه ، ولما كان بذي الحليفة عدا على أحدهما فقتله ، وهرب منه الآخر ، فرجع إلى المدينة وقال : يا رسول الله وقتّ ذمتك أما أنا فنجوت ، فقال له : اذهب حيث شئت ولا تُقَمِّ بالمدينة ، فذهب إلى محل بطريق الشام تمرّ به تجارة قريش ، فأقام به واجتمع معه جمع ممّن كانوا مسلمين بمكة ونجّوا ، وسار إليه أبو جندل بن سهيل ، واجتمع إليه جمع من الأعراب ، وقطعوا الطريق على تجارة قريش حتى قطعوا عنهم الإمداد ، فأرسل رجال قريش لرسول الله يستغيثون به في إبطال هذا

(١) سورة الممتحنة الآية : ١٠ .

(٢) مشهور بكنيته ، ثبت ذكره في قصة الحديبية عند البخاري .

الشرط ويعطونه الحق في إمساك من جاءه مسلماً ، فقبل منهم ذلك ، وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التي لم يتمكنوا من تحملها في الحديبية حينما أمرهم عليه الصلاة والسلام بردّ أبي جندل ، وعلموا أن رأي رسول الله أفضل وأحسن من رأيهم حيث كان فيه أمن ، تسبب عنه اختلاط الكفار بالمسلمين ، فخالطت بشاشة الإسلام قلوبهم حتى قال أبو بكر رضي الله عنه : ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربّه ، والعباد يَعْجَلُونَ والله لا يَعْجَلُ لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد . وفي رجوعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح وقال سبحانه في أولها : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾^(١) وفي تسمية هذه الغزوة بالفتح المبين تصديق لما قدّمنا لك عن الصديق^(٢).

مكاتبة الملوك

بعد رجوع المسلمين من الحديبية في أواخر سنة ست وأمن الطريق من قريش ، كاتب عليه الصلاة والسلام ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، واتخذ إذ ذاك خاتماً من فضة يختم به خطاباته^(٣)، وكان نقشه (محمد رسول الله) فوجّه دحيّه الكلبي^(٤) بكتاب إلى قيصر ملك الروم ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليوصله إلى الملك .

كتاب قيصر

وكان في الكتاب : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ من محمد بن عبدالله

(١) سورة الفتح الآية : ١ .

(٢) أخرج البخاري حديث الحديبية وأخرجه مسلم مختصراً في الجهاد والسير .

(٣) لأنه قيل له : إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا إذا كان مختوماً .

(٤) دحية بن خليفة الكلبي ، صحابي مشهور .

إلى هِرَقْل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين^(١)، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين^(٢) : ﴿ وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾^(٣).

حديث أبي سفيان

ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال : انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه ، وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة ، فجاءت رُسُل قيصر لأبي سفيان ودَعَوْهُ لمقابلة الملك فأجاب ، ولما قدموا عليه في القدس قال لترجمانه : سَلِّهُمْ أَتَيْهِمْ أَقْرَبَ نَسَباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، فقال أبو سفيان : أنا ، لأنه لم يكن في الركب من بني عبد مناف غيره ، فقال قيصر : أدُنْ مِنِّي ، ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنما قدّمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، وقد جعلتكم خلفه كيلا تخجلوا من ردّ كذبه عليه إذا كذب ، ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال : هل تكلم بهذا القول أحدٌ منكم قبله ؟ لا ، قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال : لا ، قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، قال : فهل يزيدون أم ينقصون ،

(١) وإعطاؤه الأجر مرتين لكونه كان مؤمناً بنبيّه ، ثم آمن بمحمد ﷺ .

(٢) الفلاحين . المؤلف .

(٣) سورة آل عمران الآية : ٦٤ .

قال : بل يزيدون ، قال : هل يرتدّ أحد منهم سُخْطه لدينه^(١)؟ قال : لا .
قال : هل يغدر إذا عاهد ؟ قال : لا ، ونحن الآن منه في ذمة لا ندرى ما هو
فاعل فيها ، قال : قاتلتموه ؟ قال : نعم . قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قال :
الحرب بيننا وبينه سِجَال^(٢) مرة لنا ومرة علينا ، قال : فَبِمَ يأمرُكم ؟ قال : يقول
اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، وينهى عمّا كان يعبد آباؤنا ويأمر بالصلاة
والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

فقال الملك : إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك
الرسولُ تُبْعَثُ في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ؟
فزعمت أن لا ، فلو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقلتُ رجلٌ يأتُمُ بقولٍ قيل
قبله ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فزعمت أن لا ،
فقلت : ما كان ليذَرُ الكذبَ على الناس ويكذب على الله ، وسألتك هل كان
من آبائه من ملك ؟ فقلت لا ، فلو كان من آبائه ملك لقلتُ رجلٌ يطلبُ مُلْكَ
أبيه ، وسألتك أشرافُ الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت : بل ضعفاؤهم وهم
أتباع الرسول ، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون ؟ فقلت : بل يزيدون ، وكذلك
الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتدّ أحد منهم سُخْطه لدينه ؟ فقلت : لا ،
وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب^(٣) ، وسألتك : هل قاتلتموه ؟
فقلت : نعم ، وإن الحرب بينكم وبينه سِجَال ، وكذلك الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثم تكون
لهم العاقبة ، وسألتك : بماذا يأمر ؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف
والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك
الرسول لا تغدر ، فعلمتُ أنه نبيٌّ ، وقد علمتُ أنه مبعوث ، ولم أظن أنه
فيكم ، وإن كان ما كَلَّمْتَنِي به حقاً فسيملك موضعَ قدميَّ هاتين ، ولو أعلم أني

(١) أي كراهة له .

(٢) أي مرة لنا ومرة له .

(٣) لأن حلاوة الإيمان إذا دخلت قلباً لا تخرج منه .

أخلص إليه^(١) لتكلفت ذلك ، قال أبو سفيان : فعلت أصوات الذين عنده وكثر
لَغَطُّهم فلا أدري ما قالوا وأمر بنا فأخرجنا ، فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه
قال : لقد بلغ ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر^(٢)!

ولما سار قيصر إلى حمص أذن لعظماء الروم في دَسْكَرة له^(٣) ، ثم أمر
بأبوابها فأغلقت ثم قال : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت
مُلْككم فتبايعوا هذا النبي ؟ فحاصوا^(٤) حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب
فوجدوها مغلقة ، فلما رأى قيصر نفرتهم قال : ردّوهم عليّ ، فقال لهم : إني
قلت مقالتي أختبر بها شدّتكم على دينكم فسكتوا له ورضوا عنه^(٥) ، فغلبه حُبُّ
مُلْكه على الإسلام ، فذهب بإثمه وإثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام
ولكنه ردّ دحية ردّاً جميلاً .

كتاب أمير بُصرى

وأرسل عليه الصلاة والسلام الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير
بُصرى فلما بلغ مؤته (وهي قرية من عمل البلقاء بالشام) تعرّض له شرحبيل بن
عمرو الغساني ، فقال له : أين تريد ! قال : الشام ، قال : لعلّك من رُسُل محمد؟
قال : نعم ، فأمر به فضربت عنقه ، ولم يُقتل لرسول الله عليه الصلاة والسلام
رسول غيره وقد وَجَدَ^(٦) لذلك وَجْداً شديداً .

(١) أي أصل إليه .

(٢) ابن أبي كبشة قصد به النبي ﷺ للتهكم والاستهزاء .

(٣) الدسكرة : القصر الذي حوله بيوت .

(٤) أي نفروا .

(٥) أخرجه البخاري في بدء الوحي .

(٦) وجد : حزن .

كتاب الحارث بن أبي شمر

ووجه عليه الصلاة والسلام شجاع بن وهب^(١) إلى أمير دمشق من قبل هرقل الحارث بن أبي شمر ، وكان يقيم بغوطتها وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر ، سلام عى من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق وإنني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك) فلما قرأ الكتاب رمى به ، وقال من ينزع ملكي مني ، واستعد لي رسل جيشاً لحرب المسلمين ، وقال لشجاع أخبر صاحبك بما ترى ، ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك ، وصادف أن كان عنده دحية فكتب قيصر إليه يشنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهيبء بإيليا^(٢) ما يلزم لزيارته ، فإنه بعد أن قهر الفرس نذر زيارتها ، فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاع بن وهب بالحسنى ووصله بنفقة وكسوة .

كتاب المقوقس^(٣)

ووجه عليه الصلاة والسلام حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر ، وكان فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة . . . الآية)^(٤) فأوصله له حاطب بإسكندرية ، فلما قرأه قال : ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب : ألسن تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله ،

(١) من السابقين الأولين . وذكر ابن هشام وغيره أن شجاع انما توجه إلى جبلة بن الأيهم .

(٢) اسم مدينة بيت المقدس .

(٣) هو لقب لكل من حكم مصر .

(٤) سورة آل عمران الآية : ٦٤ .

فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه ؟ قال : أحسنت ! أنت حكيم جاء من عند حكيم . ثم قال : إني قد نظرتُ في أمر هذا النبي فوجدتُ أنه لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهي عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضالّ ، ولا الكاهن الكذاب ، ووجدتُ معه آلة النبوة^(١) : إخراج الغائب المستور ، والإخبار بالنجوى ، وسأنظر .

ثم كتب ردّ الجواب يقول فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم : لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمتُ ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمتُ أن نبياً قد بقي وكنتُ أظن أنه يخرجُ بالشام ، وقد أكرمتُ رسولك ، وبعثتُ لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وبثياب ، وأهديت إليك بغلة تركبها . والسلام) وإحدى الجاريتين مارية التي تسرى بها عليه الصلاة والسلام ، وجاء منها بولده إبراهيم والأخرى أعطائها لحسان بن ثابت ولم يسلم المقوقس^(٢) .

كتاب النجاشي

ووجه عليه الصلاة والسلام عمرو بن أمية الضمري بكتاب إلى النجاشي^(٣) ملك الحبشة وفيه : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة سلام . أما بعد : فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالة

(١) أي : علامة النبوة .

(٢) بل استمر على نصرانيته .

(٣) النجاشي : لقب لكل من حكم الحبشة .

على طاعته ، وأن تتبغني وتوقن بالذي جاءني ، فإنني رسول الله ، وإنني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغتُ ونصحتُ ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى) ولما وصله الكتاب احترامه غاية الإحترام ، وقال لعمره : **إني أعلم والله أن عيسى بشر به ، ولكن أعواني بالحبشة قليل فأنظرنني حتى أكثر الأعوان وألّين القلوب .** وقد عرض عمرو على من بقي من مهاجري الحبشة الرجوع إلى رسول الله بالمدينة ، وكان من المهاجرين أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج عبيد الله بن جحش الذي كان أسلم وهاجر بها ، ولكن قد غلبت عليه الشقاوة فتنصر فتزوج عليه الصلاة والسلام أم حبيبة وهي بالحبشة ، والذي زوجها له النجاشي بتوكيل منه عليه الصلاة والسلام .

كتاب كسرى

ووجه عليه الصلاة والسلام عبدالله بن حذافة السهمي بكتاب إلى كسرى ملك الفرس^(١) وفيه : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من أتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإنني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس) فلما وصله الكتاب مزقه استكباراً ولما بلغه عليه الصلاة والسلام ذلك قال : (مزق الله ملكه كل ممزق) وقد فعل ، فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطاً وقد بدأ هذا الشقي بالعدوان ، فأرسل لعامله باليمن أن يوجه إلى الرسول من يأتي به إليه فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقتله له ثم أرسل لعامله في اليمن ينهائه عما أمره به أبوه .

(١) كسرى : لقب لكل من ملك الفرس .

كتاب المنذر بن ساوى

ووجه عليه الصلاة والسلام العلاء بن الحضرمي^(١) بكتاب إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين يدعوه إلى الإسلام وفيه : (بسم الله الرحمن الرحيم أسلم أنت ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد : فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا . وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول ، من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ، ومن أبى فإن عليه الجزية) فأسلم وكتب في رد الجواب (أما بعد يا رسول الله : فإنني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود فأحدث إليّ في ذلك أمرك فكتب إليه عليه الصلاة والسلام بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك ، فإنني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد : فإنني أذكرك الله عزّ وجلّ فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يُطع رُسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رُسلي قد أثنوا عليك خيراً ، وإنني قد شفّعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نغيرك^(٢) عن عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية) .

كتاب ملكي عُمان

ووجه عليه الصلاة والسلام عمرو بن العاص^(٣) بكتاب إلى جيفر وعبد ابني الجُلندي ملكي عمان وفيه : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله

(١) استعمله النبي ﷺ على البحرين، وكان يقال إنه مُجاب الدعوة .

(٢) في الأصول : فلن نعزلك .

(٣) ذكر المؤلف كتاب ملكي عُمان هنا في السنة السادسة للهجرة مع العلم أن عمراً لم يسلم بعد وسيأتي إسلامه فيما بعد في السنة السابعة .

إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ، سلام على مَنْ اتبع الهدى ، أما بعد : فإنني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما ، فإنني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحقّ القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما فإن ملككما زائل ، وخيلي تحلّ بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما) .

فلما دخل بناديهما عمرو وسأله عبد بن الجلندي عمّا يأمر به الرسول وينهي عنه ، فقال : يأمر بطاعة الله عزّ وجلّ : وينهي عن معصيته ، ويأمر بالبرّ وصلة الرحم ، وينهي عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب ، فقال : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه ولو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدّق به ، ولكن أخي أضنّ^(١) بمُلْكِهِ من أن يدعه ويصير تابعاً : قال عمرو : إن أسلم أخوك مَلَكُهُ رسول الله على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فردّها على فقيرهم ، فقال عبد : إن هذا لخلقٌ حسن . وما الصدقة ؟ فأخبره بما فرض الله من الصدقات في الأموال ، ولما ذكر المواشي قال : يا عمرو يؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر وترد المياہ ؟ قال : نعم ، فقال عبد : والله ما أرى قومي على بُعد دراہم وكثرة عددهم يطيعون بهذا . ثم إن عبداً أوصل عمراً لأخيه جيفر فتكلّم معه عمرو بما ألان قلبه حتى أسلم هو وأخوه ومكّناه من الصدقات .

كتاب هُوْدَة بن علي

ووجّه عليه الصلاة والسلام سَلِيْط بن عمرو العامري بكتاب إلى هُوْدَة بن علي ملك اليمامة وفيه : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هُوْدَة بن علي . سلام على من اتبع الهدى واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى

(١) أي أبخل .

الخف والحافر^(١). فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك) فلما جاءه الكتاب كتب في ردّه (ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأمر اتبعك)^(٢) ولما بلغ ذلك رسول الله قال لو سألني قطعة من الأرض ما فعلتُ ، بادّ وباد ما يديه^(٣)، فلم يلبث أن مات مُنصَرَف الرسول ﷺ من فتح مكة ، وكان عليه الصلاة والسلام يؤلّي على كل قوم قبلوا الإسلام كبيرهم .

(١) المراد أنه سيصل الإسلام إلى أقصى البلاد.

(٢) كأنه أراد أن يشاركه في النبوة.

(٣) أي هلك.

السنة السابعة

غزوة خيبر

وفي محرم السنة السابعة أمر عليه الصلاة والسلام بالتجهيز لغزو يهود خيبر^(١)، الذين كانوا أعظم مُهَيِّجٍ للأحزاب ضد رسول الله في غزوة الخندق، والذين لا يزالون مجتهدين في مخالفة الأعراب ضد رسول الله كما قدّمنا ذلك في قصة كعب بن الأشرف، وقد استنفر رسولُ الله لذلك مَنْ حوله من الأعراب الذين كانوا معه بالحديبية، وجاء المخلفون عنها ليؤدّن لهم فقال عليه الصلاة والسلام: لا تخرجوا معي إلا رغبة في الجهاد، أما الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئاً، وأمر منادياً ينادي بذلك، ثم خرج عليه الصلاة والسلام بعد أن ولى على المدينة سُبَاعَ بن عُرْفَطَةَ الغفاري^(٢). وكان معه من أزواجه أُمّ سلمة، ولما وصل جيش المسلمين إلى خيبر التي تبعد عن المدينة نحو مائة ميل من الشمال الغربي، رفعوا أصواتهم بالتكبير والدعاء، فقال: عليه الصلاة والسلام: «ارفقوا بأنفسكم فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم»^(٣).

(١) خيبر: هي مدينة كبيرة ذات حصون.

(٢) وقيل: نميلة بن عبد الله الليثي.

(٣) كان هذا التكبير من الصحابة رضي الله عنهم عقب رجوعهم من خيبر وهم في الطريق لا كما =

وكانت حصون خيبر ثلاثة منفصلاً بعضها عن بعض ، وهي : حصون «النَّطَاة» ، وحصون «الشَّق» وحصون «الكثبية»^(١) والأولى ثلاثة : حصن ناعم ، وحصن الصعب ، وحصن قلة ، والثانية حصنان : حصن أبيّ ، وحصن البريء ، والثالثة ثلاثة حصون : حصن القُمُوص وحصن الوَطِيح ، وحصن السُّلَّام ، فبدأ عليه الصلاة والسلام بحصون النطاة ، وعسكر المسلمون شرقيها بعيداً عن مدى النبل ، وأمر عليه الصلاة والسلام أن يقطع نخلهم ليرهبهم حتى يسلموا فقطع المسلمون نحو أربعمئة نخلة . ولما رأى عليه الصلاة والسلام تصميم اليهود على الحرب نهى عن القطع ، ثم ابتدأ القتال مع (حصن ناعم) بالمرامة ، وكان لواء المسلمين بيد أحد المهاجرين فلم يصنع في ذلك اليوم شيئاً ، وفيه مات محمود بن مسلمة^(٢) أخو محمد بن مسلمة ، وصار عليه الصلاة والسلام يغدو كل يوم مع بعض الجيش للمناوشة ، ويخلف على العسكر أحد المسلمين ، حتى إذا كانوا في الليلة السادسة ، ظفر حارس الجيش وهو عمر بن الخطاب بيهودي خارج في جوف الليل ، فأتى به رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولما أدرك الرجل الرعب قال : إن أمتُّموني أدلكم على أمر فيه نجاحكم . فقالوا دُلُّنا فقد أمتُّناك ، فقال : إن أهل هذا الحصن أدركهم المال والتعب ، وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى حصن الشق ، وسيخرجون لقتالكم غداً ، فإذا فتح عليكم هذا الحصن غداً فإني أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات^(٣) ودروع وسيوف يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون ، فإنكم تنصبون المنجنيق ، ويدخل الرجال تحت الدبابات ، فينقبون الحصون فتفتحه من يومك ، فقال عليه الصلاة والسلام لمحمد بن مسلمة : سأعطي الراية غداً رجلاً

= ذكر المؤلف لأن راوي الحديث أبو موسى الأشعري قدم على النبي وقد أوشك أمر خيبر أن يتم .

(١) في الأصل : قدم الكثبية على الشق .

(٢) شهد أحدًا والخندق والحديبية وخيبر وقتل يومها شهيداً .

(٣) الدبابات : آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن .

يحبّ الله ورسوله ويحبّانه ، فبات المهاجرون والأنصار كلهم يتمنّونها ، حتى قال عمر بن الخطاب : ما تمنيت الإمارة إلا ليلتذ ، فلما كان الغد سأل عليه الصلاة والسلام عن علي بن أبي طالب فقيل له إنه أرمَد ، فأرسل مَنْ يأتيه به ، ولما جاء تَقَلَّ في عينيه فشفاهما الله كأن لم يكن بهما شيء ، ثم أعطاه الراية^(١)، فتوجه مع المسلمين للقتال ، وهناك وجدوا اليهود متجهزين ، فخرج يهودي يطلب البرّاز فقتله علي ، ثم خرج مَرَحَبٌ وهو أشجع القوم فألحقه برفيقه^(٢)، فخرج أخوه ياسر فقتله الزبير بن العوّام : ثم حمل المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقعهم ، وتبعوهم حتى دخلوا الحصن بالقوة وانهزم الأعداء إلى الحصن الذي يليه (وهو حصن الصعب) وغنم المسلمون من حصن ناعم كثيراً من الخبز والتمر ، ثم تتبعوا اليهود إلى حصن الصعب ، فقاتل عنه اليهود قتالاً شديداً حتى رُدَّ عنه المسلمون ، ولكن ثبت الحُبابُ بن المنذر ومن معه ، وقاتلوا قتالاً شديداً حتى هزموا اليهود فتبعوهم حتى افتتحوا عليهم الحصن ، فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام فأمر عليه الصلاة والسلام منادياً يقول : كلوا واعلفوا دوابكم ولا تأخذوا شيئاً ، ثم إن الذين انهزموا من هذا الحصن ساروا إلى حصن (حصن قلة) فتبعهم المسلمون ، وحاصروهم ثلاثة أيام حتى استصعب عليهم فتحه ، وفي اليوم الرابع دَلَّهم يهودي على جداول الماء التي يستقي منها اليهود ، فمنعوها عنهم فخرجوا وقاتلوا قتالاً شديداً انتهى بهزيمتهم إلى حصون الشَّقِّ ، فتبعهم المسلمون وبدأوا (بحصن أبي) ، فخرج أهلُه ، وقاتلوا قتالاً شديداً أبلى فيه أبو دجانة الأنصاري بلاءً حسناً حتى تمكن من دخول الحصن عنوة ، ووجد المسلمون فيه أثاثاً كثيراً ومتاعاً وغنماً

(١) فقال علي : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال : أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْر النعم .

(٢) توهم العبارة أن الذي قتل مرحب هو علي ، والذي في ابن هشام : أن الذي قتله هو محمد بن سلمة ، ولعله الصواب .

وطعاماً ، وهرب المنهزمون منه إلى (حصن البريء) ، فتمنعوا به أشد التمتع ، وكان أهله أشد اليهود رمياً بالنبل والحجارة حتى أصاب رسول الله بعض منه ، فنصب المسلمون عليه المنجنيق قوقع في قلب أهله الرعب ، وهربوا منه من غير عناء شديد . فوجد فيه المسلمون أواني لليهود من نحاس وفخار ، فقال عليه الصلاة والسلام : اغسلوها واطبخوها فيها . ثم تتبّع المسلمون بقايا العدو إلى حصون الكثبية ، وبدأوا (بحصن القموص) ، فحاصروه عشرين ليلة ثم فتحه الله على يد علي بن أبي طالب ، ومنه سُبيت صفية بنت حُيي بن أخطب ، ثم سار المسلمون لحصار حصني (الوطيح والسّاللم) ، فلم يقاوم أهلها بل سلّموا طالبين حقن دمائهم ، وأن يخرجوا من أرض خيبر بذراريهم لا يصطحب الواحد منهم إلا ثوباً واحداً على ظهره ، فأجابهم رسول الله إلى ذلك ، وغنم المسلمون من هذين الحصنين مائة درع ، وأربعمائة سيف ، وألف رمح ، وخمسمائة قوس عربية ، ووجدوا صحفاً من التوراة فسلموها لطالبيها . وقد أمر عليه الصلاة والسلام بقتل كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق لأنه أنكر حلي حبي بن أخطب وقد عثر عليها المسلمون ، فوجدوا فيها أساور ودمالج وخلائيل وقرطة وخواتيم الذهب وعقود الجواهر والزمرد وغير ذلك .

هذا والذين استشهدوا من المسلمين بخير خمسة عشر رجلاً ، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً ، وفي هذه الغزوة أهدت إحدى نساء اليهود^(١) كراع شاة مسمومة لرسول الله فأخذ منها مضغة ثم لَفَظَهَا حيث أعلم أنها مسمومة ، وأكل منها بِشْر بن البراء^(٢) فمات لوقته ، واحتجم رسول الله ﷺ وحيء له بالمرأة التي فعلت هذه الفعلة فسألها عن سبب ذلك فأجابت : قلت إن كان نبياً لن يضّرّه ، وإن كان كاذباً أراحنا الله منه ، فعفا عنها عليه الصلاة والسلام^(٣) .

(١) هي زينب بنت الحارث امرأة سلام .

(٢) ابن معرور الأنصاري الخزرجي ، شهد العقبة وبدراً وما بعدها ، وكان من الرماة المشهورين .

(٣) اختلف العلماء هل قتلها النبي ﷺ أم لا ؟ .

زواج صفية^(١)

وبعد تمام الظفر والنصر تزوج عليه الصلاة والسلام صفية بنت حيي سيد بني نضير وأصدقها عَتَقَهَا ، وقد أسلمت رضي الله عنها ، فَشُرِّفَتْ بِأُمُومَةِ الْمُؤْمِنِينَ .

النهي عن نكاح المتعة

ونهى عليه الصلاة والسلام وهو بخيبر عن نكاح المتعة، وهي النكاح لأجل وقد كان حلالاً في الجاهلية ، واستعمل في بدء الإسلام حتى حرّمه الشرع في هذه السنة ونهى كذلك عن أكل لحوم الْحُمُرِ الْأَهْلِيَةِ فَأَكْفَأَ الْمُسْلِمُونَ قُدُورَهَا بعد أن نضجت ولم يطعموها .

رجوع مهاجري الحبشة

وحين رجوع المسلمين من خيبر قَدِمَ مِنَ الْحَبَشَةِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمَعَهُ الْأَشْعَرِيُّونَ أَبُو مُوسَى وَقَوْمُهُ ، بعد أن أقاموا فيها نحواً من عشر سنين آمنين مطمئنين ، وفرح عليه الصلاة والسلام بمقدمهم فرحاً عظيماً^(٢) ، وأعطى للأشعريين من مغانم الحصون المفتوحة صلحاً ، وكان مع جعفر أُمُّ حَبِيبَةَ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وقدم في هذا الوقت على النبي عليه الصلاة والسلام الدوسيون إخوان أبي هريرة رضي الله عنه وهو معهم ، فأعطاهم أيضاً رسول الله ﷺ^(٣) .

(١) كانت في الجاهلية من ذوات الشرف .

(٢) وفي سيرة ابن هشام ٣٥٩/٢ ، أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قدم على رسول الله يوم فتح خيبر ، فقبل رسول الله ﷺ بين عينيه والتزمه .

(٣) وقد قسم رسول الله ﷺ غنائم خيبر فأعطى الرجال سهماً والفراس ثلاثة بعد أن خمسها ثم

فتح فَدَك

وبعد تمام الفتح أرسل عليه الصلاة والسلام مَنْ يطلب من يهود فدك^(١) الإنقياد والطاعة فصالحوا رسول الله على أن يحقن دماءهم ويتركوا الأموال . وكانت أرض فدك هذه لرسول الله خاصّة يُنفق منها على نفسه ، ويعول منها صغير بني هاشم ويزوج منها أيمهم^(٢) .

صلح تيماء

ولما بلغ يهود تيماء^(٣) ما فعله المسلمون بيهود خيبر صالحوا على دفع الجزية ومكثوا في بلادهم آمنين مطمئنين .

فتح وادي القرى

ثم دعا عليه الصلاة والسلام يهود وادي القرى^(٤) إلى الإستسلام فأبوا وقتلوا ، فقاتلهم المسلمون ، وأصابوا منهم أحد عشر رجلاً ، وغنموا منهم غنائم كثيرة ، خَمَسَهَا عليه الصلاة والسلام ، وترك الأرض في أيدي أهلها يزرعونها بشطر ما يُخرجون منها ، وكذلك صنع بأرض خيبر ، وكان يرسل إليهم عبدالله بن رواحة لتقدير الثمر ، وكان تقديره شديداً عليهم فأرادوا أن يرشوه ، فقال لهم : يا أعداء الله تعطوني السُّحت^(٥) ! والله لقد جئتكم من عند أحبّ الناس إليّ ، ولأنتم

= دفع لأهل خيبر الأرض ليعملوا فيها بشطر ما يخرج منها من ثمر وزرع وقال لهم (إنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم) عن السيرة الحلبية .

(١) حصن قريب من خيبر على ست ليالٍ من المدينة . المؤلف .

(٢) الأيم : من لا زوج لها بكرةً أو ثيباً .

(٣) قرية على ثمان مراحل من المدينة .

(٤) ويقال لها أيضاً غزوة وادي القرى ، وهو وادٍ بين المدينة والشام .

(٥) السحت : الحرام .

أبغض إليّ من القردة والخنازير ، ولا يحملني بغضي إياكم وحبّي إياه على ألاّ أعدل . هذا وبانقياد جميع اليهود المجاورين للمدينة ارتاح المسلمون من شرّ عدو كان يتربص بهم الدوائر ، مهما كان من الفريقين من العهود والمواثيق . ورجع المسلمون مؤيدين ظافرين .

اسلام خالد ورفيقه

وأعقب هذه الغزوة وهذا الفتح المبين إسلام ثلاثة طالما كانت لهم اليد الطولى في قيادة الجيوش لحرب المسلمين وهم : خالد بن الوليد المخزومي ، وعمرو بن العاص السهمي^(١)، وعثمان بن طلحة العبدري^(٢) فسُرّ بهم عليه الصلاة والسلام سروراً عظيماً وقال لخالد : (الحمد لله الذي هداك ، قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوت ألاّ يسلمك إلاّ إلى خير) فقال : يا رسول الله ادعُ الله أن يغفر تلك المواطن التي كنت أشهدا عليك ، فقال عليه الصلاة والسلام : « الإسلام يقطع ما قبله »^(٣).

سرية^(٤)

وفي شعبان بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من هوازن بثّر^(٥) يظهرون العدو للمسلمين ، فأرسل لهم عمر بن الخطاب في ثلاثين رجلاً ، فسار إليهم . ولما بلغهم الخبر تفرقوا فلم يجد بها عمر أحداً فرجع .

(١) أسلم عمرو بن العاص قبل الفتح في صَفَر سنة ثمان .

(٢) في الأصل : عثمان بن أبي طلحة وهو خطأ ، لأن عثمان بن أبي طلحة قتل في غزوة أُحد كافرًا .

(٣) فإن الاسلام يجب ما كان قبله ، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها .

(٤) هي سرية عمر بن الخطاب إلى ثُرّة .

(٥) وإد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها . المؤلف .

سرية^(١)

ثم أرسل بشير بن سعد الأنصاري لقتال بني مرّة بناحية فدك فلما ورد بلادهم لم يرَ منهم أحداً فأخذ نَعَمَهم وانحدر إلى المدينة أما القوم فكانوا في الوادي ، فجاءهم الصريخ فأدركوا بشيراً ليلاً وهو راجع فتراموا بالنبل . ولما أصبح الصبح اقتتل الفريقان قتالاً شديداً حتى قُتل غالبُ المسلمين ، وجُرحَ بشير جرحاً شديداً حتى ظن أنه مات ، ولما انصرف عنه العدو تحامل حتى جاء إلى رسول الله وأخبره الخبر .

وفي رمضان أرسل عليه الصلاة والسلام غالب بن عبد الله الليثي^(٢) إلى أهل الميعة^(٣) في مائة وثلاثين رجلاً فساروا حتى هجموا على القوم فقتلوا بعضاً وأسروا آخرين ، وفي أثناء الحرب طارد أسامة بن زيد رجلاً من المشركين ، ولما رأى المشرك الموت في يد أسامة تشهّد فظن أسامة أن عدوه إنما قال ذلك تخلصاً فقتله ، ولما رجع المسلمون إلى المدينة ، وأخبر رسول الله بفعله أسامة قال : أقتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله ، فكيف تصنع بلا إله إلا الله ؟ ! قال : يا رسول الله إنما قالها متعوذاً^(٤) من القتل ، قال عليه الصلاة والسلام : فهلاً شققت عن قلبه فتعلم أصادق أم كاذب ؟ ! فقال يا رسول الله : استغفر لي . قال عليه الصلاة والسلام : فكيف بلا إله إلا الله ! ! فما زال يكررها حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم قبل ذلك اليوم^(٥) ، وأنزل الله في ذلك في سورة النساء : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ

(١) هي سرية بشير بن سعد إلى بني مرّة بفدك .

(٢) هي سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميعة .

(٣) على ثمانية بُرد من المدينة بناحية نجد . المؤلف .

(٤) أي لم يكن قاصداً للإيمان .

(٥) ليخلص من جريرة هذه الفعلة .

اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٍ ﴿١﴾ ثُمَّ أَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُسَامَةَ أَنْ يَعْتَقَ رَقَبَةً كِفَارَةً لِأَنَّهُ قَتَلَ خَطَأً .

سرية (٢)

وفي شوال بلغه عليه الصلاة والسلام أن عُيَيْنَةَ بن حصن واعدَ جماعة من غطفان كانوا مقيمين قريباً من خيبر بأرض اسمها يَمُنَّ وَجَبَّارٌ لِلإِغَارَةِ عَلَى الْمَدِينَةِ ، فَأَرْسَلَ لَهُمْ بِشِيرَ بن سعد في ثلاثمائة رجل ، فَسَارُوا إِلَيْهِمْ يَكْمُنُونَ النَّهَارَ ، وَيَسِيرُونَ اللَّيْلَ حَتَّى أَتَوْا مُحَلَّتَهُمْ ، فَأَصَابُوا نَعْمًا كَثِيرَةً ، وَتَفَرَّقَ الرُّعَاءُ فَأَخْبَرُوا قَوْمَهُمْ فَفَزَعُوا وَلَحَقُوا بَعُلْيَا بِلَادِهِمْ ، وَلَمْ يَظْفَرْ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا بِرَجُلَيْنِ أَسْلَمَا ، ثُمَّ رَجَعُوا بِالْغَنَائِمِ إِلَى الْمَدِينَةِ .

عمرة القضاء (٣)

لَمَّا حَالَ الْحَوْلُ عَلَى عَمْرَةِ الْحَدِيثِيَّةِ خَرَجَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمَنْ صُدَّ مَعَهُ فِيهَا لِيَقْضِيَ عَمْرَتَهُ ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ أَبَا ذَرَّ الْغِفَارِي ، وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ سَتِينَ بَدَنَةً ، وَأَخْرَجَ مَعَهُ السِّلَاحَ حِذْرًا مِنْ غَدَرِ قَرِيشٍ ، وَكَانَ مَعَهُ مِائَةُ فَرَسٍ عَلَيْهَا مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَعَلَى السِّلَاحِ بِشِيرُ بْنُ سَعْدٍ ، وَأَحْرَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ الْمَدَنِيِّ ، وَلَمَّا انْتَهَى إِلَى ذِي الْحُلَيْفَةِ قَدَّمَ الْخَيْلَ أَمَامَهُ ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، حَمَلْتَ السِّلَاحَ ، وَقَدْ شَرَطُوا أَلَّا تَحْمِلَهُ ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : لَا نَدْخُلُ الْحَرَمَ بِهِ وَلَكِنْ يَكُونُ قَرِيبًا مِنَّا ، فَإِنْ هَاجَنَا هَاجَ فَرَزَعْنَا لَهُ . فَلَمَّا كَانَ بِمَرِّ الطَّهْرَانِ قَابَلَهُ نَفَرٌ مِنْ قَرِيشٍ ، فَفَزَعُوا مِنْ هَذِهِ الْعِدَّةِ ، وَأَسْرَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَأَخْبَرُوهُمْ فَجَاءَهُ فِتْيَانٌ مِنْهُمْ وَقَالُوا : وَاللَّهِ يَا مُحَمَّدُ

(١) سورة النساء الآية : ٩٤ .

(٢) هي سرية بشير بن سعد إلى يَمَنَ .

(٣) وسميت بذلك لأنه عاهد فيها قريشاً سنة الحديبية .

ما عُرِفَت بالغدر صغيراً ولا كبيراً ، وإِنَّا لم نحدث حَدَثاً ! ! فقال : إِنَّا لا ندخل الحرم بالسلاح . ولما حان وقت دخوله مكة خرج أهلوها كارهين رؤية المسلمين يطوفون بالبيت ، فدخل عليه الصلاة والسلام وأصحابه متوشحين سيوفهم من ثَنِيَّة كداء^(١) وأمامه عبد الله بن رواحة يقول : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده . وطاف عليه الصلاة والسلام بالبيت وهو على راحلته واستلم الحجر بمحجنه^(٢) ، وأمر أصحابه أن يسرعوا ثلاثة أشواط إظهاراً للقوة لأن المشركين قالوا : سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حُمَى يثرب ، فقال عليه الصلاة والسلام : رحم الله امرأً أراهم من نفسه قوة ، واضطبع^(٣) عليه الصلاة والسلام بردائه ، وكشف عضده اليمنى شأن الفتوة وفعل مثله المسلمون ، وقد أتمَّ المسلمون طوافهم بالبيت آمنين محلِّقين رؤوسهم ومقصرين كما رأى عليه الصلاة والسلام في منامه .

زواج ميمونة^(٤)

وتزوج ﷺ وهو بمكة ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج عمه حمزة بن عبد المطلب شهيد أُحُد^(٥) ، وخالة عبد الله بن العباس - وهي آخر نسائه زواجاً - ولم يدخل بها إلا بعد الخروج من مكة حيث كان يسير^(٦) ، ولما خرج عليه الصلاة والسلام أمر الذين كان تركهم لحراسة الخيل بالذهاب ليطوفوا ففعلوا ، ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة فرحاً ومسروراً بما حَبَّاه الله من تصديق رؤياه .

(١) الثنية : كل عقبة مسلوكة .

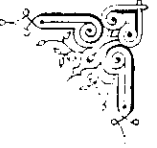
(٢) عصا معوجة الرأس .

(٣) الإضطباع : أن يجعل الرجل وسط ردائه تحت منكبه الأيمن عند إبطه .

(٤) ميمونة - أم المؤمنين - بنت الحارث ، كان اسمها برة فسماها النبي ﷺ ميمونة .

(٥) لم تكن ميمونة زوج عمه حمزة كما ذكر المؤلف بل كانت زوج أبي رهم بن عبد العزى .

(٦) موضع قرب التنعيم .



السنة الثامنة

سرية (١)

وفي صَفَر أرسل عليه الصلاة والسلام غالب بن عبد الله الليثي إلى بني المُلَوَّح ، وهم قوم من العرب يسكنون بالكَدِيد^(٢) ، فسار القوم حتى إذا كانوا بِقُدَيْد التقوا بالحارث بن مالك الليثي المعروف بابن البرصاء ، وكان خصماً لدوداً فأسروه ، فقال لهم : ما جئت إلا للإسلام ، فقالوا له : إن تكن مسلماً لن يضرَّك رباط ليلة وإلا استوثقنا منك ، ثم ساروا حتى وصلوا محلة بني المُلَوَّح فاستاقوا النعم والشاء ، وخرج الصريخ إلى القوم فجاءهم ما لا قبل لهم به ، ولكن من الله على المسلمين ، فأرسل سيلاً شديداً حال بينهم وبين عدوهم حتى صار المشركون يرون نَعَمَهُمْ تُساق وهم لا يقدرُونَ على رَدِّها .

سرية (٣)

ولما رجع غالب إلى المدينة ظافراً أرسله عليه الصلاة والسلام في

(١) هي سرية غالب بن عبد الله الليثي .

(٢) ماء بين عسفان وقديد .

(٣) هي سرية غالب .

مائتي رجل لِيَقْتَصَّ من بني مِرةً بفدك وهم الذين أصابوا سرية بشير بن سعد فساروا حتى إذا كانوا قريباً من القوم خطب غالب فيمن معه ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : (أما بعد فإنني أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له ، وأن تطيعوني ولا تخالفوا لي أمراً فإنه لا رأي لمن لا يُطاع) ثم آخى بين الجند فقال : يا فلان أنت وفلان ، ويا فلان أنت وفلان لا يفارق أحد منكم زميله ، وإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له : أين صاحبك ؟ فيقول : لا أدري ، فإذا كَبُرَتْ فكَبَّرُوا ، فلما أحاطوا بالعدو ، وكَبَّرَ كَبَّرُوا ، وجردوا السيوف ، فلم يفلت من عدوهم أحد واستاقوا نعمهم ، فكان لكل واحد من الغزاة عشرة أبيرة .

سرية^(١)

وفي ربيع الأول أرسل عليه الصلاة والسلام كعب بن عُمير الغفاري^(٢) إلى ذات أطلاق^(٣) من أرض الشام في خمسة عشر رجلاً فوجدوا جمعاً كثيراً فدعواهم إلى الإسلام فلم يجيبوا وقتلوا ، وكانوا أكثر عدداً ، فاستشهد المسلمون عن آخرهم إلا رئيسهم كعب بن عمير فإنه نجا ، وأتى بالخبر إلى رسول الله فَشَقَّ عليه ، وأراد أن يبعث إليهم من يقتص منهم ، فبلغه أنهم تحوّلوا من منزلهم فعدل عن ذلك .

غزوة مؤتة^(٤)

جهَّز عليه الصلاة والسلام في جمادى الأولى جيشاً للقصاص ممَّن

(١) هي سرية كعب بن عمير

(٢) من كبار الصحابة بعثه رسول الله ﷺ مرة بعد مرة أميراً على السرايا، ابن الأثير في أسد الغابة

(٣) موضع قرب وادي القرى .

ج ٤ ص ٤٨٥ .

(٤) عذها بعضهم سرية كما في المواهب .

قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسوله إلى أمير بصرى ، وأمر عليهم زيد بن حارثة ، وقال لهم : إن أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة^(١) . وكان عدّة الجيش ثلاثة آلاف ، فساروا وشيّعهم عليه الصلاة والسلام ، وكان فيما وصّاهم به : « اغزوا باسم الله فقاتلوا عدوّ الله وعدوّكم بالشام ، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً ، ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً » ولم يزلوا سائرين حتى وصلوا مؤتة^(٢) مقتل الحارث بن عمير ، وهناك وجدوا الروم قد جمعوا لهم جمعاً عظيماً ، منهم ومن العرب المنتصرة . فتفاوض رجال الجيش فيما يفعلونه : أيرسلون لرسول الله يطلبون منه مدداً أم يقدمون على الحرب ؟ فقال عبد الله بن رواحة : يا قوم والله إن الذي تكرهون هو ما خرجتم له ، خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل بعدد ولا بقوة ولا بكثرة ، ما نقاتل إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله تعالى به ، فإنما هي إحدى الحسينين إما الظهور وإما الشهادة ، فقال الناس : صدق والله ابن رواحة . ومضوا للقتال ، فلقوا هذه الجموع المتكاثرة ، فقاتل زيد بن حارثة رضي الله عنه حتى استشهد ، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب وهو يقول :

يا حبّذا الجنة واقترابها طيبةً وباردُ شَرابها
والرومُ رومٌ قد ذنا عذابها كافرةٌ بعيدهُ أنسابها
عليّ إذا لاقيتها ضرابها

ولم يزل يقاتل حتى استشهد رضي الله عنه^(٣) ، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فتقدم ثم تردد بعض التردد ، فقال يخاطب نفسه :

(١) زاد في الزرقاني : فإن قتل فليترص المسلمون برجل من بينهم يجعلونه عليهم .

(٢) قرية قريبة من الكرك وهي مشارف الشام . المؤلف .

(٣) وقصته : أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضي الله عنه ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء .

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّه طائعة أو لَتُكْرِهَنَّه
 إن أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدَّوْا الرِّثَّةَ مَا لِي أُرَاكَ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ (١)
 قَدْ طَالَ مَا قَدْ كُنْتَ مُطْمَئِنَّةً هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّةٍ؟ (٢)

ثم اقتحم بفرسه المعمرة ولم يزل يقاتل رضي الله عنه حتى
 استشهد ، فهمَّ بعض المسلمين بالرجوع إلى الوراء ، فقال لهم عقبة بن
 عامر يا قوم : يُقْتَلُ الْإِنْسَانُ مَقْبَلًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُقْتَلَ مَدْبِرًا ، فترجعوا واتفقوا
 على تأمير الشهم الباسل خالد بن الوليد ، وبهيمته ومهارته الحربية حمى هذا
 الجيش من الضياع إذ ما تفعل ثلاثة آلاف بمائة وخمسين ألفاً (٣) ، فإنه لما
 أخذ الراية قاتل يومه قتالاً شديداً . وفي غده خالف ترتيب العسكر . فجعل
 الساقة مقدمة ، والمقدمة ساقة ، والميمنة ميسرة ، والميسرة ميمنة ، فظنَّ
 الروم أن المدد جاء للمسلمين فرعبوا . ثم أخذ خالد الجيش وصار يرجع
 إلى الوراء حتى انحاز إلى مؤتة ، ثم مكث يناوش الأعداء سبعة أيام ثم
 تحاجز الفريقان لأن الكفار ظنوا أن الأمداد تتوالى للمسلمين ، وخافوا أن
 يجروهم إلى وسط الصحارى حيث لا يمكنهم التخلص وبذلك انقطع
 القتال ، « وقد نعى النبي ﷺ زيдаً وجعفرأً وابن رواحةً للناس قبل أن
 يأتيهم خبرهم (٤) » ، فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر
 فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ، وكانت عينا رسول الله تذرфан ،
 ثم قال : حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » ،
 « وجاءه رجل فقال : يا رسول الله إن نساء جعفر يبيكين ، فأمره أن ينهأهن ،
 فذهب الرجل ثم أتى فقال : قد نهيتهن فلم يُطعن ! فأمره فذهب ثانياً ، ثم
 جاء فقال : والله لقد غلبتنا ، فقال له عليه الصلاة والسلام : أحث في

(١) أجلب الناس : صاحوا واجتمعوا .

(٢) النطفة : الماء القليل الصافي .

(٣) عدد جيش الروم مائة ألف ، وانضم اليهم مائة ألف أخرى .

(٤) رفعت الأرض لرسول الله ﷺ حتى نظر إلى معترك القوم .

أفواههم التراب»^(١) ، ولما أقبل الجيش إلى المدينة قابلهم المسلمون يقولون لهم : يا فُرَّار ، فقال عليه الصلاة والسلام بل هم الكُرَّار ! ظن المقيمون بالمدينة أن انحياز خالد بالجيش هزيمة ، ولكن رسول الله ﷺ أراهم أن ذلك من مكاييد الحرب وأثنى على خالد في مهارته .

سرية^(٢)

وفي جمادى الآخرة بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من قضاة يتجمعون في ديارهم وراء وادي القرى ليُغيروا على المدينة ، فأرسل لهم عمرو بن العاص في ثلاثمائة رجل من سراة^(٣) المهاجرين والأنصار ، ثم أمده بأبي عبيدة بن الجراح^(٤) في مائتين من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر ، فلحقوا عمراً قبل أن يصل إلى القوم ، وقد أراد رجال من الجيش إيقاد نار فمنعهم عمرو ، فأنكر عليه عمر بن الخطاب ، فقال أبو بكر : إنما بعثه رسول الله علينا رئيساً لمعرفة بالحرب أكثر منا فلا تعصه ، فامتلئ ، ولما حلُّوا بساحة القوم حملوا عليهم فلم يكن أكثر من ساعة حتى تفرق الأعداء منهزمين ؛ فجمعوا غنائمهم وأرادوا اتباع أثرهم فمنعهم قائدهم ، ثم رجعوا إلى المدينة ظافرين ، وبينما هم في الطريق أدركت عمرو بن العاص جنابة في ليلة باردة فلما أصبح قال : إن أنا اغتسلت هلكت والله يقول : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾^(٥) ثم تيمم وصلى ، ثم أمر بالسير حتى إذا وصلوا إلى المدينة قام رسول الله عليه الصلاة والسلام يسأل عن أنباء سفرهم كما هي عادته ، فأخبروه بما نقموه من عمرو بن العاص من نهيهم عن إيقاد النار ونهيهم عن اتباع العدو وصلاته

(١) هذا الحديث والذي قبله أخرجهما البخاري .

(٢) هي سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل .

(٣) سراة : وهو النفس الشريف .

(٤) لأن عمراً بلغه أن لهم جمعاً كثيراً .

(٥) سورة البقرة الآية : ١٩٥ .

جُنْباً ، فسأله عليه الصلاة والسلام عن ذلك فقال : منعهم من إيقاد النار لئلا يرى العدو قَلَّتْهم فيطمع فيهم ، ونهيتهم عن اتباع العدو لئلا يكون له كمين ، وصَلَّيت جنْباً لأن الله يقول : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ وإن أنا اغتسلت هلكت ، فتبسم عليه الصلاة والسلام وأثنى على عمرو خيراً .

سرية^(١)

وفي رجب أرسل عليه الصلاة والسلام أبا عبيدة عامر بن الجراح في ثلاثمائة فارس لغزو قبيلة جُھينة التي تسكن ساحل البحر^(٢) ، وزوّد عليه الصلاة والسلام هذا الجيش جراباً من التمر ، فساروا حتى إذا وصلوا الساحل أقاموا فيه نحو نصف شهر ينتظرون العدو ، وقد فني زادهم حتى أكلوا الخَبَطَ (وهو ورق السُّمر) يبلونه بالماء ويأكلونه إلى أن تقرّحت أشداقهم^(٣) ، وكان في القوم الكريم ابن الكريم قيس بن سعد بن عبادة^(٤) فنحر لهم ثلاث جزر في كل يوم جزور . وفي اليوم الرابع أراد أن ينحر فنهاه رئيسه أبو عبيدة ، لأن قيساً كان أخذ بتلك الجزر بدين على أبيه ، فخاف أبو عبيدة ألا يفني له أبوه بما استدان ، فقال قيس : أترى سعداً يقضي ديون الناس ، ويطعم في المجاعة ، ولا يقضي ديناً استدنته لقوم مجاهدين في سبيل الله ؟! ولما يشؤا من لقاء عدوهم رجعوا إلى المدينة ، فقال قيس بن سعد لأبيه : كنت في الجيش فجاعوا ، قال : انحر ، قال : نحر ، قال : ثم جاعوا قال : انحر ، قال : نحر ، قال : ثم جاعوا ، قال : ثم جاعوا قال : انحر ، قال : نحر ، قال : ثم جاعوا ، قال : ثم جاعوا

(١) هي سرية الخطب .

(٢) ولرصد غير قریش .

(٣) اقرأ قصة حوت العنبر الذي خرج من البحر فأكل منه الصحابة شهراً حتى فويت أبدانهم . في البخاري ومسلم .

(٤) كان قيس ضخماً حسناً طويلاً سخياً كريماً داهية .

قال : انحر ، قال : نحررت ، قال : ثم جاعوا ، قال : انحر ، قال :
نُهِيت .

غزوة الفتح الأعظم

إذا أراد الله أمراً هياً أسبابه وأزال موانعه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يعلم أنه لا تذُلُّ العرب حتى تذُلَّ قريش ، ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة ، فكان يتشوف لفتحها ، ولكن كان يمنعه من ذلك العهود التي أعطاه قريشاً في الحديبية وهو سيد من وَفَى . ولكن إذا أراد الله أمراً هياً أسبابه ، فقد علمت أن قبيلة خزاعة دخلت في عهد رسول الله ، وقبيلة بني بكر دخلت في عهد قريش ، وكان بين خزاعة وبني بكر دماء في الجاهلية كملت نارها بظهور الإسلام ، فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بني بكر^(١) يتغنى بهجاء الرسول ﷺ على مسمع من رجل خزاعي^(٢) ، فقام هذا وضربه فحرَّك ذلك كامن الأحقاد ، وتذكر بنو بكر ثأرهم فشَدُّوا العزيمة لحرب خصومهم ، واستعانوا بأوليائهم من قريش فأعانوهم سراً بالعدة والرجال ، ثم توجهوا إلى خزاعة وهم آمنون فقتلوا منهم ما يربو على العشرين ، ولما رأى ذلك حلفاء السيد الأمين أرسلوا منهم وفداً برياسة عمرو بن سالم الخزاعي ليخبر رسول الله بما فعل بهم بنو بكر وقريش ، فلما حلُّوا بين يديه ، وأخبروه قال : (والله لأمنعنكم مما أمتع نفسي منه) . أما قريش فإنهم لما رأوا أن ما عملوه نقض للعهد التي أخذت عليهم ندموا على ما فعلوا ، وأرادوا مداواة هذا الجرح ، فأرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليشدَّ العقد^(٣) ويزيد في المدة ، فركب راحلته - وهو يظن أنه لم يسبقه أحد - حتى إذا جاء المدينة نزل على أم المؤمنين أم حبيبة بنته ، وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله فطوته عنه ، فقال يا بنية : أرغبت به عني

(١) هو نوفل بن معاوية الديلي .

(٢) يقال له مُنَبِّه .

(٣) أي ليجدد العهد .

أم رغبت بي عنه ؟ فقالت : ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس ، فقال : لقد أصابك بعدي شر . ثم خرج من عندها ، وأتى النبي في المسجد ، وعرض عليه ما جاء له فقال له عليه الصلاة والسلام : هل كان من حَدَث ؟ قال : لا ، فقال عليه الصلاة والسلام فنحن على مدتنا وصلحنا ، ولم يزد عن ذلك . فقام أبو سفيان ومشى إلى أكابر المهاجرين من قريش لعَلَّهم يساعدونه على مقصده^(١) ، فلم يجد منهم مُعيناً وكلهم قالوا : جوارنا في جوار رسول الله فرجع إلى قومه ولم يصنع شيئاً ، فاتهموه بأنه خانهم وأتبع الإسلام ، فتنسك عند الأوثان لينفي عن نفسه هذه التهمة .

أما رسول الله ﷺ فتجهز للسفر ، وأمر أصحابه بذلك ، وأخبر الصديق بالوجهة فقال له : يا رسول الله أو ليس بينك وبين قريش عهد؟ قال : نعم ولكن غدروا ونقضوا . ثم استنفر عليه الصلاة والسلام الأعراب الذين حول المدينة ، وقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجُهيينة ، وطوى عليه الصلاة والسلام الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر ، فتعلم قريش فتستعد للحرب ، والرسول عليه الصلاة والسلام لا يريد أن يُقيم حرباً بمكة بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحُرمتها ، فدعا موله جلّ ذكره وقال : «اللهم خذِ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها»^(٢) في بلادها» فقام حاطب بن أبي بلتعة أحد الذين شهدوا بدرًا ، وكتب كتاباً لقريش يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ ، وأرسله مع جارية لتوصله إلى قريش على جُعلٍ ، فأعلم الله رسوله ذلك ، فأرسل في أثرها عليّاً والزبير والمقداد وقال : إنطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة^(٣) معها كتاب فخذوه منها ،

(١) اقرأ إخفاق أبي سفيان مع كبار الصحابة في كتب السير .

(٢) نبغتها : المفاجأة .

(٣) الظعينة : المرأة في اليهودج .

فانطلقوا حتى أتوا الروضة، فوجدوا بها المرأة، فقالوا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب! فقالوا: لتخرجي الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عِقَاصِهَا^(١)، فأتوا به رسول الله^(٢) فقال عليه الصلاة والسلام: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت حليفاً لقريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال عليه الصلاة والسلام: أما أنه قد صدقكم، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: إنه قد شهد بديراً وما يدريك لعل الله أطلع على من شهد بديراً، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم^(٣) وفي ذلك أنزل الله في سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٤) ثم سار عليه الصلاة والسلام بهذا الجيش العظيم في منتصف رمضان بعد أن ولَّى على المدينة ابنَ أُمِّ مَكْتُوم^(٥) وكانت عدَّة الجيش عشرة آلاف مجاهد، ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من أشدَّ أعدائه وهما: ابن عمه أبو

(١) أي ضفيرتها.

(٢) ولفظ الكتاب: «أما بعد يا معشر قريش، فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش كالليل يسير كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله، وأنجز له وعده، فانظروا لأنفسكم والسلام». وفي تفسير ابن سلام أنه كان في الكتاب الذي كتبه حاطب أن النبي محمداً قد نفر إنا إليكم وإنا إلى غيركم فعليكم الحذر.

(٣) وفي رواية فقد وجبت لكم الجنة وفي رواية لا يدخل النار أحد شهد بديراً وفي قوله تعالى: ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾ منقبة عظيمة لحاطب رضي الله عنه لأن في ذلك الشهادة له بالآيمان - السيرة الحلبية.

(٤) سورة الممتحنة الآية: ١.

(٥) وقيل: أبا رُهم كلثوم بن الحصين الغفاري.

سفيان^(١) بن الحارث بن عبد المطلب شقيق عبيدة بن الحارث شهيد بدر^(٢)، وصهره عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة شقيق زوجته أم سلمة^(٣) وكانا يريدان الإسلام فقبلهما عليه الصلاة والسلام وفرح بهما شديد الفرح وقال: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٤) ولما وصل عليه الصلاة والسلام الكديد رأى أن الصوم شق على المسلمين، فأمرهم بالفطر وأفطر هو أيضاً، وقد قابل عليه الصلاة والسلام في الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجراً بأهله وعياله، فأمره أن يعود معه إلى مكة ويرسل عياله إلى المدينة ولما وصل عليه الصلاة والسلام مرّ الظهران أمر بابقاد عشرة آلاف نار^(٥)، وكانت قريش قد بلغهم أن محمداً زاحف بجيش عظيم لا تدري وجهته، فأرسلوا أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبُدَيْل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مرّ الظهران فإذا هم بنيران كأنها نيران عَرَفَة، فقال أبو سفيان: ما هذه؟ لكانها نيران عَرَفَة! فقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو^(٦)، فقال أبو سفيان: عمرو أقل من ذلك، فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله، فأسلم أبو سفيان، فلما سار قال للعباس: احبس أبا سفيان عند خَطَمِ الجبل^(٧) حتى ينظر إلى المسلمين، فحبسه العباس فجعلت القبائل تمرّ كتيبة كتيبة على أبي سفيان وهو يسأل ويقول ما لي ولها، حتى إذا مرّت به قبيلة الأنصار وحامِل رايته سعد بن عبادة فقال سعد: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة^(٨)، اليوم تُسَحَلُّ

(١) وأخوه من الرضاعة أيضاً.

(٢) الصحيح أن أبا سفيان بن الحارث ليس شقيقاً لعبيدة.

(٣) وابن عمته عاتكة.

(٤) سورة يوسف الآية: ٩٢.

(٥) وذلك لئلا تراها قريش.

(٦) يعني خزاعة.

(٧) أي أنف الجبل.

(٨) يوم الملحمة: أي يوم حرب.

الكعبة. فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يومُ الذُّمار^(١). ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب^(٢) فيها رسول الله بمقالة سعد. فقال عليه الصلاة والسلام كذب سعد، ولكن هذا يوم يُعظَّم الله فيه الكعبة ويوم تُكسى فيه الكعبة. ثم أمر عليه الصلاة والسلام أن تركز رايته بالحجون^(٣)، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من كدي^(٤) ودخل هو من أعلاها من كداء ونادى مناديه: مَنْ دخل داره وأغلق بابَه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وهذه أعظم منة له، واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم، وأذوا الإسلام وأهله عظيم الأذى، فأهدر دمهم وإن تعلقوا بأستار الكعبة منهم: عبدالله بن سعد بن أبي سرح^(٥) الذي أسلم وكتب لرسول الله الوحي ثم ارتدّ وافتري الكذب على الأمين المأمون، فكان يقول: إن محمداً كان يأمرني أن أكتب عليم حكيم فأكتب غفور رحيم، فيقول كل جيد! ومنهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، وهبار بن الأسود، والحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية^(٦) وكعب بن زهير ووحشي قاتل حمزة، وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان وقليل غيرهم، ونهى عن قتل أحد سوى هؤلاء إلا من قاتل، فأما جيش خالد بن الوليد فقابلهُ الذعر من قريش يريدون صدّه، فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين، وقتل من جيشه اثنان، ودخلها عنوة من هذه الجهة، وأما جيش رسول الله ﷺ فلم يصادف مانعاً وهو عليه الصلاة والسلام راكب راحلته منحنٍ على الرحل تواضعاً لله وشكراً له على هذه النعمة حتى تكاد جبهته تَمَسُّ الرحل، وأسامة بن زيد رديفه، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان حتى وصل إلى الحجون موضع رايته، وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة وميمونة، فاستراح قليلاً ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ

(١) يوم الذُّمار: أي الهلاك.

(٢) لأن عدد المهاجرين كان أقل من عدد غيرهم من القبائل.

(٣) جبل بمحلة مكة. المؤلف.

(٤) كدي: جبل مسفلة مكة على طريق اليمن.

(٥) كان أحد النجباء الكرام من قريش فاتح إفريقية.

(٦) وهو أخو أم سلمة أم المؤمنين.

سورة الفتح حتى بلغ البيت ، وطاف سبعة على راحلته ، واستلم الحجر بمحجنه ، وكان حول الكعبة إذ ذاك ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل عليه الصلاة والسلام يطعنونها بعود في يده ، ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل وما يُعبد)^(١) ، ثم أمر بالآلهة فأخرجت من البيت وفيها صورة إسماعيل وإبراهيم في أيديهما الأزام ، فقال عليه الصلاة والسلام : (قاتلهم الله لقد علموا ما استقسموا بها قط)^(٢) !! وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة ، وبطهارة الكعبة المقدسة عند جميع العرب باديها وحاضرها من هذه الأدناس سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب إلا قليلاً . ويوشك ان نذكر للقارئ اختفاء ومحو عبادتها بالكلية .

العفو عند المقدرة

ثم إن النبي ﷺ دخل الكعبة وكبر في نواحيها ، ثم خرج إلى مقام إبراهيم ، وصلى فيه ركعتين ، ثم شرب من زمزم ، وجلس في المسجد والناس حوله والعيون شاخصة إليه ينتظرون ما هو فاعل بمشركي قريش الذين آذوه ، وأخرجوه من بلاده وقتلوه ، ولكن هنا تظهر مكارم الأخلاق التي يلزم أن يتعلم منها المسلم ، أن يكون رضاه وغضبه لله لا لهوى النفس ، فقال عليه الصلاة والسلام : يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال عليه الصلاة والسلام : اذهبوا فأنتم الطلقاء^(٣) ، ويرحم الله الإمام البوصيري^(٤) حيث قال :

وإذا كان القطع والوصل لله تساوى التقريب والإقصاء
وسواء عليه فيما أتاه من سواء الملام والإطراء
ولو أن انتقامه لهوى النفس سر لدامت قطيعة وجفاء

(١) وزهق : اضمحل .

(٢) والأزام السهام التي يستقسمون بها يستشيرون بها في أمورهم .

(٣) أي الذين أطلقوا فلم يسترقوا .

(٤) هو محمد البوصيري المصري ، وهو صاحب القصيدة المشهورة « البردة » .

قام لله في الأمور فأرضى الله منه تباين ووفاء
فعلة كله جميل وهل ينضج ح إلا بما حواه الإناء^(١)

ثم خطب عليه الصلاة والسلام خطبة أبان فيها كثيراً من الأحكام الإسلامية^(٢) منها ألا يُقتل مسلم بكافر، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا تنكح المرأة على عمتها أو خالتها، والبيّنة على من ادّعى، واليمين على من أنكر، ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم، ولا صلاة بعد الصبح والعصر، ولا يصام يوم الأضحى ويوم الفطر، ثم قال: يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، والناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٣) ثم شرع الناس يبايعون رسول الله ﷺ على الإسلام، وممن أسلم في هذا اليوم معاوية بن أبي سفيان وأبو قحافة والد الصديق، وقد فرح الرسول كثيراً بإسلامه. وجاء رجل يرتعد خوفاً فقال له الصلاة والسلام: «هون عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»^(٤).

أما الذين أهدر رسول الله دمهم فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فمنهم من حقت عليه كلمة العذاب فقتل، ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم: فعبد الله بن سعد بن أبي سرح لجأ إلى أخيه من الرضاع عثمان بن عفان، وطلب منه أن يستأمن له رسول الله، فغيبه عثمان حتى هدا الناس، ثم أتى به النبي وقال: يا رسول الله قد أمنت فبايعه، فأعرض عنه عليه الصلاة والسلام مراراً ثم بايعه، فلما خرج عثمان وعبد الله قال عليه الصلاة والسلام،

(١) ديوان البوصيري ص ٦٦.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٤١٥/٢.

(٣) سورة الحجرات الآية: ١٣.

(٤) القديد: اللحم المملح.

أعرضتُ عنه ليقومَ إليه أحدكم فيضرب عنقه، فقالوا: هلاً أشرتَ إلينا؟ فقال: «لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»^(١).

وأما عكرمة بن أبي جهل فهربَ فخرجت وراءه زوجته وبنتُ عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام، وكانت قد أسلمت يوم الفتح^(٢)، وقد أخذت له أماناً من رسول الله فلاحقته، وقد أراد أن يركب البحر فقالت: جئتُك من عند أبرّ الناس وخيرهم لا تهلك نفسك، وإني قد استأمنتُ لك فرجع، ولما رآه عليه الصلاة والسلام وثب قائماً فرحاً به، وقال: مرحباً بمن جاءنا مهاجراً مسلماً، ثم أسلم رضي الله عنه، وطلب من رسول الله أن يستغفر له كل عداوة عاداه إياها فاستغفر له، وكان رضي الله عنه بعد ذلك من خيرة المسلمين وأغیرهم على الإسلام.

وأما هبّار بن الأسود فهرب واختفى حتى إذا كان رسول الله بالجعرانة^(٣) جاءه مسلماً، وقال: يا رسول الله هربتُ منك وأردتُ اللحاق بالأعاجم ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمّن جهل عليك، وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك، وأنقذنا من الهلكة فاصفح الصفح الجميل، فقال عليه الصلاة والسلام: قد عفوتُ عنك.

وأما الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية المخزومي فأجارتهما أم هانئ بنت أبي طالب، فأجاز عليه الصلاة والسلام جوارها، ولما قابل رسول الله الحارث بن هشام مسلماً قال له: الحمد لله الذي هداك ما كان مثلك يجهل الإسلام، وقد كان بعد ذلك من فضلاء الصحابة.

وأما صفوان بن أمية فاختفى وأراد أن يذهب ويلقي نفسه في البحر فجاء

(١) أخرجه أبو داود، رقم: ٤٣٥٩.

(٢) في الأصل: قبل الفتح، وهو خطأ.

(٣) موضع بين مكة والطائف.

ابن عمه عُمير بن وهب الجُمحي وقال: يا نبي الله إن صفوانَ سيد قومه، هرب ليقذف نفسه في البحر فأمنه فإنك قد أمنت الأحمر والأسود، فقال عليه الصلاة والسلام: أدرك ابن عمك فهو آمن، فقال: أعطني علامة فأعطاه عِمَامته، فأخذها عمير حتى إذا لقي صفوان، قال له: فذاك أبي وأمي، جئتكَ من عند أفضل الناس، وأبرّ الناس وأحلم الناس وخير الناس، وهو ابن عمك، وعزّه عزُّك وشرفه شرفك وملكه ملكك، قال صفوان: إني أخاف على نفسي، قال هو أحلم من ذلك وأكرم، وأراه العمامة علامة الأمان، فرجع إلى رسول الله وقال له: إن هذا يزعم أنك أمتنتني؟ قال: صدق، قال: أمهلني بالخيار فيه شهرين، قال: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر، ثم أسلم رضي الله عنه وحسن إسلامه. وأما هند بنت عتبة فاختمت ثم أسلمت، وجاءت إلى رسول الله فرحبَ بها وقالت له: والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحبَّ إليّ أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحبَّ إليّ أن يعزوا من أهل خبائك^(١).

وفود كعب بن زهير

وأما كعبُ بن زهير فلما ضاقت به الأرض ولم يجد له مجيراً جاء المدينة بعد أن قدمها رسولُ الله من مكة فأسلم وأنشد قصيدته التي يقول فيها:

وَقَالَ كُلُّ صَدِيقٍ كُنْتُ أَمْلُهُ	لَا إِلَهِيَنَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ ^(٢)
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَالِكُمْ	فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ	يَوْمًا عَلَى آلَةِ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ ^(٣)
نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي	وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

(١) والخباء: خيمة من وبر أو صوف، ثم أطلقت على البيت كيف ما كان.

(٢) لا إِلَهِيَنَّكَ: أي لا أشغلك.

(٣) الآلة الحدباء: النعش الذي يحمل عليه الميت.

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعيط وتفصيل^(١)!

وقال فيها مادحاً :

إنَّ الرسولَ لسيفٌ يُستضاء به مُهَنَّدٌ من سيوفِ الله مسلولُ^(٢)

ولما قال هذا البيت خلع عليه الرسول برده^(٣)!

وأما وحشي قاتل حمزة فكذلك أسلم وحسن إسلامه وقبله عليه الصلاة والسلام، وقد جاءه ابنا أبي لهب عتبة ومعتب فأسلما وفرح بهما عليه الصلاة والسلام.

وكان من الذين اختفوا سهيل بن عمرو، فاستأمن له ابنه عبدالله فأمنه عليه الصلاة والسلام، وقال: إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سهيل يجهلُ الإسلام، فلما بلغت هذه المقالة سهيلاً قال: كان والله برّاً صغيراً برّاً كبيراً، ثم أسلم بعد ذلك.

بيعة النساء

هذا، ولما تمت بيعة الرجال بايعه النساء، وكنّ يبايعن على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصين الرسول في معروف.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام بلالاً أن يؤذّن على ظهر الكعبة، وهذا بدء ظهور الإسلام على ظهر البيت الكريم، فلا عجب أن اتخذ المسلمون هذا اليوم عيداً يحمدون فيه الله حقّ حمده على هذه النعمة الكبرى والنصر العظيم، وأقام

(١) هداك: أي زادك هدى.

(٢) هذه الأبيات من قصيدة كعب التي مطلعها: (بانت سعاد فقلبي اليوم متبول).

(٣) البردة: الشملة المخططة وقيل كساء أسود مربع في صفر وجمعها بُرَدٌ.

عليه الصلاة والسلام بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة، وولّى عليها عَتَابُ بْنُ أَسِيد^(١)، وجعل رزقه كل يوم درهماً، فكان عَتَابُ رضي الله عنه يقول: لا أشبع الله بطناً جاع على درهم كل يوم.

هدم العُزَى^(٢)

وفي الخامس من مقامه عليه الصلاة والسلام بمكة أرسل خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً لهدم هيكل العُزَى وهي أكبر صنم لقريش وكان هيكلها ببطن نَحْلَة، فتوجه إليها خالد وهدمها.

هدم سُوع^(٣)

وأرسل عليه الصلاة والسلام عمرو بن العاص لهدم سواع وهو أعظم صنم لَهْدِيل وهيكله على ثلاثة أميال من مكة فذهب إليه وهدمه.

هدم مَنَاة^(٤)

وبعث سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً لهدم مَنَاة، وهي صنم للأوس والخزرج^(٥) وهيكلها بالمُثَلَّل وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد فتوجهوا إليها وهدموها.

(١) هو عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن عبد شمس الأموي.

(٢) هي سرية خالد بن الوليد إلى العُزَى.

(٣) هي سرية عمرو بن العاص إلى سُوع.

(٤) هي سرية سعد بن زيد إلى مَنَاة.

(٥) في الأصل صنم لكلب وخزاعة.

غزوة حنين^(١)

بهذا الفتح العظيم وسقوط دولة الأوثان، دانت للإسلام جموع العرب ودخلوا فيه أفواجا. أما قبيلتنا هوازن وثقيف فأدركتهما حمية الجاهلية، واجتمع الأشراف منهم للشورى، وقالوا: قد فرغ محمد من قتال قومه ولا ناهية له عنا، فلنغزّه قبل أن يغزونا. فأجمعوا أمرهم على ذلك، وولّوا رياستهم مالك بن عوف النَّصْرِي، فاجتمع له من القبائل جموع كثيرة فيهم بنو سعد بن بكر الذي كان رسول الله مسترضعاً فيهم، وكان في القوم دُرَيْد بن الصِّمَّة المشهور بأصالة الرأي، وشدة البأس في الحرب، ولتقدم سنّه لم يكن له في هذه الحرب إلا الرأي، ثم إن مالك بن عوف أمر الناس أن يأخذوا معهم نساءهم وذرايرهم وأموالهم، فلما علم بذلك دُرَيْد سأل مالكا عن السبب، فقال: سقتُ مع الناس أموالهم وذرايرهم ونساءهم لأجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنهم، فقال دريد: وهل يردّ المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورُمحه، وإن كانت عليك فُضِحت في أهلك ومالك، فلم يقبل مالك مشورته، وجعل النساء صفوفاً وراء المقاتلة، ووراءهم الإبل ثم البقر ثم الغنم كيلا يفر أحد من المقاتلين.

أما رسول الله ﷺ فإنه لما بلغه أن هوازن وثقيف يستعدون لحربه أجمع رأيهم على المسير إليهم، وخرج معه اثنا عشر ألف غازٍ، منهم ألفان من أهل مكة، والباقيون هم الذين أتوا معه من المدينة، وخرج أهل مكة ركبانياً ومشاة حتى النساء يمشين من غير ضعفٍ يرجون الغنائم، وخرج من الجيش ثمانون من المشركين، منهم صفوان بن أمية، وسُهَيْل بن عمرو، ولما قرب الجيش من معسكر العدو صَفَّ عليه الصلاة والسلام الغزاة، وعقد الألوية، فأعطى لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب، ولواء الخزرج للْحُبَاب بن المنذر، ولواء الأوس

(١) حنين: وادٍ في طريق الطائف بالقرب من ذي المجاز.

لأسيد بن حضير، وكذلك أعطى ألوية لقبائل العرب الأخرى، ثم ركب عليه الصلاة والسلام بغلته ولبس درعين والبيضة^(١) والمِغْفَر^(٢). هذا، وقد أُعْجِبَ المسلمون بكثرتهم فلم تُغْنِ عنهم شيئاً، فإن مقدمة المسلمين توجهت جهة العدو، فخرج لهم كمين كان مستتراً في شعاب الوادي ومضايقه وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر، فلنوا أَعَنَّة خيلهم متقهقرين، ولما وصلوا إلى من قبلهم تبعوهم في الهزيمة لما لحقهم من الدهشة، أما رسول الله ﷺ فثبت على بغلته في ميدان القتال، وثبت معه قليل من المهاجرين والأنصار، منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة بن الحارث ومُعْتَبُ بن أبي لهب، وكان العباس آخذاً بلجام البغلة، وأبو سفيان آخذاً بالركاب^(٣)، وكان عليه الصلاة والسلام ينادي: إِلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ وَلَا يُلَوِي عَلَيْهِ أَحَدٌ، وضافت بالمنهزمين الأرض بما رحبت. أما رجال مكة الذين هم حديثو عهد بالإسلام والذين لم ينزعوا عنهم رِبْقَةَ الشُّرْكِ فمنهم من فرح، ومنهم من ساءه هذا الإِدْبَارُ، فقال أبو سفيان بن حرب: لَا تَنْتَهِي هَزِيمَتُهُمْ دُونَ الْبَحْرِ، وقال أخ لصفوان بن أمية: الْآنَ بَطُلُ السَّحَرِ، فقال له صفوان (وهو على شركه) أَسَكَّتْ فَضَّ الله فَاك^(٤)! والله لَأَنْ يَرُبَّنِي^(٥) رجل من قريش خير من أَنْ يَرُبَّنِي رجل من هوازن. ومَرَّ عليه رجل من قريش وهو يقول: أَبْشِرْ بِهَزِيمَةِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ فَوَالله لَا يَجْبِرُونَهَا أَبَدًا، فغضب صفوان وقال: وَيْلَكَ أَتَبْشُرُنِي بِظُهُورِ الْأَعْرَابِ؟ وقال عكرمة بن أبي جهل لذاك الرجل: كُونَهُمْ لَا يَجْبِرُونَهَا أَبَدًا لَيْسَ بِيَدِكَ، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شيء، إِنْ أُدِيلَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُ غَدًا،

(١) البيضة: هي الخوذة توضع على الرأس.

(٢) المغفر: زَرَدٌ مِنَ الدَّرْعِ يُلبَسُ تَحْتَ الْقَلَنْسُوءِ.

(٣) هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مَنَّ يَشْبَهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،

(٤) أي أسقط أسنانك.

(٥) يَرُبَّنِي: أَي يَكُونُ رَبًّا لِي.

فقال سهيل بن عمرو: والله إن عهدك بخلافه لحديث، فقال له: يا أبا زيد إنا كنا على غير شيء وعقولنا ذاهبة نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع. وبلغت هزيمة بعض الفارّين مكة. كل هذا ورسول الله واقف مكانه يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم قال للعباس وكان جَهْوَريّ الصوت: نادِ بالأنصار يا عباس. فنادى يا معشر الأنصار، يا أصحاب بيعة الرضوان، فأسمع مَنْ في الوادي، وصار الأنصار يقولون: لبيك لبيك، ويريد كل واحد منهم أن يلوي عنان بعيره فيمنعه من ذلك كثرة الأعراب المنهزمين. فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه. وينزل عن بعيره ويخلي سبيله ويؤمُّ الصوت حتى اجتمع حول رسول الله جمع عظيم منهم. وأنزل الله سكنته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم يروها، فكّر المسلمون على عدوهم يداً واحدة فانتكث قتل المشركين. وتفرقوا في كل وجه لا يلوون على شيء من الأموال والنساء والذراري، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فأخذوا النساء والذراري وأسروا كثيراً من المحاربين^(١)، وهرب من هرب، وجرح في هذا اليوم خالد بن الوليد جراحات بالغة، وأسلم ناس كثيرون من مشركي مكة لما رأوه من عناية الله بالمسلمين.

هذا، والذي حصل في هذه الغزوة درس مهم من دروس الحرب، فإن هذا الجيش دخله أخلاط كثيرون من مشركين وأعراب وحديثي عهد بالإسلام، هؤلاء سيّان عندهم نصر الإسلام وخذلانه، ولذلك بادروا لأول صدمة إلى الهزيمة، وكادت تتم الكلمة على المسلمين لولا فضل الله، فلا ينبغي أن يكون في الجيش إلا من يقاتل خالصاً من قلبه ليكون مدافعاً حقاً عن دينه، فلا تميل نفسه إلى الفرار خشية ما أعدّه الله للفارّين من أليم العقاب.

(١) ليس في كتب السير أنهم أسروا من المحاربين.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام بجمع السبي والغنائم، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، فجمع ذلك كله بالجعرانة. أما المشركون فتنفروا ثلاث فرق: فرقة لحقت بالطائف، وفرقة لحقت بنخلة، وفرقة عسكرت بأوطاس^(١).

سرية^(٢)

فأرسل عليه الصلاة والسلام لهذه الفرقة أبا عامر الأشعري في جماعة منهم أبو موسى الأشعري فسار إليهم وبددهم وظفر بما بقي معهم من الغنائم، وقد استشهد أبو عامر في هذه الغزوة وخلف على الغزاة ابن أخيه أبا موسى فرجع ظافراً منصوراً^(٣).

غزوة الطائف

وسار عليه الصلاة والسلام بمن معه إلى الطائف ليجهز على بقية حياة ثقيف ومن تجمع معهم من هوازن، وجعل على مقدمته خالد بن الوليد، ومّر عليه الصلاة والسلام بحصن لمالك بن عوف النّصري^(٤) فأمر بهدمه. ومّر ببستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه، فأرسل إليه أن أخرج وإلا حرقنا عليك بستانك، فامتنع الرجل فأمر عليه الصلاة والسلام بحرقه. ولما وصل المسلمون إلى الطائف وجدوا الأعداء قد تحصّنوا به وأدخلوا معهم قوت سنتهم، فعسكر المسلمون قريب الحصن. فرماهم المشركون بالنبل رمية شديدة حتى أصيب منهم كثيرون بجراحات منهم عبدالله بن أبي بكر، وقد طاوله^(٥) جرحه حتى أماته

(١) وإد بديار هوازن. المؤلف.

(٢) هي سرية أبي عامر الأشعري إلى أوطاس.

(٣) خبر هذه السرية في البخاري.

(٤) في الأصل: لعوف بن مالك وهو خطأ والصحيح ما أثبتناه.

(٥) طاوله: امتد به.

في خلافة أبيه، ومنهم أبو سفيان بن حرب فُقت عينه. وقد مات بالجراحات اثنا عشر رجلاً من المسلمين. ولما رأى رسول الله أن العدو متمكن من رميهم ارتفع إلى محل مسجد الطائف الآن، وضربَ لأم سلمة وزينب^(١) قبتين هناك، واستمر الحصارُ ثمانية عشر يوماً، كان فيها يُنادي خالد بن الوليد بالبراز فلم يُجبه أحد، وناداه عبد ياليل عظيم ثقيف لا ينزل إليك منّا أحد، ولكن نقيم في حصننا، فإن فيه من الطعام ما يكفيننا سنين، فإن أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسياقنا جميعاً حتى نموتَ عن آخرنا، فأمر عليه الصلاة والسلام بأن يُنصبَ عليهم المنجنيق فُنصبَ. ودخل جمع من الأصحاب تحت دبابتين لينقبوا الحصن، فأرسلت عليهم ثقيف سِكَك الحديد مُحماة بالنار حتى أرجعوههم. فأمر عليه الصلاة والسلام أن تقطع أعنابهم ونخيلهم، فقطع المسلمون فيها قطعاً ذريعاً^(٢)، فناداه أهل الحصن أن دعها لله وللرحم، فقال: أدعها لله وللرحم، ثم أمر من ينادي بأن كل من ترك الحصن ونزل فهو آمن، فخرج إليه بضعة عشر رجلاً. ولما رأى عليه الصلاة والسلام أن تمنع ثقيف شديد، وأن الفتح لم يؤذن فيه استشار نوفل بن معاوية الديلي^(٣) في الذهاب أو المقام، فقال: يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت أخذته وإن تركته لم يضرّك، فأمر عليه الصلاة والسلام بالرحيل، وطلب منه بعض الصحابة أن يدعو على ثقيف فقال: «اللهم اهد ثقيفاً واثت بهم مسلمين».

(١) ورد في غزوة الفتح أن النبي ﷺ اصطحب معه أم سلمة وميمونة، وورد هنا بدلاً عن ميمونة زينب، وفي سيرة ابن هشام أم سلمة وزوجة أخرى لم يعينها، فليتأمل (كذا عن الغربي).

(٢) أي سريعاً.

(٣) صحابي، أسلم يوم الفتح، وكان قد بلغ المائة.

تقسيم السبي

ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى الجعرانة حيث ترك السبي فأحصاه^(١)، وخَمَّسه، وأعطى منه شيئاً كثيراً لأناس ضعف إسلامهم يتألفهم بذلك وأعطى أناساً لم يسلموا لِيُحَبِّبَ إليهم الإسلام، ومن الأولين: أبو سفيان أعطاه أربعين أوقية من الذهب^(٢) ومائة من الإبل، وكذلك ابنه معاوية ويزيد، فقال له: بأبي أنت وأمي لأنت كريم في السلم والحرب. ومنهم حكيم بن حزام أعطاه كأبي سفيان فاستزاده فأعطاه، ثم استزاده فأعطاه مثلها وقال: يا حكيم «إن هذا المال خَصْرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشرافِ نفس لم يُبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع واليدُ العليا خير من اليد السفلى»^(٣) فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها، ثم قال: والذي بعثك بالحق لا أرزأ^(٤) أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا، فكان الخلفاء بعد رسول الله يعرضون عليه العطاء الذي يستحقه من بيت المال فلا يأخذه. وأعطى عليه الصلاة والسلام عُيَيْنَةَ بن حصن مائة من الإبل، وكذلك الأقرع بن حابس والعباس بن مرداس وأعطى صفوان بن أمية شعباً مملوءاً نعماً وشاءً كان رآه يرمقه، فقال له: هل يعجبك هذا؟ قال: نعم، قال: هـولك. فقال صفوان: ما طابت بمثل هذا نفسُ أحد، وكان سبب إسلامه. وكان عليه الصلاة والسلام يقصد من هذه العطايا تأليف القلوب وجمعها على الدين القويم، وهذا ضرب من ضروب السياسة الدينية حتى جعل من الصدقات قسماً للمؤلفة قلوبهم، وقد عاد ذلك بفائدة عظيمة، فإن كثيرين ممن أعطوا في هذا اليوم ولم يكونوا أشربوا في قلوبهم حُبَّ الإسلام صاروا بعدُ من أجلاء المسلمين وأعظمهم نفعا كصفوان بن أمية، ومعاوية بن

(١) أي أحصى الغنائم.

(٢) ليست من الذهب بل من الفضة.

(٣) رواه البخاري.

(٤) أي لا أنقص ماله بالطلب منه.

أبي سفيان، والحارث بن هشام وغيرهم.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام زيد بن ثابت فأحصى ما بقي من الغنائم ، وقسمه على الغزاة بعد ان اجتمع إليه الأعراب ، وصاروا يقولون له : إقسم علينا حتى الجؤوه الى شجرة فتعلق رداؤه فقال : « ردّوا ردائي أيها الناس ، فوالله إن كان لي شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ثم ما ألفتيموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً » ثم قام إلى بعيره ، وأخذ وَبَرَةً من سَنَامِهِ ، وقال : « أيها الناس ، والله ما لي من غنيمتكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدّوا الخياط والمخييط فإن الغُلُول^(١) يكون على أهله عاراً وشناراً وناراً يوم القيامة »^(٢) فصار كلّ من أخذ شيئاً من الغنائم خِلْسة يردّه ولو كان زهيداً ، ثم شرع يقسم فأصاب الرجل أربعة من الإبل وأربعون شاة ، والفارس ثلاثة أمثال ذلك ، فقال رجل من المنافقين : هذه قسمة ما أريد بها وجهُ الله ، فغضب عليه الصلاة والسلام حتى احمرّ وجهه ، وقال : « ويحك مَنْ يعدلُ إذا لم أعدل ؟ ! »^(٣) فلم يؤدّه غضبه أن ينتقم لنفسه حاشاه عليه الصلاة والسلام من ذلك بل لم يزد على أن نصَحَ وحذّرَ ، وقال له عمر وخالد بن الوليد : دعنا يا رسول الله نضرب عنقه ، فقال : (لا ! لعلّه أن يكون يُصلي) فقال خالد : وكم من مُصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه ! فقال ﷺ : « إني لم أؤمر أن أنقُبَ عن قلوب الناس ، ولا أُشَقَّ عن بطونهم »^(٤).

ولما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا لقريش وقبائل العرب ، وترك الأنصار غضبَ بعضهم حتى قالوا : إن هذا لهو العجب يُعطي قريشاً ،

(١) الغلُول : الإختلاس من الغنيمة .

(٢) والشنار : العار والعيب .

(٣) رواه البخاري .

(٤) رواه البخاري .

ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم !!! فبلغه ذلك فأمر بجمعهم وليس معهم غيرهم . فلما اجتمعوا قال : « يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم ؟ ألم أجدكم ضلّالاً فهذاكم الله بي ؟ وعالة^(١) فأغناكم الله بي ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم بي ؟ إن قريشاً حديثو عهد بكفر ومصيبة ، وإنني أردتُ أن أجبرهم وأتألفهم ، أغضبتهم يا معشر الأنصار في أنفسكم لشيء قليل من الدنيا ألفتُ به قوماً ليسلموا ، ووكلتُكم إلى إسلامكم الثابت الذي لا يُزُلُّ ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكُم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناسُ شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لسلكْتُ شِعْبَ الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار »^(٢) . فبكى القوم حتى اخضلتُ لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً ، ثم انصرف عليه الصلاة والسلام وتفرقوا .

وفود هوازن

وبعد بضع عشرة ليلة جاءه ﷺ وفد هوازن يرأسهم زهير بن صُرْد وقالوا : يا رسول الله إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعَمَّات والخالات ، وهن مَخَازِي الأَقْوام ، ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله ، وقال زهير : إن في الحظائر عَمَاتِك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنَّ يكفلنك^(٣) ، ثم قال أبياتاً يستعطفه بها :

امنن علينا رسول الله في كرمٍ فإنك المرء نرجوه وننتظر
امنن على نسوةٍ قد كنت ترضعها إذ فوك مملوءة من مخضها الدرر^(٤)

(١) جمع عائل : وهو الفقير . المؤلف .

(٢) شواهد هذا الحديث كثيرة بألفاظ قريبة من اللفظ الذي ذكره المؤلف .

(٣) أي لأن مرضعته ﷺ حليلة كانت من هوازن .

(٤) في السهيلي على ابن هشام : إذ فوك تملأه من مخضها الدرر .

إِنَّا لَنَشْكُرُ لِلنِّعْمَاءِ إِنْ كَفَرْتَ وَعِنْدَنَا بَعْدَ هَذَا يَوْمٌ مُّذْخِرٌ
 إِنَّا نَوْمُلُ عَفْوَاً مِنْكَ نَلْبِسُهُ هَدَى الْبَرِيَّةَ أَنْ تَعْفُو وَتَتَصَرَّ(١)
 فَأَلْبَسَ الْعَفْوَ مِنْ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهُ مِنْ أُمَهَاتِكَ إِنْ الْعَفْوَ مُشْتَهَرٌ

فَقَالَ ﷺ : إِنْ أَحَبَّ الْحَدِيثَ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ ، فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ :
 إِمَّا السَّبِيَّ وَإِمَّا الْمَالَ . وَقَدْ كُنْتَ انتَظَرْتَكُمُ(٢) حَتَّى ظَنَنْتُ أَنْكُمْ لَا تَقْدَمُونَ ،
 فَقَالُوا : مَا كُنَّا نَعْدِلُ بِالْأَحْسَابِ شَيْئاً ، أَرَدُّدُ عَلَيْنَا نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا
 وَلَا نَتَكَلَّمُ فِي شَأَةٍ وَلَا بَعِيرٍ ، فَقَالَ ﷺ : أَمَّا مَالِي وَلِبْنِي عَبْدُ الْمُطَلِّبِ فَهُوَ لَكُمْ ،
 فَإِذَا أَنَا صَلَّيْتُ الظُّهْرَ فَقُومُوا وَقُولُوا : نَحْنُ نَسْتَشْفَعُ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ
 وَبِالْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ تَظْهَرُوا إِسْلَامَكُمْ وَتَقُولُوا نَحْنُ إِخْوَانُكُمْ فِي
 الدِّينِ ، فَفَعَلُوا . فَقَالَ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : « أَمَّا بَعْدُ : فَإِنْ إِخْوَانُكُمْ هَؤُلَاءِ جَاؤُوا
 تَائِبِينَ ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرَدَّ عَلَيْهِمْ سَبِيَّهُمْ ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُطَيَّبَ بِذَلِكَ
 فَلْيَفْعَلْ ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نَعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ
 اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ »(٣) ، فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ : مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ .
 وَامْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَعْرَابِ ، كَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حَصْنٍ
 وَالْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ ، فَأَخَذَهُ الرَّسُولُ مِنْهُمْ قَرْضاً ، وَأَمَرَ ﷺ بِأَنْ تُحْبَسَ عَائِلَتُهُ
 مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّصْرِيُّ رَئِيسُ تِلْكَ الْحَرْبِ بِمَكَّةَ عِنْدَ عَمَتِهِمْ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 أُمِيَّةٍ . فَقَالَ لَهُ الْوَفْدُ : أَوْلَيْتَ سَادَاتِنَا ، فَقَالَ ﷺ : إِنَّمَا أُرِيدُ بِهِمُ الْخَيْرَ ، ثُمَّ سَأَلَ
 عَنْ مَالِكٍ فَقَالُوا : هَرَبَ مَعَ ثَقِيفٍ ، فَقَالَ ؛ أَخْبِرُوهُ أَنَّهُ إِنْ جَاءَنِي مُسْلِماً رَدَدْتُ
 عَلَيْهِ أَهْلَهُ وَمَالَهُ وَأَعْطَيْتُهُ مِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ مَالِكاً نَزَلَ مِنَ الْحَصْنِ
 خُفْيَةً حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ بِالْجِعْرَانَةِ فَأَسْلَمَ وَأَحْرَزَ مَالَهُ ، وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
 وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ هَوَازِنَ .

(١) فِي السَّهْلِيِّ عَلَى ابْنِ هِشَامٍ : تَلْبِسُهُ . هَدَى الْبَرِيَّةَ إِذْ تَعْفُو وَتَتَصَرَّ .

(٢) وَكَانَ أَنْظَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَضْعَ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ حِينَ قَفَلَ مِنَ الطَّائِفِ .

(٣) يُطَيَّبُ : أَيُّ أَنْ يُرْجَعَ مَا أَخَذَ مِنَ السَّبِيِّ عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ عَوْضٍ .

عمرة الجعرانة

ثم إن الرسول ﷺ اعتمر فأحرم من الجعرانة ودخل مكة بليل فطاف واستلم الحجر ثم رجع من ليلته ، وكانت إقامته بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة ، ثم أمر عليه الصلاة والسلام بالرحيل ، فسار الجيش آمناً مطمئناً حتى دخل المدينة لثلاث بقين من ذي القعدة .

وغزوة حنين هي التي فرّق الله بها جموع الشرك ، وأدال دولته ، وأفقد سرّة أهله ، فإن هوازن لم تترك وراءها رجلاً تمكّنه الحرب إلا ساقته ، ولم تترك لها بعيراً ولا شاة إلا جاءت به معها ، فأراد الله إعزاز الإسلام بخذلان أعدائه وأخذ أموالهم ، فانكسرت حِدة المشركين ، ولم يبق فيهم من يمانع أو يدافع ، ولذلك يمكننا أن نقول إن انكسار هوازن كان خاتمة لحروب العرب ، فلم يبقَ فيهم إلا فئات قليلة يسوقهم الطيش إلى شهر السلاح ، ثم لا يلبثون أن يغمدوا السيوف حينما تظهر لهم قوة الحق الساطعة .

سرية^(١)

ولما رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة أرسل قيس بن سعد في أربعمائة ليدعو صُداء (قبيلة تسكن اليمن) إلى الإسلام ، فجاء إلى رسول الله رجل منهم^(٢) ، فقال يا رسول الله : إني جئتكَ وافداً عمّن ورائي ، فاردد الجيش وأنا لك بقومي ، فأمر عليه الصلاة والسلام برّد الجيش .

وفود صُداء

وخرج إلى قومه فقدم بخمسة عشر رجلاً منهم ، فنزلوا ضيوفاً على سعد

(١) هي سرية قيس بن سعد إلى صداء .

(٢) هو زياد بن الحرث صحابي معروف نزل مصر .

بن عبادة ، ثم بايعوا رسول الله على الإسلام ، وقالوا نحن لك على من وراءنا من قومنا ، ولما رجعوا فشا فيهم الإسلام ، وقدم على رسول الله منهم مائة في حجة الوداع .

سرية (١)

ثم أرسل عليه الصلاة والسلام بشر بن سفيان العدوي إلى بني كعب بن خزاعة لأخذ صدقات أموالهم ، فمنعهم بنو تميم المجاورون لهم من أداء ما فُرضَ عليهم ، فلما علم بذلك رسول الله أرسل إليهم عيينة بن حصن في خمسين فارساً من الأعراب فجاءهم وحاربهم ، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً ، وتوجه بالكل إلى المدينة ، فأمر عليه الصلاة والسلام بجعلهم في دار رَمْلَةَ بنت الحارث .

وفود تميم

فجاء في أثرهم وفد تميم^(٢) وفيه غُطارد بن حاجب ، والزبرقان بن بدر^(٣) ، وعمرو بن الأهم ، فجلسوا ينتظرون الرسول ، فلما أبطأ عليهم نادوا من وراء الحجرات بصوت جَافٍ : يا محمد أخرج إلينا نفاخرك ، فإن مدحنا زَيْن ، وإن ذمنا شَيْن ، فخرج إليهم عليه الصلاة والسلام ، وقد تأذى من صياحهم ، وفيهم نزل في أوائل سورة الحجرات : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٤) وكان الوقت وقت الظهر ، فأذن بلال ، ودخل النبي للصلاة ، فتعلقوا

(١) هي سرية عيينة بن حصن إلى بني تميم .

(٢) بشأن الأسرى .

(٣) هو الحصين : ولقب بالزبرقان لحسن وجهه .

(٤) سورة الحجرات الآية : ٤ - ٥ .

به يقولون : نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « ما بالشعر بُعثنا ولا بالفخار أُمِرنا » ثم صلى واجتمع حوله رجال الوفد يتفاخرون بمجدهم ومجد آبائهم ، وقد مدح عمرو بن الأَهمم الزبرقان بن بدر ، فقال : إنه لَمُطاع في أُنديته سيد في عشيرته ، فقال الزبرقان : حسدني يا رسول الله لشرفي ، وقد علم أفضل مما قال . فقال عمرو : إنه لَرَمَن المروءة ضيق العَطن لثيم الخال فَرُئِيَ الغضب في وجه رسول الله لاختلاف قولِي عمرو فقال : يا رسول الله لقد صدقتُ في الأولى ، وما كذبتُ في الثانية ، رضىتُ فقلت أحسن ما علمت ، وغضبتُ فقلت أسوأ ما علمت . فقال عليه الصلاة والسلام : « إن من البيان لسحراً »^(١). ثم أسلم القوم فردَّ النبي عليه الصلاة والسلام عليهم أسراهم ، وأحسن جائزتهم وأقاموا مدة يتعلمون فيها القرآن ويتفقهون في الدين .

سرية^(٢)

ثم بعث عليه الصلاة والسلام الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط^(٣) لأخذ صدقات بني المصطلق ، فلما علموا بقدومه خرج منهم عشرون رجلاً متقلدين سلاحهم احتفالاً بقدومه ومعهم إبل الصدقة ، فلما نظرهم ظنهم يريدون حربه لما كان بينه وبينهم من العداوة في الجاهلية ، فرجع مسرعاً إلى المدينة ، وأخبر الرسول أن القوم ارتدوا ومنعوا الزكاة ، فأرسل لهم خالد بن الوليد لاستكشاف الخبر ، فسار إليهم في عسكره خفية حتى إذا كان بناديهم سمع مؤذَنهم يؤذَن بالصبح ، فأتاهم خالد فلم يرَ منهم إلا طاعة ، فرجع وأخبر الرسول ، فأرسل

(١) رواه البخاري .

(٢) هي سرية الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق .

(٣) عقبة بن أبي معيط : هو أخو عثمان بن عفان لأمه .

عليه الصلاة والسلام لهم غير الوليد لأخذ الصدقات^(١)، وفي الوليد نزل في أوائل الحجرات : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(٢) .

سرية^(٣)

ثم بلغ رسول الله أن جمعاً من الحبشة رأهم أهل جُدة في مراكبهم يريدون الإغارة عليها ، فأرسل لهم علقمة بن مُجَزَّز^(٤) في ثلاثمائة ، فذهب حتى وصل جدة ، ونزل في المراكب ليدركهم ، وكان الأحباش متحصنين في جزيرة هناك ، فلما رأوا المسلمين يريدونهم هربوا ، ولم يلقَ المسلمون كيلاً ، فرجع علقمة بمن معه . ولما كان بالطريق أذن لسرعان القوم أن يتعجلوا ، وأمر عليهم عبد الله بن حُذافة السُّهْمِي ، وكان فيه دعاية^(٥) ، فأوقد لهم في الطريق ناراً ، وقال لهم أَلستم مأمورين بطاعتي ؟ قالوا : نعم ، قال : عزمت عليكم إلا ما تَواثبتم في هذه النار ، فقال بعضهم : ما أسلمنا إلا فراراً من النار ، وهم بذلك بعضهم فمنعهم عبد الله . وقال : كنت مازحاً ! فلما ذكروا ذلك لرسول الله قال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »^(٦) .

(١) هو عباد بن بشر الأنصاري البصري .

(٢) سورة الحجرات الآية : ٦ .

(٣) هي سرية علقمة إلى الحبشة .

(٤) علقمة بن مُجَزَّز الكِنَانِي المدلجي .

(٥) وهي ما يستملح من المزاح .

(٦) خبر هذه السرية رواه البخاري في المغازي .

السنة التاسعة

سرية (١)

في ربيع الأول أرسله الصلاة والسلام علي بن أبي طالب في مائة راكب وخمسين فارساً لهدم الفُلس (صنم لطيء) فسار إليه وهدمه وأحرقه ، ولما حارب عبّاده هزمهم واستاق نَعْمهم وشاءهم وسيبهم ، وكان فيه سَفَانَةٌ بنت حاتم طيء (٢) . ولما رجع علي إلى المدينة طلبت سَفَانَةٌ من رسول الله أن يَمُنَّ عليها ، فأجابها لأنه كان من سنته ﷺ أن يكرم الكرام ، فدعت له ، وكان من دعائها « شَكَرْتُكَ يد افتَرَقَت بعد غنى ، ولا مَلِكْتُكَ يد استَغْنَت بعد فقر ، وأصاب الله بمَعْرُوفِكَ مواضعه ، ولا جعل لك إلى لثيم حاجة ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سبباً لردّها عليه » . وكانت هذه المعاملة من رسول الله سبباً في إسلام أخيها عدي بن حاتم الطائي (٣) الذي كان فرّ إلى الشام عندما رأى الرايات الإسلامية قاصدة بلاده ، وكان من حديث مجيئه ان أخته توجهت إليه بالشام ، وأخبرته بما عُولمت به من الكرم ، فقال لها : ما ترين في أمر هذا

(١) هي سرية علي إلى هدم صنم طيء .

(٢) هي بنت الجواد المشهور ، أسلمت وحسن إسلامها .

(٣) قال عدي : رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحجّ هذا البيت ، وإيم الله ولتكوئن الثالثة : ليفيضم المال حتى لا يوجد من يأخذه .

الرجل ؟ فقالت : أرى أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن نبياً فللسابق إليه فضل ، وإن يكن ملكاً فأنت أنت . والله هذا هو الرأي .

وفود عدي بن حاتم

فخرج حتى جاء المدينة ، ولقي رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : من الرجل ؟ قال : عدي بن حاتم ، فأخذه إلى بيته وبينما يمشيان اذ لقيت رسول الله امرأة عجوز فاستوقفته فوقف لها طويلاً تُكلمه في حاجتها ، فقال عدي : والله ما هو بملك . ثم مضى رسول الله حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من جلد محشوة ليفاً فقدمها إلى عدي ، وقال : اجلس على هذه . فقال : بل أنت تجلس عليها ، فامتنع عليه الصلاة والسلام وأعطاهما له ، وجلس هو على الأرض ، ثم قال يا عدي : أسلم تسلم ، قالها ثلاثاً ، فقال عدي : إني على دين (وكان نصرانياً) فقال له عليه الصلاة والسلام : أنا أعلم بدينك منك ، فقال عدي : أأنت أعلم بديني مني ؟ قال نعم . ثم عدّ له أشياء كان يفعلها اتباعاً لقواعد العرب وليس من دين المسيح في شيء ، كأخذه المرباع وهو ربع الغنائم . ثم قال يا عدي : إنما يمنعك من الدخول في الدين ما ترى ، تقول إنما أتبعه ضَعْفُ الناس ومن لا قدرة لهم ، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم ، فوالله ليُوشكنَّ المالُ أن يفيض فيهم حتى لا يُوجد من يأخذه ، ولعلَّك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، أتعرف الحيرة ؟ قال ؛ لم أرها وقد سمعت بها ؛ قال : فوالله ليتمنَّ هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولعلَّك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم ، وإيم الله ليُوشكنَّ أن تسمع بالقصور من أرض بابل قد فُتحت عليهم^(١) . فأسلم عدي رضي الله عنه وعاش حتى رأى كل ذلك^(٢) .

(١) وفد عدي على النبي ﷺ فأسلم وحسن إسلامه ولما توفي رسول الله قدم عدي على أبي بكر

غزوة تبوك^(١)

بلغ رسول الله ﷺ أن الروم جمعت الجموع تريد غزوه في بلاده ، وكان ذلك في زمن عُسرة الناس وجذب البلاد وشدة الحر حين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، فأمر عليه الصلاة والسلام بالتجهز ، وكان قلماً يخرج في غزوة إلا ورى بغيرها^(٢) لِيُعْمِيَ الأخبار على العدو إلا في هذه الغزوة ، فإنه أخبر بمقصده لبعد الشقة ولشدة العدو ، ليأخذ الناس عدتهم لذلك ، وبعث الى مكة وقبائل الأعراب يستنفرهم لذلك ، وحثَّ الموسرين على تجهيز المعسرين ، فأنفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار ، وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها^(٣) ، وخمسين فرساً ، فقال ﷺ : « اللهم ارض عن عثمان فإنني راضٍ عنه » . وجاء أبو بكر بكل ماله وهو أربعة آلاف درهم ، فقال ﷺ : هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ فقال : أبقيت لهم الله ورسوله ، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية ، وجاء العباس وطلحة بمال كثير . وتصدق عاصم بن عدي بسبعين وسقاً من تمر ، وأرسلت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن ، وجاءه ﷺ سبعة أنفس من

= وقت الروق بصدقات قومه ، وكان جواداً شريفاً في قومه معظماً عندهم وعند غيرهم روى عنه أنه قال « ما دخل علي وقت صلاة إلا أنا مشتاق إليها » توفي سنة ٦٧ هـ .

(٢) في ابن هشام ج ٢ ص ٥٨٠ أن النبي ﷺ قال لعدي « ألم تكن ركوسياً؟ » قال بلى قال « أولم تكن تسد قومك بالمرباع قال بلى قال (فان ذلك لم يكن يحل لك في دينك قال : أجل والله وقال وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل . . .) والركوسي من الركوسية وهم قوم لهم دين بين دين النصراني والصابئين .

(١) مكان معروف ، وهو نصف طريق المدينة إلى دمشق .

(٢) رواه مسلم من حديث كعب بن مالك .

(٣) المجلس : كساء على ظهر البعير .

فقهاء الصحابة يطلبون اليه أن يحملهم . فقال لا أجد ما أحملكم عليه^(١)، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون . فجهز عثمان ثلاثة منهم ، وجهز العباسُ اثنين ، وجهز يامين بن عمرو^(٢) اثنين ، ولما اجتمع الرجال خرج بهم رسول الله وهم ثلاثون الفاً ، وولّى على المدينة محمد بن مسلمة ، وعلى أهله علي بن أبي طالب ، وتخلّف كثير من المنافقين يرأسهم عبد الله بن أبيّ ، وقال : يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد!! أيحسبُ محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب؟ والله لكأنني أنظر إلى أصحابه مقرّنين في الجبال . واجتمع جماعة منهم ، فقالوا في حق رسول الله وأصحابه ما يريدون من الإرجاف ، فبلغه ذلك ، فأرسل إليهم عمّار بن ياسر يسألهم عمّا قالوا ، فقالوا : إنما كنّا نخوض ونلعب . وجاء إليه جماعة منهم الجد بن قيس يعتذرون عن الخروج ، فقالوا : يا رسول الله ائذن لنا ولا تفتنّا لأنّا لا نأمن من نساء بنى الأصفر ، وجاء إليه المعذرون من الأعراب - وهم أصحاب الأعدار من ضعف أو قلة - ليؤذن لهم فأذن لهم ، وكذلك استأذن كثير من المنافقين فأذن لهم ، وقد عتب الله عليه في ذلك الإذن بقوله في سورة براءة: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكِ الْذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٣) ثم قال في حقهم : ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾^(٤) ثم كذبهم الله في عذرهم فقال : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾^(٥) ثم لكيلا يأسى المسلمون على قعود

(١) فنزل فيهم قوله تعالى في سورة براءة: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ .

(٢) يامين بن عمير ، كان من كبار الصحابة .

(٣) سورة التوبة : الآية : ٤٣ .

(٤) سورة التوبة : الآية : ٤٥ .

(٥) سورة التوبة : الآية : ٤٦ .

المنافقين عنهم قال جلّ ذكره : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعُفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (١) وتخلّف جماعة من المسلمين لا يُتَّهَمون في إسلامهم منهم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وأبو خيثمة . ولما خلّف ﷺ عليّاً ، قال المنافقون : قد استثقله فتركه ، فأسرع إلى رسول الله وشكا له ما سمع ، فقال ﷺ : « أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى ؟ » (٢) . ثم سار ﷺ بالجيش ، وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصديق ، وفي إعطاء اللواء لأبي بكر آخر غزوة للرسول وتخليف عليّ على أهل البيت حكمة لطيفة يفهمها القارئ . وفرق عليه الصلاة والسلام الرايات ، فأعطى الزبير راية المهاجرين ، وأسيد بن حضير راية الأوس ، والحُباب بن المنذر راية الخزرج ، ولما مرّ الجيش بالحِجْر وهي ديار ثمود قال ﷺ لأصحابه : « لا تدخلوا ديار الذين ظلموا إلّا وأنتم باكون » (٣) ليشعر قلوبهم رهبة الله ، وكان مستعملاً على حرس الجيش عبّاد بن بشر ، وكان أبو بكر يصلي بالجيش ، ولما وصلوا إلى تبوك ، وكانت أرضاً لا عِمارة فيها ، قال الرسول لمعاذ بن جبل : يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا مليء بساتين ، وقد كان .

ولما استراح الجيش لحقه أبو خيثمة ، وكان من خبر مجيئه أن دخل على أهله في يوم حار ، فوجد امرأتين له في عريشتين لهما في بستان قد رشّت كلّ منهما عريشتها ، وبرّدت فيها ماء ، وهبأت طعاماً ، وكان يوماً شديداً الحر ، فلما نظر ذلك قال : يكون رسول الله في الحر وأبو خيثمة في ظل بارد وماء مهياً وامرأة حسناء ! ما هذا بالنّصف . ثم قال : والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله فهيّا لي زاداً ففعلتا ، ثم ركب بعيره ، وأخذ سيفه ورمحه ، وخرج

(١) سورة التوبة : الآية : ٤٧ .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه مسلم .

يريد رسول الله فصادفه حين نزل بتبوك^(١).

وفود صاحب أيلة

هذا ولم يرَ ﷺ بتبوك جيشاً كما كان قد سمع ، فأقام هناك أياماً جاءه في أثناءها يوحنا صاحب أيلة وصحبته أهل جرباء^(٢) وأهل أذرح^(٣) وأهل ميناء ، فصالح يوحنا رسول الله على إعطاء الجزية ولم يسلم . وكتب له الرسول كتاباً هذه صورته :

كتاب صاحب أيلة

بسم الله الرحمن الرحيم هذا أَمَّةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا وأهل أيلة : سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحوز ماله دون نفسه ، وإنه لَطَيِّبَةٌ^(٤) لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يَمْنَعُوا ماء يريدونه من بر أو بحر .

كتاب أهل أذرح وجرباء

وكتب لأهل أذرح وجرباء كتاباً صورته : (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح وجرباء ، إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ،

(٣) وفي مسلم «رأى - رسول الله ﷺ - رجلاً مبيضاً يزول به السراب ، فقال : كن أبا خيثمة ، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري» . واسمه عبد الله خيثمة . شهد أحداً مع النبي ﷺ وبقي إلى أيام يزيد بن معاوية .

(٢) قرية في جنوب الشام . المؤلف .

(٣) مدينة تلقاء السراة . المؤلف .

(٤) مال طيبة : أي مال صحيح السَّاء .

وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين) وصالح أهل مينا على ربع ثمارهم .

ثم إن الرسول استشار أصحابه في مجاوزة تبوك الى ما هو أبعد منها من ديار الشام ، فقال له عمر : إن كنت أمرت بالسير فيسر . فقال عليه الصلاة والسلام : لو كنت أمرت بالسير لم أستشر ، فقال : يا رسول الله إن للروم جمعاً كثيرة ، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام ، وقد دنونا وقد أفزعهم دنوك ، فلورجعنا في هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمراً ، فتبع عليه الصلاة والسلام مشورته ، وأمر بالقفول فرجع الجيش إلى المدينة^(١).

مسجد الضرار

ولما كان على مقربة منها^(٢) بلغه خبر مسجد الضرار وهو مسجد أسسه جماعة من المنافقين معارضة لمسجد قباء ، ليفرقوا جماعة المسلمين . وجاء جماعة منهم إلى الرسول طالبين منه أن يصلي لهم فيه ، فسألهم عن سبب بنائه ، فحلفوا بالله إن أردنا إلاّ الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ، فأمر عليه الصلاة والسلام جماعة من أصحابه^(٣) لينطلقوا إليه ويهدموه ففعلوا . (هذا) ولما استقر عليه الصلاة والسلام بالمدينة جاءه جماعات من الذين تخلفوا يعتذرون كذباً ، فقبل منهم عليه الصلاة والسلام علانيتهم ، ووكل ضماثرهم إلى الله واستغفر لهم .

حديث الثلاثة الذين خلفوا

وجاءه كعب بن مالك الخزرجي ، ومُرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية

(١) وذلك بعد أن أقام بتبوك بضع عشرة ليلة ، ولم يلق حرباً .

(٢) بينها وبين المدينة ساعة .

(٣) هما مالك بن الدخشم ، ومعن بن عدي العجلاني .

الأوسيان مقرّين بذنوبهم، فلما دخل عليه كعب تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الغَضْب وقال ما خلّقتك؟ فقال: يا رسول الله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن سأخرجَ من سخطه بعذر، ولقد أُوتيتُ جدلاً؟^(١) ولكني والله لقد علمتُ لئن حدّثتُك اليوم حديث كذب ترضى به عني لِيُوشِكَنَّ الله أن يَسْخَطَ عليّ فيه، ولئن حدّثتُك حديث صدق تغضب عليّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي من عذر. فقال عليه الصلاة والسلام: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك. وقال صاحبه مثل قوله، فقال لهما عليه الصلاة والسلام كما قال لكعب، ونهى المسلمين عن كلامهم، فاجتنبهم الناس، وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم، واستأذنت زوجُ هلال بن أمية في خدمة زوجها لأنه شيخ. ضائع ليس له خادم فأذن لها، ولم يزالوا كذلك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم، فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام من يشرهم بهذه النعمة الكبرى، فتلقاهم الناس أفواجاً أفواجاً يهتفونهم بتوبة الله. فلما دخل كعب المسجد تلقاه رسول الله مسروراً، فقال: أبشر يا كعب بخير يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك، فقال: من عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله. فقال كعب: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً لله ولرسوله، فقال عليه الصلاة والسلام: امسك عليك بعض مالك فهو خير لك. ثم قرأ عليه الصلاة والسلام الآيات التي فيها توبته هو وصاحبه في سورة براءة: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢).

(١) أي فصاحة، وقوة كلام.

(٢) سورة التوبة الآية: ١١٨.

وفود ثقيف

وعقب مقدمه عليه الصلاة والسلام من تبوك وفد عليه وفد ثقيف، وكان من خبرهم أنه لما انصرف رسول الله من محاصرتهم^(١) تبع أثره عُروة بن مسعود الثقفي^(٢) حتى أدركه قبل أن يصل المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه ويدعوهم إلى الإسلام، فقال له: إنهم قاتلوك، فقال: يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم، فخرج إلى قومه يرجو منهم طاعته لمرتبته فيهم، لأنه كان فيهم محبباً مطاعاً، فلما جاء الطائف وأظهر لهم ما جاء به رموه بالنبل فقتلوه، وبعد شهر من مقتله ائتمروا فيما بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب^(٣)، فأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا لرسول الله رجلاً منهم يكلمه، وطلبوا من عبد ياليل بن عمرو أن يكون ذلك الرجل فأبى، وقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً، فبعثوا معه خمسة من أشرافهم فخرجوا متوجهين إلى المدينة، ولما قابلوا رسول الله ضرب لهم قبة في ناحية المسجد ليسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلّوا. وكانوا يَغْدُونَ إلى رسول الله كل يوم ويخلفون في رحالهم أصغرهم سنّاً عثمان بن أبي العاص^(٤). فكان إذا رجعوا ذهب للنبي واستقرأه القرآن، وإذا رآه نائماً استقرأ أبا بكر حتى حفظ شيئاً كثيراً من القرآن وهو يكتّم ذلك عن أصحابه ثم أسلم القوم، وطلبوا أن يُعَيِّنَ لهم من يؤمُّهم، فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص لما رآه من حرصه على الإسلام وقراءة القرآن وتعلم الدين.

(١) فقال: «اللهم اهْدِ ثَقِيفاً وَأَتِ بِهِمْ مُسْلِمِينَ».

(٢) ورد ذكره في صحيح مسلم.

(٣) لأنهم بايعوا وأسلموا.

(٤) الثقفي، استعمله النبي ﷺ على الطائف، ثم سكن البصرة حتى مات بها.

كتاب أهل الطائف

ثم كتب لهم كتاباً من جملته: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين، إن عضاه وجَّ (١) وصيده حرام، لا يعضد (٢) شجره ومن وُجد يفعل شيئاً من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه) ثم سألوا رسول الله أن يُوجِّل هدم صنمهم شهراً حتى يدخل الإسلام في قلوب القوم ولا يرتاع السفهاء من النساء من هدمه، ف رضي عليه الصلاة والسلام (٣)، ولما خرجوا من عنده قال لهم رئيسهم: أنا أعلمكم بثقيف اكتموا عنهم إسلامكم وخوفوهم الحرب والقتال، وأخبروهم أن محمداً طلب أموراً عظيمة أبينها عليه، سألنا أن نهدم الطاغية، وأن نترك الزنا، وشرب الخمر والربا، فلما حلّوا بلادهم جاءتهم ثقيف، فقال الوفد: جئنا رجلاً فظاً غليظاً قد ظهر بالسيف، ودان الناس له، فعرض علينا أموراً شديدة، وذكروا ما تقدم. فقالوا والله لا نطيعه أبداً، فقالوا لهم: أصلحوا سلاحكم، ورمّوا حصونكم، واستعدوا للقتال، فأجابوا، واستمروا على ذلك يومين أو ثلاثة، ثم ألقى الله الرعب في قلوبهم، فقالوا: والله ما لنا بحربه من طاقة ارجعوا إليه وأعطوه ما سأل، فقال الوفد: قد قاضيناه وأسلمنا، فقالوا لِمَ كنتم علينا ذلك؟ قالوا: حتى تذهب عنكم نخوة الشيطان فأسلموا.

هدم اللات

ولما بلغ رسول الله إسلام ثقيف أرسل أبا سفيان والمغيرة بن شعبة الثقفي لهدم اللات صنم ثقيف بالطائف، فتوجهوا وهدموه حتى سوّوه بالأرض.

(١) عضاه: كشفاه.

(٢) يعضد: يقطع.

(٣) في ابن هشام ج ٢ ص ٥٤٠: وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين فأبى ذلك عليهم فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سألوا شهراً واحداً بعد مقدمهم فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى.

حج أبي بكر

وفي أخريات ذي القعدة أرسل عليه الصلاة والسلام أبا بكر ليحج بالناس فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة ومعه الهدى عشرون بدنة أهداها رسول الله، وساق أبو بكر خمس بدنات، ولما سافر نزل على رسول الله أوائل سورة براءة، فأرسل بها علياً ليلبغها الناس في يوم الحج الأكبر، وقال: لا يبلغني إلا رجل مني، فلحق أبا بكر في الطريق، فقال الصديق: هل استعملك رسول الله على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ أو أتلو براءة على الناس. فلما اجتمعوا بمنى يوم النحر قرأ عليهم علي ثلاث عشرة آية من أول سورة براءة، تتضمن نبذ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفوا عهودهم، وإمهالهم أربعة أشهر يسبحون فيها في الأرض كيف شاؤوا، وإتمام عهد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم إلى مدتهم، ثم نادى: لا يجزئ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان^(١)، وكان علي يصلي في هذا السفر وراء أبي بكر رضي الله عنهما.

وفاة ابن أبي

وفي ذي القعدة مات عبدالله بن أبي^(٢)، وقد صلى عليه رسول الله صلاة لم يطل مثلها، وشيع جنازته حتى وقف على قبره، وإنما فعل ذلك تطييباً لقلب ولده عبدالله بن عبدالله وتأليفاً لقلوب الخزرج لمكانة عبدالله بن أبي فيهم، وقد نزع ربة النفاق كثير من المنافقين بعد هذا اليوم لما رأوه من أعمال السيد الكريم ﷺ، وقد نهى الله رسوله عن الصلاة على المنافقين، فقال جل شأنه في

(١) رواه البخاري.

(٢) ابن سلول رأس المنافقين.

سورة براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ (١).

وفاة أم كلثوم

وفي هذه السنة توفيت أم كلثوم بنت رسول الله وزوج عثمان رضي الله
عنهما.

(١) سورة براءة الآية : ٨٤ .

السنة العاشرة

سرية (١)

في ربيع الآخر أرسل عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد في جمع لبني عبد الممدان^(٢) بنجران من أرض اليمن، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاث مرات فإن أبوا قاتلهم، فلما قدم إليهم بعث الركبان في كل وجه يدعون إلى الإسلام ويقولون: أسلموا تسلموا، فأسلموا ودخلوا في دين الله أفواجا، فأقام خالد بينهم يعلمهم الإسلام والقرآن، وكتب إلى رسول الله بذلك، فأرسل إليه أن يقدم بوفدهم ففعل. وحين اجتمعوا به ﷺ قال لهم: بِمَ كُنْتُمْ تَغْلِبُونَ مَنْ قَاتَلَكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبداً أحداً بظلم، قال: صدقتم وأمر عليهم قيس بن الحصين^(٣).

سرية (٤)

وفي رمضان أرسل عليه الصلاة والسلام علياً في جمع إلى بني مذحج (قبيلة يمانية) وعَمَّمه بيده، وقال: سر حتى تنزل بساحتهم، فادعهم إلى قول:

(١) هي سرية خالد بن الوليد إلى نجران.

(٢) الممدان: اسم صنم.

(٣) اسم الصحابي هنا موافق لما في شرح المواهب وسيرة ابن هشام.

(٤) هي سرية علي بن أبي طالب إلى بني مذحج.

لا إله إلا الله، فإن قالوا نعم فمُرهم بالصلاة ولا تبغ منهم غير ذلك، ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس، ولا تقتلهم حتى يقتلوك، فلما انتهى إليهم لقي جموعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، ورموا المسلمين بالنبل فصنف علي أصحابه وأمرهم بالقتال، فقاتلوا حتى هزموا عدوهم فكف عن طلبهم، ثم لحقهم ودعاهم إلى الإسلام فأجابوا وبإيعه روساؤهم وقالوا: نحن على من وراءنا من قومنا وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله ففعل. ثم رجع إلى رسول الله فوفاه بمكة في حجة الوداع.

بعث العمال إلى اليمن

ثم بعث عليه الصلاة والسلام إلى اليمن عمالاً من قبله، فبعث معاذ بن جبل على الكورة العليا من جهة عدن^(١)، وبعث أبا موسى الأشعري على الكورة السفلى، ووصاهما ﷺ بقوله: «يسراً ولا تُعسراً وبشراً ولا تنفراً»^(٢) وقال لمعاذ: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن أطاعوا لك بذلك فآخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن أطاعوا لك بذلك فآخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك. فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(٣). وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله، أما أبو موسى فقدم على الرسول ﷺ في حجة الوداع^(٤).

(١) جبل بمحلة مكة. المؤلف.

(٢) رواه البخاري.

(٣) لكنه رجع إلى اليمن ولم يشهد وفاة النبي ﷺ.

(٤) رواه البخاري.

حجة الوداع^(١)

وفي السنة العاشرة حجَّ ﷺ بالناس حجةً ودَّع فيها المسلمين ولم يحج غيرها. وخرج لها يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، وولَّى على المدينة أبا دجانة الأنصاري^(٢)، وكان مع الرسول جمع عظيم يبلغ تسعين ألفاً، وأحرم للحج حيث انبعثت به راحلته ثم لَبَّى، فقال: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لا شريك لك لَبَّيْكَ، إن الحمد والنعمة لك والمُلْك لا شريك لك»^(٣). ولم يَزَلْ ﷺ سائراً حتى دخل مكة ضَحَى من الثنية العليا وهي ثنية كداء. ولما رأى البيت قال: اللَّهُمَّ زِدْهُ تَشْرِيفاً وتعظيماً ومهابةً وبراً. ثم طاف بالبيت سبْعاً واستلم الحجر الأسود، وصَلَّى ركعتين عند مقام إبراهيم، ثم شرب من ماء زمزم، ثم سعى بين الصفا والمروة سبْعاً راکباً على راحلته، وكان إذا صعد الصفا: يقول: «لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وحده، أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»^(٤). وفي الثامن من ذي الحجة توجه إلى منى فبات بها.

خطبة الوداع

وفي التاسع منه توجه إلى عَرَفَةَ، وهناك خطب خطبته الشريفة الَّتِي بَيَّن فيها الدين كله أسه وفرعه، وهاك نصها:

الحمد لله نعمده، ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضِلَّ فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله:

(١) حجة: بكسر الحاء وفتحها، وتسمى حجة الإسلام أو البلاغ.
(٢) هو سماك بن خرشة الأنصاري الخزرجي شهد بديراً وكان من الأبطال الشجعان ودافع عن رسول الله ﷺ يوم أحد وشهد اليمامة واستشهد بها.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه مسلم.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحُثُّكُمْ على طاعته وأستفتح بالذي هو خير، أما بعد: أيها الناس اسمعوا مِنِّي أُبَيِّنْ لَكُمْ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا فِي مَوْقِفِي هَذَا، أَيُّهَا النَّاسُ: إِن دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَغَتْ؟ اللَّهُمَّ فَاشْهَد، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنْ ائْتَمَنَ عَلَيْهَا. إِن رَبَّ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ رَبِّاً أَبْدَأُ بِهِ رَبَّاً عَمِّي الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَإِن دِمَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَأَوَّلُ دَمٍ أَبْدَأُ بِهِ دَمَ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ^(١)، وَإِن مَآثِرَ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ غَيْرُ السَّدَانَةِ وَالسَّقَايَةِ، وَالْعَمْدُ قَوْدٌ^(٢)، وَشَبَّهَ الْعَمْدَ مَا قُتِلَ بِالْعَصَا وَالْحَجَرِ وَفِيهِ مِائَةٌ بَعِيرٍ، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ. أَيُّهَا النَّاسُ: إِن الشَّيْطَانَ قَدْ يَتَسَّ أَنْ يُعْبَدَ فِي أَرْضِكُمْ هَذِهِ، وَلَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ أَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ. أَيُّهَا النَّاسُ: إِن النِّسْيَاءَ^(٣) زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَحْلُونَهُ عَاماً، وَيَحْرَمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَإِن الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ^(٤)، وَإِن عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلَاثُ مَتَوَالِيَاتٍ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمُ، وَرَجَبُ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ أَلَا هَلْ بَلَغَتْ؟ اللَّهُمَّ اشْهَد. أَيُّهَا النَّاسُ: إِن لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقٌّ أَلَّا يُوَاطِّنَ فَرَشُكُمْ غَيْرَكُمْ وَلَا يُدْخِلَنَّ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ

(١) لأنه كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل.

(٢) القود: القصاص.

(٣) كانت العرب تحرم أربعة أشهر ثلاث متواليات: وهي ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمُ، وشهر رَجَب، وكانوا ربما استطالوا هذه الأشهر المتوالية لحاجتهم إلى الحرب والقتال، فأحلَّوا المحرم وحرَّموا صَفْرًا من العام المقبل، فهذا هو الذي عابه القرآن عليهم لاتباعهم الهوى في عقيدتهم. المؤلف.

(٤) أشار بهذا الحديث إلى بطلان النسيء الذي كانت تفعله العرب في الجاهلية،

بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تَعْضُلُوهُنَّ^(١) وتهجروهُنَّ في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مُبرِّح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عَوَانٍ^(٢)، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرءٍ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فلا تَرْجِعُنَّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تَضِلُّوا بعده كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لأدم وأدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضلٌ على عجمي إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا تجوز لوارثٍ وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر^(٣)، من ادَّعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله^(٤) وفي هذا اليوم امتنَّ الله على المؤمنين بقوله في سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٥) فلا غرابة أن اتخذهُ المسلمون عيداً ويوماً سعيداً يُظهرون فيه شكر الله على هذه النعمة الكبرى. ثم إنه عليه الصلاة والسلام أدَّى مناسك

(١) العضل: هو الحبس والتضييق. المؤلف.

(٢) عوان: جمع عانية، وهي الأسيرة.

(٣) العاهر: الزاني.

(٤) قال الامام النووي: (وحديث جابر بن عبد الله - هذا - حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد ونفائس من مهمات القواعد، وهو من أفراد مسلم لم يروه البخاري في صحيحه، ورواه أبو داود - في المناسك رقم: ١٩٠٥ - كرواية مسلم).

(٥) سورة المائدة الآية: ٣.

الحج من رمي الجمار والنحر والحلق والطواف، وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قَفَلَ إلى المدينة ولما رآها كَبُرَ ثَلَاثًا وقال: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحده لا شريك له، له الْمُلْكُ وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيُون تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده».

الوفود^(١)

في هذه السنة والتي قبلها كان وفود العرب إلى رسول الله ليبايعوه على الإسلام، وكان يَقْدُمُونَ أفواجاً، ولما في أخبار هذه الوفود من التعاليم الحميدة التي يحتاج ذو الأدب أن يعرفها رأينا أن نذكر لك منها ما يزيدك يقيناً ويُنير بصيرتك فنقول:

وفود نَجْرَان

ومن الوفود وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكباً دخلوا المسجد وعليهم ثياب الجَبَرَة^(٢) وأردية الحرير مختمين بالذهب ومعهم بسط فيها تماثيل ومُسُوح^(٣) جاؤوا بها هدية للنبي ﷺ فلم يقبل البسط وقبل المُسُوح. ولما جاء وقت صلاتهم صلّوا في المسجد مستقبلين بيت المقدس^(٤)، ولما أتموا صلاتهم دعاهم عليه الصلاة والسلام للإسلام فأبوا وقالوا: كنّا مسلمين قبلكم، فقال عليه الصلاة والسلام: يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولداً، قالوا: فمن مثل عيسى خلق من غير أب؟ فأنزل

(١) وهم غير من تقدم ذكرهم من الوفود.

(٢) الجَبَرَة: ضرب من برود اليمن.

(٣) هو ثوب من الشعر غليظ. ومفرد مسوح: مسح.

(٤) مستقبلين المشرق، بخلاف ما ذكر المؤلف.

الله في ذلك في سورة آل عمران : ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١) وليُظهر الله أنهم في شك من أمرهم أنزل : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٢) . فدعاهم ﷺ لذلك فامتنعوا ورضوا بإعطاء الجزية وهي ألف حلة في صَفَر وألف حلة في رجب مع كل حلة أوقية من ذهب^(٣) ثم قالوا إرسل معنا أميناً فأرسل لهم أبا عبيدة عامر بن الجراح وكان لذلك يسمى أمين هذه الأمة^(٤) .

وفود ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ

ومن الوفود ضمام بن ثعلبة، بينا رسول الله بين أصحابه متكئاً جاء رجل من أهل البادية ناثراً الرأس يُسمع دون صوته ولا يُفقه ما يقول، فأناخ جملته في المسجد ثم قال : أيكم ابنُ عبد المطلب؟ فدلّوه عليه، فدنا منه وقال : إني سائلُك فمشدّد عليك في المسألة فلا تجد^(٥) عليّ في نفسك . فقال : سل ما بدا لك ، فقال أنشدك بالله ! الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال : نعم ، فقال أنشدك بالله : الله أمرك أن نصلي خمس صلوات في اليوم والليلة؟ قال : اللهم نعم ، فقال أنشدك بالله : الله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا؟ قال : اللهم نعم ، قال أنشدك بالله : الله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثني عشر شهراً؟ قال : اللهم نعم ، قال أنشدك بالله : الله أمرك أن نحجّ هذا البيت من استطاع إليه

(١) سورة آل عمران الآية : ٥٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٦١ .

(٣) أوقية من فضة .

(٤) وحديث مسلم : أبعث معنا رجلاً يعلمنا الإسلام قال : فأخذ بيد أبي عبيدة فقال : «هذا أمين هذه الأمة» .

(٥) أي لا تغضب . المؤلف .

سبيلاً؟ قال: اللهم نعم، قال: فإني قد آمنت وصدقتُ وأنا ضمام بن ثعلبة^(١). ولما ولى قال عليه الصلاة والسلام: ففقه الرجل: ثم ذهب ضمام إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام وترك عبادة الأوثان فأسلموا كلهم.

وفود عبد القيس

ومن الوفود عبد القيس، وكان من خبرهم أن الرسول كان جالساً بين أصحابه يوماً، فقال لهم: سيطلع عليكم من هنا ركبٌ هم خير أهل المشرق، لم يُكروهوا على الإسلام، قد أنضوا^(٢) الركائب وأفنوا الزاذ، اللهم اغفر لعبد القيس. فلما أتوا ورأوا النبي ﷺ رَمَوْا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد، وتبادروا إلى رسول الله يسلمون عليه، وكان فيهم عبدالله بن عوف الأشج^(٣)، وكان أصغرهم سنّاً فتخلف عند الركائب حتى أناخها وجمع المتاع، وأخرج ثوبين أبيضين فلبسهما، ثم جاء يمشي هَوْنًا حتى سلّم على رسول الله، وكان رجلاً دميماً ففطن لنظر الرسول إلى دمامته، فقال يا رسول الله: إنه لا يُستقى في مسوك جلود الرجال، وإنما الرجل بأصغريه: قلبه ولسانه، فقال ﷺ: (إن فيك خلتين يُحبُّهما الله ورسوله الحلم والأناة)^(٤). وقد قال ﷺ لهذا الوفد: مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى، فقالوا: يا رسول الله إنا نأتيك من شُقة بعيدة^(٥) وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحي من كفار مُضر، وإنا لا نصلُ إليك إلّا في شهر حرام فمُرنا بأمرٍ فصل، فقال: «أمركم بالإيمان بالله. أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان،

(١) رواه البخاري.

(٢) انضوا: أهزلوا.

(٣) رواه مسلم.

(٤) الأشج: إذا كان في جبينه أثر الشجة بيناً.

(٥) لأن ديارهم كانت بساحل الخليج الفارسي.

وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخَمْسَ، وَأَنْهَاكُمُ عَنِ الدُّبَاءِ^(١) وَالْحَنْتَمِ^(٢) وَالنَّقِيرِ^(٣) وَالْمَزْفَتِ^(٤)، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ مَا يَنْبِذُ^(٥) فِي هَذِهِ الْأَوَانِي . فَقَالَ الْأَشْجُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَرْضُنَا ثَقِيلَةً وَخِمَةً وَإِنَّا إِذَا لَمْ نَشْرَبْ هَذِهِ الْأَشْرِبَةَ عَظُمَتْ بَطُونُنَا، فَرَخَّصْ لَنَا فِي مِثْلِ هَذِهِ وَأَشَارَ إِلَى يَدِهِ، فَأَوْمَأَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِكَفِّهِ وَقَالَ : (يَا أَشْجُ إِنْ رَخَّصْتُ لَكَ فِي مِثْلِ هَذِهِ شَرِبْتَهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ - وَفَرَجَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَبَسَطَهَا - حَتَّى إِذَا ثَمَلَ أَحَدُكُمْ مِنْ شَرَابِهِ قَامَ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ فَضَرَبَ سَاقَهُ بِالسَّيْفِ) . وَإِنَّمَا خَصَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَهْيَهُمْ بِمَا ذَكَرَ لَكثَرَةِ الْأَشْرِبَةِ بَيْنَهُمْ .

وَفُودُ بَنِي حَنِيفَةَ

وَمِنَ الْوُفُودِ بَنُو حَنِيفَةَ وَكَانَ مَعَهُمْ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَابِ، وَكَانَ مُسَيْلِمَةُ يَقُولُ : إِنْ جَعَلَ لِي الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِهِ أَتْبَعْتُهُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَمَعَهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ بْنِ شَمَّاسٍ وَفِي يَدَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ قِطْعَةً مِنْ جَرِيدٍ حَتَّى وَقَفَ عَلَى مُسَيْلِمَةَ فِي أَصْحَابِهِ فَقَالَ : إِنْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَإِنِّي لِأَرَاكَ الَّذِي مِنْهُ رَأَيْتَ . وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ رَأَى فِي مَنَامِهِ أَنَّ فِي يَدَيْهِ سَوَارِينَ مِنْ ذَهَبٍ، فَأَهْمُهُ شَأْنُهُمَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ انْفَخِهُمَا فَانْفَخَهُمَا فَطَارَا، فَأَوَّلَهُمَا ﷺ كَذَابَيْنِ يَخْرُجَانِ مِنْ بَعْدِهِ^(٦)، فَكَانَ مُسَيْلِمَةُ أَحَدَهُمَا، وَالثَّانِي الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ صَاحِبُ صَنْعَاءَ . وَقَدْ أَسْلَمَ بَنُو حَنِيفَةَ .

(١) القرع . المؤلف .

(٢) هو جرار مدهونة بدهن أخضر . المؤلف .

(٣) هو أصل النخلة ينقر . المؤلف .

(٤) ما طلي بالزفت . المؤلف .

(٥) أي ما يصير نبيذاً مسكراً .

(٦) روى البخاري خبر مسيلمة هذا في المغازي .

وفود طيء

ومن الوفود وفد طيء وفيهم زيد الخيل^(١) رئيسهم، وقد قال ﷺ في حقه: «ما ذُكِرَ لي رجل من العرب إلا رأيتُه دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل» وسمَّاه ﷺ زيد الخير.

وفود كندة

ومنهم وفد كندة وفيهم الأشعث بن قيس^(٢)، وكان وجيهاً مطاعاً في قومه. ولما دخلوا على رسول الله خبأوا له شيئاً، وقالوا: أخبرنا عما خبأناه لك؟ فقال: سبحان الله إنما يفعل ذلك بالكاهن، وإن الكاهن والمتكهن في النار. ثم قال: إن الله بعثني بالحق وأنزل عليّ كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقالوا: أسمعنا منه، فتلا عليه الصلاة والسلام: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾^(٣) ثم سكتَ وسكنَ ودموعُهُ تجري على لحيته فقالوا: إنا نراك تبكي؟ أفمن مخافة من أرسلك تبكي؟ قال: إن خشيتي منه أبكتني. بعثني على صراط مستقيم في مثل حدِّ السيف إن زغت عنه هلكْتُ، ثم تلا: ﴿وَلَوْ أَنَّ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَضْلُهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾^(٤) ثم قال لهم عليه الصلاة والسلام: ألم تسلموا؟ قالوا: بلى، قال: ما بال هذا الحرير في أعناقكم؟ فعند ذلك شَفَّوه وألقَوْهُ.

(١) زيد بن مهلهل بن زيد الطائي، أقطعه النبي ﷺ أرضاً بنجد.

(٢) كان من ملوك كندة، ثم شهد الأشعث اليرموك بالشام والقادسية وغيرها.

(٣) سورة الصَّافَّاتِ الآيات: ١ - ٥.

(٤) سورة الاسراء الآية: ٨٦ - ٨٧.

وفود ازدشنوة

ومنهم وفد ازدشنوة ورئيسهم صُرْدُ بن عبدالله الأزدي ، فأسلموا وأمره عليهم ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك.

وفود رسول ملوك حمير

ومنهم وفد رسول ملوك حمير وهم : الحارث بن عبد كُلال ونُعيم بن عبد كُلال والنُعمان قَيْلُ ذي رُعَيْن^(٢) وَمَعَايِرَ وَهَمْدَانِ وَكَانُوا قَدْ أَسْلَمُوا ، وَأَرْسَلُوا رَسُولَهُمْ بِذَلِكَ فَكُتِبَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ :

كتاب ملوك حمير

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن عبد كُلال وإلى نُعيم بن عبد كُلال وإلى النُعمان قَيْلِ ذي رُعَيْنَ وَمَعَايِرَ وَهَمْدَانِ . أما بعد فإنني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنه قد وقع بنا رسولكم مُقْفَلَنَا من أرض الروم^(٢) ، فلقيناه بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به ، وخبر ما قبلكم ، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، وأن الله قد هداكم بهُداه ، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وأعطيتُم من الغنائم خُمُسَ الله ، وسهَمَ النبي وَصَفِيَّهِ^(٣) ، وما كُتِبَ على المؤمنين من الصَّدقة . أما بعد : فإن محمداً النبي أرسل إلى زُرْعَةَ ذي يَزَن^(٤) إذا أتاكم رُسُلِي فأوصيكم بهم خيراً : مُعَاذُ بن جبل ، وعبدالله بن زيد ، ومالك بن عُبادة ، وعُقبه بن نمر ، ومالك بن مُرة

(١) القيل : وهم الملوك الذين دون الملك الأكبر .

(٢) أي عند مقدمه ﷺ من غزوة تبوك .

(٣) ما يصطفيه الرئيس من الغنيمة لنفسه قبل أن تقسم الغنائم .

(٤) زُرعة بن ذي يزن ، أسلم وأمن بالنبي ﷺ ولم يره .

وأصحابهم، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفكم، وأبلغوها رُسُلِي، وإن أميرهم معاذ بن جبل فلا يَنْقَلِبَنَّ إلا راضياً، أما بعد: فإن محمداً يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله، ثم إن مالك بن مرة الرَّهاوي قد حَدَّثني أنك أسلمت من أول حمير، وقتلت المشركين، فأبشر بخير وأمرك بحمير خيراً، ولا تخونوا ولا تخذلوا، فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم، وإن الصدقة لا تَحِلُّ لمحمد ولا لأهل بيته، إنما هي زكاة يُزَكِّي بها على فقراء المسلمين وابن السبيل، وأن مالكا قد بلغ الخبر، وحفظ الغيب، وأمركم به خيراً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وفود همدان

ومنها وفد همدان وفيهم مالك بن نَمَط، وكان شاعراً مجيداً، فلقوا رسول الله مَرَجَعَهُ من تبوك عليهم مُقَطَّعَات من الحِجْرَات^(١) اليمينية، والعمائم العدنية، وقد أنشد مالك لرسول الله ﷺ.

حلفتُ ربَّ الراقصات^(٢) إلى مِنى صَوَادِر^(٣) بالركبان من هَضْبٍ قَرَدَدٍ^(٤)
بأنَّ رسولَ الله فينا مُصَدِّقُ رسولٍ أتى من عند ذي العرش مهتدٍ
فما حملتُ من ناقةٍ فوقَ رحلها أشدَّ على أعدائه من محمدٍ

وقد أمره ﷺ على من أسلم من قومه، وقد قال الرسول في حق همدان: نعم الحيي همدان ما أسرعها إلى النصر وأصبرها على الجهد وفيهم أبدال^(٥) وفيهم أوتاد.

(١) المقطعات: الثياب المخيطة من برود اليمن.

(٢) الراقصات: الإبل،

(٣) صوادر: رواجع.

(٤) القردد: ما ارتفع من الأرض.

(٥) الأبدال: هم الأولياء والعباد، وسَمَوْا بذلك لأنهم كلما مات واحد منهم أُبدل به آخر.

وفود تَجِيبُ (١)

ومنها وفد تجيب قبيلة من كندة وفد على رسول الله ثلاثة عشر رجلاً منهم، ومعهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم، فسُرَّ بهم عليه الصلاة والسلام وأكرم مثواهم، وقالوا: يا رسول الله إِنَّا سُقْنَا إِلَيْكَ حق الله في أموالنا، فقال عليه الصلاة والسلام: رَدُّوها فاقسموها على فقرائكم» فقالوا: يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا، قال أبو بكر: يا رسول الله ما قدم علينا من وفد من العرب مثل هذا. فقال عليه الصلاة والسلام: إن الهدى بيد الله، فمن أراد به خيراً شرح صدره للإيمان، وجعلوا يسألونه عن القرآن، فازدادوا رغبة فيهم، ثم أرادوا الرجوع إلى أهليهم فقليل لهم: ما يعجلكم؟ قالوا: نرجع إلى مَنْ وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله ولقائنا إِيَّاه وما رَدَّ علينا، ثم جاؤوا إلى رسول الله فودَّعوه، فأجازهم بأفضل ما كان يُجيز به الوفود، ثم قال لهم: هل بقي منكم أحد؟ قالوا: غلام خَلَفْنَاهُ في رحالنا وهو أحدثنا سِنّاً، قال: فارسلوه إلينا فأقبل الغلام، وقال: يا رسول الله أنا من الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حاجتهم فاقض حاجتي: قال: وما حاجتك؟ قال: تسأل الله أن يغفرَ لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي. فقال عليه الصلاة والسلام: اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه.

وفود ثعلبة

ومنها وفد ثعلبة وفد على رسول الله أربعة منهم مقرّين بالإسلام فسلموا عليه وقالوا: يا رسول الله إِنَّا رُسُل مَنْ خلفنا من قومنا ونحن مقرّون بالإسلام، وقد قيل لنا إنك تقول: لا إسلام لمن لا هجرة له، فقال عليه الصلاة والسلام: «حيثما كنتم واتَّقَيْتُم الله فلا يَضُرُّكم»، ثم قال لهم: كيف بلادكم؟ فقالوا:

(١) بضم التاء وفتحها.

مخصبون، فقال: الحمد لله. ثم أقاموا في ضيافته أياماً، وحين إرادتهم الإنصراف أجاز كل واحد منهم بخمس أواق من فضة.

وفود بني سعد هُذَيم^(١)

ومنها وفد بني سعد هذيم من قضاة، قال النعمان منهم: قدمت على رسول الله وافداً في نفر من قومي: وقد أوطأ رسول الله البلاد وأزاح العرب^(٢)، والناس صنفان: إما داخل في الإسلام راغب فيه، وإما خائف السيف، فنزلنا ناحية من المدينة، ثم خرجنا نؤم^(٣) المسجد حتى انتهينا إلى بابه، فوجدنا رسول الله يصلي على جنازة في المسجد، فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس في صلاتهم، وقلنا حتى يصلي رسول الله ونُبايعه. ثم انصرف رسول الله فنظر إلينا فدعا بنا فقال: مَنَ أنتم؟ فقلنا من بني سعد هذيم، فقال أمسلمون أنتم؟ قلنا: نعم، فقال: هَلَا صَلَّيْتُمْ عَلَى أَخِيكُمْ؟ قلنا: يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز حتى نبايعك، فقال عليه الصلاة والسلام أينما أسلمتم فأنتم مسلمون. قال: فأسلمنا وبايعنا رسول الله بأيدينا، ثم انصرفنا إلى رِحالنا، وقد كُنَّا خَلْفَنَا أَصْغَرْنَا فبعث عليه الصلاة والسلام في طلبنا، فأتى بنا إليه فتقدم صاحبنا فبايعه ﷺ على الإسلام، فقلنا: يا رسول الله إنه أصغرنا وإنه خادمنا فقال: سيد القوم خادمهم^(٤) بارك الله عليه. قال النعمان: فكان خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء النبي ﷺ^(٥) ثم أجازهم وانصرفوا.

(١) في الأصل: سعد بن هذيم وهو خطأ.

(٢) أوطأ: أي جعلها موطأة قهراً وغلبة.

(٣) نؤم: نقصد.

(٤) وهو حديث ضعيف، وقد يقال حسن لغيره.

(٥) في السيرة الحلبية ثم أمره علينا فكان يؤمنا.

وفود بني فزارة

ومنها وفد بني فزارة وفدَ على رسول الله جماعة منهم مقرّين بالإسلام وهم مُسْتَبْتُونَ^(١)، فسألهم عليهم الصلاة والسلام عن بلادهم، فقال رجل منهم: يا رسول الله أسنت بلادنا، وهلك مواشينا، وأجذب جنابنا^(٢)، وجاعت عيالنا. فادع لنا ربك يُعْثِنَا، واشفع لنا إلى ربك، وليشفع لنا ربك إليك، فقال عليه الصلاة والسلام: (سبحان الله، ويلك هذا، أنا أشفع إلى ربي فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه! لا إله إلا هو العليّ العظيم وسِعَ كرسيّه السموات والأرض فهي تَبْطُ^(٣) من عظمته وجلاله كما يبط الرّحل) الحديث. أي من ثقل الحمل، ثم صعد عليه الصلاة والسلام المنبر، ودعا الله عزّ وجلّ حتى أغاث بلاد هذا الوفد بالمطر الغزير والرحمة التامة.

وفود بني أسد

ومنها وفد بني أسد، وفيهم، ضَرَار بن الأزور وطليحة بن خويلد^(٤) الذي ادّعى النبوة بعد ذلك، فأسلموا، وقالوا: يا رسول الله أتيناك نندرع الليل البهيم في سنة شهباء^(٥) ولم تبعث إلينا بعثاً، فأنزل الله في ذلك: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٦) وسألوا رسول الله ﷺ عما كانوا يفعلون في الجاهلية من

(١) أي أصابهم الجذب.

(٢) الجناب: أي ما حول بيوتنا.

(٣) أي تصوت. المؤلف.

(٤) في الأصل: طليحة بن عبد الله وهو خطأ.

(٥) أي نجعل الليل الشديد الظلمة درعاً لنا في سنة جدداء لا مطر فيها.

(٦) سورة الحجرات الآية: ١٧.

العيافة^(١) والكهانة^(٢)، وضرب الحصباء، فنهاهم عن ذلك، ثم سألوه عن ضرب الرمل، فقال: عَلَّمَهُ نبي فمن صادف مثل علمه فذاك وإلا فلا. ثم أقاموا أياماً يتعلمون الفرائض، وبعد ذلك ودَّعُوا وانصرفوا بعد أن أُجيزوا.

وفود بني عُذْرَة

ومنها وفد بني عذرة ووفد بني بَلِيٍّ، ووفد بني مُرَّة، ووفد خولان - وهي قبائل باليمن^(٣) - وقد أمرهم عليه الصلاة والسلام بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاوروا، وأن لا يظلموا أحداً فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.

وفود بني مُحَارِب

ومنها وفد بني محارب، وكانوا من الذين ردُّوا الرد القبيح حينما كان رسول الله بعكاظ يدعو القبائل إلى الله، فما أعظم منة الله الذي أتى بهؤلاء (وكانوا الدُّ الأعداء) مسلمين مُنقادين.

وفود غَسَّان

ومنها وفد غسان، ووفد بني عَبَس، ووفد النَّخَع.

وكان عليه الصلاة والسلام يقابل هذه الوفود بما جَبَلَهُ الله عليه من البشاشة وكرم الأخلاق، ويُجيزهم بما يرضيهم، ويعلمهم الإيمان والشرائع ليعلموا من وراءهم، وكانت هذه الوفود أعظم وصلة لإظهار الدين بين الأعراب في البوادي.

(١) هي زجر الطير، المؤلف.

(٢) هي الإخبار عن الكائنات. المؤلف.

(٣) وهو خطأ والصواب وهي قبيلة باليمن والمقصود قبيلة خولان

وفاة إبراهيم بن النبي عليه الصلاة والسلام

وفي هذه السنة توفي إبراهيم بن رسول الله ﷺ (١).

(١) رواه البخاري في الجنائز: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإننا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

السنة الحادية عشرة

سرية (١)

لأربع بقين من صفر جهز عليه الصلاة والسلام جيشاً برياسة أسامة بن زيد إلى أبنى (٢) حيث قتل زيد بن حارثة والد أسامة وقال له: «سر إلى موضع قتل أبيك، فاوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش فأعز صباحاً على أهل أبنى وحرقت عليهم، واسرع السير لتسبق الأخبار، فإن أظفرك الله فأقل اللبث فيهم، وخذ الأدلاء، وقدم العيون والطلائع معك». وكان مع أسامة في هذا الجيش كبار المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد. ثم عقد عليه الصلاة والسلام لأسامة اللواء وقال له: «إغز باسم الله في سبيل الله وقاتل من كفر بالله». وقد انتقد جماعة على تأمير أسامة وهو شاب لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره على جيش فيه كبار المهاجرين، فأبلغ الرسول هذه المقالة فغضب غضباً شديداً، وخرج فقال: أما بعد: أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله؟! وإيم الله إنه كان لخليقاً بالإمارة وإن ابنه من بعده لخليق

(١) هي سرية زيد بن حارثة إلى أهل أبنى.

(٢) محل قريب من مؤتة. المؤلف.

بها، وإن كان لمن أحب الناس إليّ^(١)، وإنهما لمظنة لكل خير، فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم. ولم يتم لهذا الجيش الخروج في عهد المصطفى ﷺ لأن المرض بدأه فاختره الله للرفيق الأعلى. وسيرى القارىء إن شاء الله خروج هذا الجيش متمماً في كتابنا «إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء».

مرض الرسول ﷺ

لما تم عليه الصلاة والسلام ما كُلف به، وأدى ما أوْتَمَن عليه، وهدى الله به أمته اختاره الله للرفيق الأعلى، فجلس على المنبر مرة، وكان فيما قال: «إن عبداً من عباد الله خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختر ما عنده» فبكى أبو بكر وقال: يا رسول الله فديناك بأبائنا وأمهاتنا، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن آمن الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام، لا يبقى في المسجد خوذة إلا سُدت إلا خوذة أبي بكر»^(٢). وقد بدأه عليه الصلاة والسلام مرضه في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة في بيت ميمونة، واستمر مريضاً ثلاثة عشر يوماً كان في خلالها ينتقل إلى بيوت أزواجه، ولما اشتد عليه المرض استأذن منهن أن يُمرَضَ في بيت عائشة الصديقة فأذن له^(٣)، ولما دخل بيتها واشتد عليه وجعه قال: هريقوا عليّ من سبع قرَب لم تُحلَّل أو كيتهن لعلّي أعهد إلى الناس، فأجلس في مخضَب وصَبَّ عليه الماء حتى أشار بيده أن قد فعلتن^(٤)، وكان هذا الماء لتخفيف حرارة الحمى التي كانت تصيب من يضع يده فوق ثيابه.

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم. والخوذة: هي كورة تؤدي الضوء إلى البيت.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري.

صلاة أبي بكر بالناس

ولما تعذّر عليه الخروج إلى الصلاة قال: مُروا أبا بكر فليصل بالناس^(١)
فرضيه عليه الصلاة والسلام خليفة له في حياته . ولما رأت الأنصار اشتداد وجع
الرسول طافوا بالمسجد، فدخل العباس، وأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، فخرج
ﷺ متوكئاً على عليّ والفضل، وتقدم العباس أمامهم والنبي معصوبُ الرأس
يخطُ برجليه، حتى جلس في أسفل مِرْقاة المنبر، وثار الناس إليه فحمد الله،
وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خلد
نبي قبلي فيمن بعث الله فَأُخْلِدَ فيكم؟ ألا إني لاحق بربي وإنكم
لاحقون بي فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما بينهم،
فإن الله تعالى يقول: ﴿وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾^(٢) وإن الأمور تجري
بإذن الله، ولا يَحْمِلَنَّكُمْ استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عزَّ وجلَّ لا يعجل
بعجلة أحد، ومن غَالَبَ الله غلبه، ومن خادَعَ الله خدعه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ
تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾^(٣) وأوصيكم بالأنصار خيراً،
فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم
من الثمار؟ ألم يُوسَّعُوا لكم في الديار؟ ألم يُؤثِّروكم على أنفسهم وبهم
الخصاصة؟ ألا فمن وُلِّيَّ أن يحكم بين رجلين فليقبل من مُحْسِنهم وليتجاوز عن
مسيئهم، ألا وتستأثروا عليهم، ألا وإني فَرَطُ^(٤) لكم، وأنتم لاحقون بي، ألا فإن
موعدكم الحوض، ألا فمن أحبَّ أن يَرِدَهُ عليّ غداً فليكفف يده ولسانه إلا فيما
يبغي» .

(١) رواه البخاري .

(٢) سورة العصر .

(٣) سورة محمد الآية : ٢٢ .

(٤) الفرط : فرط القوم يتقدمهم إلى الورد لإصلاح الحوض والدلاء

وبينما المسلمون في صلاة الفجر من يوم الإثنين ثالث عشر ربيع الأول وأبو بكر يصلي بهم إذا برسول الله ﷺ قد كشف سَجَفَ حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تَبَسَّمَ يضحك، فنكص أبو بكر رضي الله عنه على عقبة ليصل الصَّفَّ، وظن أن رسول الله يريد أن يخرج إلى الصلاة وهم المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر^(١).

وفاة رسول الله ﷺ

ولم تأت ضحوة هذا اليوم حتى فارق رسول الله ﷺ دنياه ولحق بمولاه، وكان ذلك في يوم الإثنين ١٣ ربيع أول سنة ١١ (٨ يونيو سنة ٦٣٣) فيكون عمره عليه الصلاة والسلام ٦٣ سنة قمرية كاملة، وثلاثة أيام، وإحدى وستين شمسية، وأربعة وثمانين يوماً، وكان أبو بكر غائباً بالسُّنْح وهي منازل بني الحارث بن الخزرج عند زوجه حبيبة بنت خازجة بن زيد، فسَلَّ عمر سيفه، وتوعد مَنْ يقول مات رسول الله، وقال: إنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى، فلبث عن قومه أربعين ليلة، والله إني لأرجو أن يُقَطَّع أيدي رجالٍ وأرجلهم، فلما أقبل أبو بكر، وأخبر الخبر دخل بيت عائشة، وكشف عن وجه رسول الله، فجثا يُقَبِّلُهُ، ويبكي، ويقول: توفي والذي نفسي بيده، صلوات الله عليك يا رسول الله ما أطيبك حيًّا وميتًا بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتتين^(٢). ثم خرج فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ألا من كان يعبدُ محمداً، فإنَّ محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت» وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٣) وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ

(١) رواه البخاري.

(٢) وفي رواية البخاري زيادة: «أما الموتة التي كُتِبَتْ عليك فقد مُتَّهَا».

(٣) سورة الزمر الآية: ٣٠.

مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١﴾ قال عمر: والله لكأني لم أتلُ هذه الآية قط. ثم مكث عليه الصلاة والسلام في بيته بقية يوم الاثنين وليلة الثلاثاء ويومه وليلة الأربعاء حتى انتهى المسلمون من إقامة خليفة عليهم فُغُسلَ ودُفِنَ، وكان الذي يغسله عليُّ بن أبي طالب، ويساعده العباسُ وابناه الفضل وقثم وأُسامة بن زيد وشُقْران مولى رسول الله، وكُفِّنَ في ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة، ولما فرغوا من تجهيزه وُضع على سريره في بيته، ودخل الناس عليه أرسالاً متتابعين يُصَلُّون عليه ولم يؤمهم أحد، ثم حُفِرَ له لحد في حجرة عائشة حيث توفي، وأنزله القبرَ عليّ والعباس وولداه الفضل وقثم، ورَشَّ قبره بلال بالماء، ورُفِعَ قبره عن الأرض قدر شبر.

توفي رسول الله ﷺ، وترك للمسلمين ما إن اتبعوه لم يضرهم شيء: كتاب الله الذي لم يأت به الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وترك أصحابه البررة الكرام يوضحون الدين، ويتممون فتح البلاد، ويظهرون في الدنيا شمس الدين الإسلامي القويم حتى يتمم الله كلمته، ويحق وعده، وقد فعل، فنسأل الله أن يقدرنا على أداء شكره على هذه المنّة العظمى والنعمة الكبرى.

(١) سورة آل عمران الآية: ١٤٤.



شمائله عليه الصلاة والسلام

منح الله سبحانه نبينا ﷺ من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره ممن قبله أو بعده، ولا بد أن نأتي لك في هذا الباب^(١) بنبذة يسيرة من محاسن صفاته وأحاسن آدابه، لتكون لك نموذجاً تسير عليه، حتى تكون على قدم نبيك ﷺ، فتستحق الحمد في الدنيا والآخر في الأخرى. فاعلم أرشدني الله وإياك ﷺ، وهذاننا للصراف السوي أن خصال الجلال والكمال في البشر نوعان: ضروري دنيوي: اقتضته الجبلة^(٢) وضرورة الحياة، ومكتسب ديني: وهو ما يُحمد فاعله ويُقربُ إلى الله زلفى. فأما الضروري: فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب مثل ما كان في جبلة عليه الصلاة والسلام من كمال الخلق، وجمال الصورة، وقوة العقل، وصحة الفهم، وفصاحة اللسان، وقوة الحواس والأعضاء، واعتدال الحركات، وشرف النسب، وعزة القوم وكرم الأرض، ويلحق به ما تدعو ضرورة الحياة إليه من الغذاء والنوم والملبس والمسكن والمال والجاه. أما المكتسبة الآخروية: فسائر الأخلاق العلية والآداب الشرعية من: الدين، والعلم،

(١) جل ما ذكر في الشمائل والمعجزات مختصر من كتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله. المؤلف.

(٢) الجبلة: الخلقة التي خلق عليها.

والجِلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة،
والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة،
وحسن الأدب، والمعاشرة. . . وأخواتها وهي التي يجمعها حسن الخلق.

فإذا نظرت - رعاك الله - إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة وفي
جِبَلَةِ الخلقة، وجدته عليه الصلاة والسلام حائزاً لجميعها، محيطاً بشتات
محاسنها. (فأما) الصورة وجمالها وتناسب أعضائه في حُسنها، فقد جاءت الآثار
الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك من أنه ﷺ كان: أزهر اللون^(١)، أدعج^(٢)،
أنجل^(٣)، أشكل^(٤)، أهدب الأشفار^(٥)، أبلج^(٦)، أزج^(٧)، أفنى^(٨)، أفلج^(٩)، مدوّر
الوجه، واسع الجبين، كَثَّ اللحية تملأ صدره، سواء البطن، عظيم الصدر^(١٠)،
عظيم المنكبين^(١١)، ضخم العظام، عَبل^(١٢) العضدين والذراعين والأسافل، رَحْب
الكفّين والقدمين، سائل الأطراف^(١٣)، أنور المتجرّد^(١٤)، دقيق المسربة^(١٥)، ربعة

(١) ثَبَر اللون أو حسنه . المؤلف . قال الحافظ : أبيض مشرباً بحمرة .

(٢) شديد سواد الحدة مع سعة فيها . المؤلف .

(٣) واسع العين مع حسن . المؤلف .

(٤) في بياض عينيه حمرة ، المؤلف .

(٥) كثير شعر حروف الأجنان . المؤلف .

(٦) مضيء الوجه مشرقه . المؤلف .

(٧) دقيق الحاجبين مع طول . المؤلف .

(٨) مرتفع قصبه الأنف مع احديداب يسير فيها . المؤلف .

(٩) مفرج بين الثنايا والرباعيات . المؤلف .

(١٠) الأصح أن يقول : سواء البطن والصدر .

(١١) المنكب مجمع رأس العضد والكف . المؤلف .

(١٢) ضخم . المؤلف .

(١٣) أي تام .

(١٤) أي ما تجرد من بدنه أشرق من غيره .

(١٥) المسربة : شعر دقيق من الصدر إلى البطن . المؤلف .

القدّ (١)، ليس بالطويل البائن (٢)، ولا القصير المتردد (٣)، ومع ذلك فلم يكن يُماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله ﷺ، رجل الشعر (٤)، إذا افترّ ضاحكاً افترّ عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام، إذا تكلم رُئي كالنور يخرج من بين ثناياه، أحسن الناس عنقاً ليس بمطّهم (٥) ولا مكلّم (٦)، متماسك البدن، ضرب اللحم. قال البراء بن عازب: ما رأيت من ذي لَمّة (٧) سوداء في حلّة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ. وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلألأ في الجدر (٨). وفي حديث ابن أبي هالة: يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر. وقال علي رضي الله عنه في آخر وصفه له: من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفةً أحبه يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ.

(وأما) نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه، ونزاهته عن الأقدار، وعورات الجسد (٩)، فكان قد خصّه الله تعالى في ذلك بخصائص لم توجد في غيره ثم تمّمها بنظافة الشرع. قال عليه الصلاة والسلام بُني الدين على النظافة، وقال أنس: ما شِممت عنبراً قطّ ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ. وعن جابر بن سمرة أنه عليه الصلاة والسلام مسحَ خَدّه، قال: فوجدت ليده برداً

(١) الربعة: المربع.

(٢) مفرط الطول. المؤلف.

(٣) المتناهي في القصر. المؤلف.

(٤) رجل: أي ما بين الجعودة والسبوطة.

(٥) ليس بفاحش الذم.

(٦) المكلّم: صغير الذقن. المؤلف. وفي القاموس: مجتمع لحم الوجه.

(٧) هي ما طال من شعر الرأس في أحد جانبيه، وقيل: ما جاوز من شعره شحمة الأذن.

(٨) أي أن نور وجهه الشريف يشرق إشراقاً يصل إلى الجدران المقابلة كما يكون ذلك من الشمس.

الشمس.

(٩) أي عيوبه.

وريحاً كأنما أخرجها من جُؤنة عطار^(١). قال غيره: مَسَّهَا بطيب أو لم يَمَسَّهَا، يَصَافِح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، يضع يده على رأس الصبي، فيُعرف من بين الصَّبِيَّان بريحها، وروى البخاري في تاريخه الكبير عن جابر: لم يكن النبي ﷺ يَمُرُّ في طريق فيتبعه أحد إلا عُرِفَ أنه سلكه من طيبه.

(وأما) وفور عقله ﷺ وذكاء لُبِّه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدالُ حركاته، وحسن شمائله، فلا مِرية^(٢) أنه كان أعقلَ الناس وأذكاهم، ومن تأمل تدبيره أمرَ بواطن الخلق، وظواهرهم وسياسته للعامة والخاصة، مع عجب شمائله وبديع سِيرِهِ فضلاً عما أفاده من العلم، وقرّره من الشرع، دون تعلّم سابق، ولا ممارسة تقدّمت، ولا مطالعة للكتب منه، لم يمتَرِ في رُجحان عقله، وثُقُوب فهمه^(٣) لأول بديهة. وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام في الصلاة يرى مَنْ خلفه كما يرى مَنْ أمامه، فُسِّرَ قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾^(٤) وقالت عائشة: كان عليه الصلاة والسلام يرى في الظلمة كما يرى في الضوء، وكان يُعَدُّ في الثريا أحد عشر نجماً، وجاءت الأخبار أنه صَرَعَ رُكَّانَةً^(٥) أشدَّ أهل وقته، وكان دعاه إلى الإسلام. وقال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله ﷺ في مشية كأنما الأرض تُطَوَّى له، إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وهو غير مكترث. وفي صفته عليه الصلاة والسلام أَنَّ ضَحِكَه كان تبسُّماً، إذا التفت التفت معاً، وإذا مشى مشى تَقْلُعاً^(٦)، كأنما ينحطّ من صَبَب^(٧).

(١) الجؤنة: سَفَطُ الكفّة مَغْشَى بجلد لطيب العطار.

(٢) مِرية: شك.

(٣) يقال ثاقب الفهم أو الرأي: أي ينظر إلى الأمور بدقة.

(٤) سورة الشعراء الآية: ٢١٩.

(٥) هو رُكَّانَة بن عبد يزيد بن هاشم القرشي.

(٦) التَقْلُع: أي إذا مشى كان يرفع رجله رفْعاً باثناً، ولا يمشي اختيلاً.

(٧) الصَّبَب: ما انحدر من الأرض.

وأما فصاحةُ اللسان، وبلاغةُ القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحلِّ الأفضل، والموضع الذي لا يُجْهَل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلف، أُوتِيَ جوامع الكلِّم، وخُصَّ ببدايع الحكم، وعُلِّمَ ألسنة العرب، فكان يُخاطب كل أمةٍ منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويُباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله. من تأمل حديثه وسيَرَه علم ذلك وتحقُّقه. وليس كلامه مع قريش ككلامه مع أقبال^(١) حضر موت، وملوك اليمن، وعظماء نجد. بل يستعمل لكل قبيلة ما استحسنته من الألفاظ، وما انتهجته من طرق البلاغة لِيُبَيِّن للناس ما نُزِّل إليه، وليحدِّث الناس بما يعملون.

(وأما) كلامه المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه، وحكمه المأثورة، فقد أَلَفَ النَّاسُ فيها الدواوين، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها ما يُوازي فصاحة ولا يباري بلاغة، كقوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». وقوله: «الناس كأسنان المشط»، و«المرء مع من أحبَّ»، و«لا خير في صُحبة مَنْ لا يرى لك ما ترى له»، و«الناس معادن»، و«ما هلك امرؤ عرف قدره»، و«المستشار مؤتمن»، و«رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم». وقوله: «أسلم تسلم، وأسلم يُؤتكَ الله أجرَك مرتين»، و«إن أحبَّكم إليَّ وأقربكم مِنِّي مجالس يوم القيامة أحاسنُكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً الذين يَأْلِفون ويؤْلَفون». وقوله: «لعلَّه كان يتكلم بما لا يعنيه أو يبخل بما لا يغنيه»، وقوله: «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً». ونهيه عن «قيل وقال، وكثر السؤال، وإضاعة المال، ومنع وهات، وعقوق الأمهات، ووَاد البنات»، وقوله: «اتقِ الله حيثما كنت، وأتبع السيئة

(١) الأقبال: أي الأمراء. والقَيْل: يطلق على الملك في اليمن.

الحسنة تمحها، وخالق الناس بِخلق حسن»، و«خير الأمور أوساطها». وقوله: «أحب حبيبك هوناً ماً، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما»، وقوله: «الظلم ظلمات يوم القيامة». وقوله في بعض دعائه: «اللهم إني أسألك رحمة تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلم بها شعبي، وتصالح بها غائبي وتزكي بها عملي، وتلهمني بها رُشدي، وتردّ بها ألفتي، وتعصمني بها من كل سوء، اللهم إني أسألك الفوز في القضاء، ونُزُل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء». إلى غير ذلك مما رَوته الكافة عن مقاماته، ومحاضراته، وخطبه، وأدعيته، ومخاطباته، وعهوده، مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يُقاس بها غيره، وحاز سَبْقاً لا يُقدَّر قدره. وقد قال أصحابه: ما رأينا الذي هو أفصح منك، فقال: «وما يمنعني، وإنما أنزل القرآن بلساني، لسان عربي مُبين»، وقال مرة أخرى: «أنا أفصح العرب بيدَ أني من قريش، ونشأت في بني سعد». جمع بذلك قوة عارضة^(١) البادية وجزالتها^(٢)، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدّهُ الوحي الذي لا يُحيط بعلمه بشر.

(وأما) شرف نسبه، وكرم بلده، ومنشئه، فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا بيان مُشكلٍ، ولا خفي منه. فإنه نخبة بني هاشم وسلالة قريش وصميمها، وأشرف العرب، وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة، من أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده. وقد قدّمنا لك في أول الكتاب ما فيه الكفاية في هذا المقام.

أما ما تدعو إليه ضرورة الحياة، فمنه ما الفضل في قلته، ومنه ما الفضل في كثرته، ومنه ما تختلف الأحوال فيه، فالأول: كالغذاء والنوم، ولم تزل العرب والحكماء قديماً تتماذج بقلتهما، وتذم بكثرتهما لأن كثرة الأكل والشرب

(١) عارضة: حلاوة.

(٢) الجزالة: ضد الركافة من الألفاظ، وهي القوة والمتانة.

دليل على النَّهْم والجِرْص، والشَّرَّة وغلبة الشهوة، مسبب لمضار الدنيا والآخرة، جالب لأدواء الجسد، وخُشارة النفس^(١)، وامتلاء الدماغ، وقلته دليل على القناعة، ومِلْك النفس. وقمع الشهوة، مُسبَّب للصحة، وصفاء الخاطر، وحدة الذهن، كما أن النوم دليل على الفُسولة^(٢)، والضعف، وعدم الذكاء والفتنة مسبب الكسل، وعادة العجز، وتضييع العمر في غير نفع، وقساوة القلب وغفلته وموته. وكان عليه الصلاة والسلام قد أخذ من الأكل والنوم بالأقل، وحضَّ عليه قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه! حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه». ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب. وقالت عائشة رضي الله عنها: (لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعاً قط، وإنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشبهاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِلَ، وما سقوه شرب). وفي صحيح الحديث: «أما أنا فلا أكل متكاً» والإتكاء: هو التمكن للأكل والتقاعد^(٣) في الجلوس له كالمتربّع وشبهه من تمكّن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل ويستكثر منه، والنبي عليه الصلاة والسلام إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مقعياً^(٤)، ويقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد»، وكذلك نومه كان قليلاً ومع ذلك فقد قال: «إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي».

وأما ما الفضل في كثرته فكالجاه، وهو محمودٌ عند العقلاء عادة، وبقدر جاهه عظمه في القلوب، وقد قال تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿وَجِئْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾^(٥) وكان النبي ﷺ قد رُزِق الحشمة والمكانة في القلوب،

(١) خُشارة النفس: ثقلها وعدم نشاطها.

(٢) أي كسل النفس، والفسل: كل مسترذل رديء.

(٣) التقاعد: التمكن والثبوت من القعود.

(٤) المستوفز: المرسع. والإقعاء: أن يجلس على إتيته وينصب إحدى ساقيه.

(٥) سورة آل عمران الآية: ٤٥.

والعظمة قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها، وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه، ويقصدون أذاه في أنفسهم خفية، حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته، كما ذكرنا ذلك مراراً، وقد كان يُبْهَتُ وَيُفَرَّقُ لرؤيته مَنْ لم يره، كما روي عن قيلة^(١) أنها لما رآته أرعدت من الفرق فقال: «يا مسكينة عليك السكينة». وفي حديث أبي مسعود «أن رجلاً قام بين يديه فأرعد فقال له عليه الصلاة والسلام: هوّن عليك فإنني لست بملك».

وأما عظيم قدره بالنبوة، وشريف منزلته بالرسالة، وإنافة رتبته^(٢) بالإصطفاء والكرامة في الدنيا فأمر هو مبلغ النهاية، ثم هو في الآخرة سيد ولد آدم.

وأما ما تختلف فيه الحالات في التمدح به، والتفاخر بسببه والتفضيل لأجله، ككثرة المال. فصاحبه على الجملة معظّم عند العامة لاعتقادها توصله به إلى حاجاته، وتمكّنه في أغراضه وإلا فليس فضيلة في نفسه، فمتى كان بهذه الصورة، وصاحبه مُنْفَقاً له في مهماته، ومهمات من قصده وأمله يصرفه في مواضعه، مشترياً به المعالي والثناء الحسن، والمنزلة من القلوب. كان فضيلة في صاحبه عند أهل الدنيا. وإذا صرفه في وجوه البرّ، وأنفقه في سبل الخير، وقصد بذلك الله تعالى والدار الآخرة، كان فضيلة عند الكل بكل حال، ومتى كان صاحبه مُمَسْكاً له، غير موجهه وجوهه، حريصاً على جمعه، عادت كثرته كالعدم وكان منقصة في صاحبه، ولم يقف به على جُودِ السلامة^(٣)، بل أوقعه في هوة رذيلة البخل، ومذمة النذالة، فالتمدّح بالمال ليس لذاته بل للتوصل به إلى غيره، وتعريفه في متصرفاته، ونبيّنا ﷺ أوتي خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأُحِلَّتْ له الغنائم، وفتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع

(١) هي قيلة بنت مخزومة التميمية من بني النضير.

(٢) إنافة رتبته: أي رفعتها وظهورها.

(٣) أي طرائق السلامة.

جزيرة العرب، وما داني ذلك من الشام العراق، وجُلب إليه كثير من أخماسها وجزيتها وصدقاتها، وهاداه^(١) جماعة من ملوك الأقاليم، فما استأثر بشيء منه، ولا أمسك منه درهماً بل صرفه مصارفه، وأغنى به غيره، وقوى به المسلمين، وقال: «ما يسرني أن لي أهداً ذهباً يبيت عندي منه دينار إلا ديناراً أُرصده لديني»^(٢) وأتته دنائير مرة فقسمها، وبقيت منها بقية فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها، وقال: «الآن استرحت». ومات ودرعه مرهونة في نفقة عياله^(٣)، واقتصر في نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعو ضرورته إليه، وزهد فيما سواه، فكان يلبس ما وجدته، فيلبس في الغالب الشُّملة^(٤) والكساء الخشن، والبرْد الغليظ، ويقسم على من حضره أقبية الديباج^(٥) المخوصصة^(٦) بالذهب، ويرفع لمن لم يحضر، فأنت ترى أن رسول الله ﷺ حاز فضيلة المال بالزهد فيه، وإنفاقه على مستحقه.

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة وهي المسماة بحسن الخلق فجميعها قد كانت خلق نبينا ﷺ على الإنتهاء في كمالها، والإعتدال إلى غايتها حتى أثنى الله تعالى عليه بذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٧) قالت عائشة: كان خُلُقه القرآن، يرضى برضاه، ويسخط بسخطه. وقال عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ لأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(٨) وقال أنس: كان عليه الصلاة والسلام أحسن الناس خُلُقاً. وكانت له هذه الآداب

(١) أي أرسلوا له الهدايا.

(٢) رواه البخاري.

(٣) عند يهودي إلى سنة في ثلاثين صاعاً من شعير.

(٤) الشُّملة: كساء يشتمل به، بأن يديره على جسده كله.

(٥) الديباج: فارسي معرب، وهو الثوب المزين.

(٦) أي المنسوجة.

(٧) سورة القلم الآية: ٤.

(٨) رواه الامام أحمد.

الكريمة كما كانت لإخوانه من الأنبياء جبلةً خلُقوا عليها. ثم يتمكن الأمر لهم، وتترادف نفحات الله عليهم، وتُشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية، ويبلغوا باصطفاء الله لهم بالنبوة في تحصيل هذه الخصال الشريفة النهاية دون ممارسة، وهذه الأخلاق المحمودة، والخصال الجميلة كثيرة ولكننا نذكر أصولها. ونشير إلى جميعها. ونحقق وصفه عليه الصلاة والسلام بها إن شاء الله.

فأصل فروعها وعنصر بنايعها ونقطة دائرتها، العقل، الذي منه ينبعث العلم والمعرفة، ويتفرع عن هذا ثقب الرأي، وجودة الفطنة، والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب، ومصالح النفس، ومجاهدة الشهوة، وحسن السياسة والتدبير، واقتناء الفضائل، وتجنب الرذائل، وقد بلغ عليه الصلاة والسلام منه من العلم الغاية القصوى التي لم يبلغها بشر سواه. يعلم ذلك من تتبّع مجازي أحواله، وأطراد سيره، وطالع كلمه، وحسن شمائله، وبدائع سيره، وحكم حديثه، وعلمه بما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وحكم الحكماء وسير الأمم الخالية وأيامها، وضرب الأمثال، وسياسات الأنام، وتقرير الشرائع، وتأصيل الآداب النفيسة، والشيم الحميدة، إلى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه فيها قدوة، وإشاراته حجة كالطب والحساب والفرائض والنسب وغير ذلك دون تعليم ولا مدارس، ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم بل نبي أمي لا يعرف شيئاً من ذلك، حتى شرح الله صدره، وأبان أمره وعلمه. وبَحَسَب عقله كانت معارفه عليه الصلاة والسلام إلى سائر ما علمه الله، وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان، وعجائب قدرته، وعظيم ملكوته قال تعالى:

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(١).

(١) سورة النساء الآية: ١١٣.

(وأما) الحلم والإحتمال والعفو مع القدرة، والصبر على ما يكرهه، فمما أَدَّبَ الله به نبيّه ﷺ فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١)، وقد سأل عليه الصلاة والسلام جبريل عن تأويلها. فقال: يا محمد. إن الله يأمرك أن تَصِلَ من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وقال له: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٢). وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣) وقال: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤) وقد تضافرت الأخبار على اتصافه عليه الصلاة والسلام بنهاية هذه الأوصاف، فما من حليم إلا عُرِفَتْ منه زَلَّةٌ، وحُفِظَتْ عنه هفوة، ونبيّنا ﷺ لا يزيد مع كثرة الإيذاء إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حِلماً. قالت عائشة رضي الله عنها: ما خَيْرَ عليه الصلاة والسلام في أمرين قطّ إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه إلا تُتَنَّتْكَ حرمة الله، فينتقم لله بها، ولما فعل به المشركون ما فعلوا في أحد، وطلب منه أن يدعو عليهم قال: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون». وحسبك في هذا الباب ما فعله مع مشركي قريش الذين آذوه واستهزؤوا به وأخرجوه من دياره هو وأصحابه، ثم قاتلوه، وحرّضوا عليه غيرهم من مشركي العرب، حتى تمالاً عليه جمعهم، ثم لما فتح الله عليه مكة ما زاد على أن عفا وصفح، وقال: ما تقولون: أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم، وابن أخ كريم فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. وعن أنس: كنت مع النبي عليه الصلاة والسلام وعليه بُرد غليظ الحاشية فجذبه أعرابي بردائه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه ثم قال: يا محمد احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك،

(١) سورة الأعراف الآية: ١٩٩.

(٢) سورة لقمان الآية: ١٧.

(٣) سورة النور الآية: ٢٢.

(٤) سورة الشورى الآية: ٤٣.

فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك، فسكت النبي ثم قال: المال مال الله، وأنا عبده، ثم قال: ويُقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي، قال: لا، قال: لِمَ؟ قال: لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة فضحك عليه الصلاة والسلام، ثم أمر أن يُحمل له على بعير شعير، وعلى الآخر تمر. قالت عائشة: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط، ما لم تكن حُرمةً من محارم الله تعالى، وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادماً ولا امرأة، فصلى الله تعالى عليه، وأقر عينه باتباع المسلمين سنته.

(وأما) الجود والكرم والسخاء والسماحة، فكان عليه الصلاة والسلام لا يُوازى في هذه الأخلاق الكريمة، ولا يُبارى. وَصَفَهُ بهذا كل مَنْ عرفه، قال جابر رضي الله عنه: ما سُئل عليه الصلاة والسلام عن شيء فقال لا، وقال ابن عباس: كان عليه الصلاة والسلام أجودَ الناس بالخير وأجودَ ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجودَ بالخير من الريح المرسلة، وقالت خديجة في صفته عليه الصلاة والسلام مخاطبة له: إنك تحمل الكل، وتكسب المعدوم وحسبك شاهداً في هذا الباب ما فعله مع هوازن من ردّ السبي إليها، وما فعله يومَ تقسيم السبي من إعطاء المؤلفة قلوبهم عظيمَ الأعطية. وقد استوفينا ذلك في موضعه وحُمل إليه عليه الصلاة والسلام تسعون ألفاً، فوضعها على حصير وأخذ يقسمها فما قام حتى فرغ منها. وجاءه رجل فسأله فقال: ما عندي شيء، ولكن ابتع عليّ، فإذا جاءنا شيء قضينا. فقال له عمر: ما كلّفك الله ما لا تقدّر عليه، فكره ذلك عليه الصلاة والسلام، فقال له رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقللاً، فتبسم عليه الصلاة والسلام وعُرفَ البشرُ في وجهه وقال: بهذا أُمِرْتُ. والأخبار بجوده وكرمه عليه الصلاة والسلام كثيرة يكفي منها لتعليمك ما ذكرناه.

(ومنها) الشجاعة والنجدة، فكان عليه الصلاة والسلام منهما بالمكان

الذي لا يُجهل، قد حضر المواقف الصعبة، وفرّ الكماة^(١) والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يترّح، ومُقبل لا يُدبر ولا يتزحزح، وما من شجاع إلا أحصيت له فرة، وحفظت عنه جولة، سواه. وحسبك ما فعله في حُنَيْن^(٢) وأُحُد مما ذكرناه مستوفى. وقال ابن عمر: ما رأيتُ أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ، وقال عليّ: إنّنا كنّا إذا اشتدّ البأس واحمرّت الحَدَقُ اتقينا برسول الله، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذ بالنبى ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشدّ الناس يومئذ بأساً. وقال أنس: كان عليه الصلاة والسلام أشجع الناس وأحسن الناس، وأجود الناس، لقد فرع أهل المدينة ليلةً، فانطلق ناسٌ قبل الصوت، فتلقاهم عليه الصلاة والسلام راجعاً، قد سبقهم إلى الصوت، واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة^(٣) عُريّ، والسيف في عنقه، وهو يقول: «لن تراعوا»^(٤)؛

(وأما) الحياء والإغضاء، فكان عليه الصلاة والسلام أشدّ الناس حياءً، وأكثرهم عن العورات إغضاء، قال أبو سعيد الخدري: كان عليه الصلاة والسلام أشدّ حياءً من العذراء في خدرها. وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه، وكان عليه الصلاة والسلام لطيف البشّرة، رقيق الظاهر، لا يُشافهُ أحدٌ بما يكرهه حياءً وكرمَ نفس. قالت عائشة: (كان عليه الصلاة والسلام إذا بلغه عن أحدٍ ما يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا وكذا، بل يقول: ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا؟ ينهي عنه ولا يُسمّي فاعله) وقالت رضي الله عنها: (لم يكن عليه الصلاة والسلام فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا صخاباً بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح).

(١) جمع كمي، وهو الشجاع.

(٢) رواه البخاري في المغازي.

(٣) هوزيد بن سهل الأنصاري الخزرجي.

(٤) قوله: «لن تراعوا» هي كلمة تقال عند تسكين الروح ثانية.

(وأما) حسن عشرته وأدبه، وبسط خُلُقِه مع أصناف الخلق، فمما انتشرت به الأخبار الصحيحة، قال علي رضي الله عنه: كان عليه الصلاة والسلام أوسع الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة^(١)، وأكرمهم عشرة. وكان عليه الصلاة والسلام يؤلفهم، ولا ينفّرهم، ويكرم كريم كل قوم ويؤلفه عليهم، ويحذّر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره، ولا خلقه، ويتفقد أصحابه، ويعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جلساه أن أحداً أكرم عليه منه. من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سألته حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخُلُقُه، فصار له أباً، وصاروا عنده في الحق سواء بهذا وصفه ابن أبي هالة. وكان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب، ولا فحاش، ولا عيَاب، ولا مدّاح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤس منه، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٣) وكان عليه الصلاة والسلام يجيب من دعاه، ويقبل الهدية، ولو كانت كُرَاعاً^(٤)، ويكافئ عليها وكان يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم، ويلعب صبيانهم، ويجلسهم في حجره، ويجيب دعوة الحر والعبد، والأمة والمساكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر. وقال أنس: ما التقم أحد أذن النبي يحادثه فنحى رأسه، حتى يكون الرجل هو الذي ينحى رأسه، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر. وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ

(١) العريكة: النفس أو الطبيعة.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

(٣) سورة فصلت الآية: ٣٤.

(٤) الكراع، بضم الكاف، في البقر والغنم دقة مقدم الساقين.

أصحابه بالمصافحة، لم يُرَ قطَ مادّاً رجله بين أصحابه حتى يُصَيِّقَ بهما على أحد، يُكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزّم عليه في الجلوس عليها إن أبى، ويُكَنِّي أصحابه، ويدعوهم بأحبّ أسمائهم تكرمةً لهم، ولا يقطعُ على أحد حديثه، حتى يتجاوز فيقطعه بنهي أو قيام، وكان أكثرَ الناس تبسماً، وأطيبهم نفساً، ما لم يُنزل عليه قرآن، أو يعظ، أو يخطب.

(وأما) الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق فقد وصفه الله بها في قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١) وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢) روي أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه، ثم قال: أحسنتُ إليك؟ قال الأعرابي، لا، ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كُفُوا ثم قام ودخل منزله، وأرسل إليه وزاده شيئاً ثم قال: أحسنتُ إليك؟ فقال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه الصلاة والسلام: إنك قلتَ ما قلتَ، وفي أنفـس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببتَ فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يديّ، حتى يذهب ما في صدورهم عليك. قال: نعم، فلما كان الغد - أو العشي - جاء فقال عليه الصلاة والسلام إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعماً أنه رضي أكذلك: قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال عليه الصلاة والسلام: مثلي ومثل رجل له ناقة شردت عليه، فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها: خلّوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردّها، حتى جاءت واستناخت، وشدّ عليها رحلها واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار. وقال عليه

(١) سورة التوبة الآية: ١٢٨.

(٢) سورة الأنبياء الآية: ١٠٧.

الصلاة والسلام: (لا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَصْحَابِي شَيْئاً فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمٌ الصَّدْرُ). وكان يَسْمَعُ بَكَاءَ الصَّبِيِّ فَيَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِهِ. وعن ابن مسعود كان عليه الصلاة والسلام يتخوَّلنا بالموعظة مخافة السَّامة علينا.

(وأما) خلقه عليه الصلاة والسلام في الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم، فروي عن عبدالله بن الحمساء قال: بايعت النبي عليه الصلاة والسلام ببيع، قبل أن يُبْعَثَ، وبقيت له بقية، فوعده أن آتية بها في مكانه فنسيت، ثم ذكرتُ بعد ثلاث، فجئت، فإذا هو في مكانه، فقال: «يا فتى لقد شققت عليّ، أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك!» وكان إذا أُتِيَ بهدية، قال: (اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحبّ خديجة) وكان عليه الصلاة والسلام يَصِلُ ذوي رحمه من غير أن يؤثروهم على من هو أفضل منهم. ووفدَ عليه وفد، فقامَ يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: نكفيك؟ فقال: (إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أحب أن أكافئهم) وفي حديث خديجة: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنلك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

(وأما) تواضعه عليه الصلاة والسلام، على علو منصبه ورفعة رتبته، فكان أشدَّ الناس تواضعاً، وأعدمهم كبراً، وحسبك أنه خير بين أن نبياً ملكاً، أو نبياً عبداً، فاختر أن يكون نبياً عبداً، وخرج عليه الصلاة والسلام مرة على أصحابه متوكئاً على عصا، فقاموا، فقال: (لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعْظَم بعضهم بعضاً)، وقال: (إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد) وكان يركب الحمار ويُرْدَفُ خلفه، ويعود المساكين، ويُجالس الفقراء، ويُجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيثما انتهى به المجلس جلس. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تُطْرُونِي كما أطرت النصارى ابن مريم. إنما أنا

عبد، فقولوا عبدالله ورسوله»^(١) وحج عليه الصلاة والسلام على رَحْلٍ رَثٍّ، وعليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم فقال: (اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة) هذا وقد فتحت عليه الأرض، وأهدى في حجه ذلك مائة بَدَنَةٍ، ولما فُتحت عليه مكة، ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كَادَ يَمَسُّ قادمة^(٢) تواضعاً لله تعالى. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (دخلت السوق مع النبي ﷺ، فاشترى سراويل، وقال للوازن: زن وأرجع، ثم قال: فوثب إلى يد رسول الله ﷺ يقبلها، ف جذب يده، وقال: هذا تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك إنما أنا رجل منكم، ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله قال: صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله).

(وأما) عدله عليه الصلاة والسلام، وأمانته، وعفته وصدق لهجته، فكان آمنَ الناس وأعدل الناس وأعفَ الناس وأصدقهم لهجة منذ كان، اعترف له بذلك محادوه^(٣) وأعداؤه، وكان يُسمَّى قبل نبوته الأمين، وقد قدّمنا ذلك في سيرته عليه الصلاة والسلام قبل النبوة. وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: (ما لمست يده يد امرأة قط لا يملك رَقَها) قال أبو العباس المبرّد: قَسَمَ كسرى أيامه، فقال: يوم الريح يَصْلُح للنوم، ويوم الغيم للصيد، ويوم المطر للهو والشرب، ويوم الشمس للحوائج، ولكن نبينا عليه الصلاة والسلام جزاً نهاره ثلاثة أجزاء، جزء لله، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزاً جزأه بين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة، ويقول: «أبلغوا حاجة مَنْ لا يستطيع إبلاغي، فإن من أبلغ حاجة مَنْ لا يستطيع إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر». وكان عليه الصلاة والسلام لا يأخذ أحداً بذنب أحد، ولا يصدق أحداً على أحد.

(١) رواه البخاري.

(٢) قادمة الرحل: هي الخشبة التي في مقدمة كور البعير بمنزلة قربوس السرج.

(٣) أي مخالفوه.

(وأما) وقاره عليه الصلاة والسلام وصمته، وتؤدته، ومروءته، وحسن هديه. فكان عليه الصلاة والسلام أوقر الناس في مجلسه لا يكاد يُخرج شيئاً من أطرافه، وكان إذا جلس احتبى بيديه، وكذلك كان أكثر جلوسه محتبياً. وكان كثير السكوت، لا يتكلم في غير حاجة. يُعرض عمّن تكلم بغير جميل، وكان ضحكه تبسماً، وكلامه فصلاً، لا فضول ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة، لا تُرفع فيه الأصوات، ولا تُؤبّن^(١) فيه الحُرْم إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير. وقال ابن أبي هالة: كان سكوته ﷺ على أربع: على الحلم، والحدْر، والتقدير، والتفكّر، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ يُحدّث حديثاً لو عدّه العباد لأحصاه، وكان يُحبّ الطيب، والرائحة الحسنة، ويستعملها كثيراً، ويحضّ عليهما. ومن مروءته ﷺ نهيه عن النفخ في الطعام والشراب والأمر بالأكل مما يلي، والأمر بالسيّواك وإنقاء البراجم^(٢) والرواجب (مفاصل الأصابع من باطن الكف).

(وأما) زهده عليه الصلاة والسلام في الدنيا فقد قدّمنا لك فيه ما فيه الكفاية، وحسبك شاهداً على تقلُّله من الدنيا، وإعراضه عن زهرتها، وقد سبقت إليه بحذافيرها، وترادفت عليه فتوحها، أنه توفي عليه الصلاة والسلام، ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله. وهو يدعو ويقول: (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً) وقالت عائشة رضي الله عنها: (ما شبع عليه الصلاة والسلام ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله). وقالت: (ما ترك عليه الصلاة والسلام ديناراً، ولا درهماً، ولا شاة، ولا بعيراً، ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي) وقال لي: (إني عرض عليّ أن تجعل لي بطحاء

(١) أي لا تذكر بقيع.

(٢) مفاصل الأصابع.

مكة ذهباً فقلت: لا يا رب أجوع يوماً، وأشبع يوماً. فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك). وقالت عائشة: (إن كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً، إن هو إلا التمر والماء)^(١) وعن أنس: ما أكل عليه الصلاة والسلام على خِوان^(٢) ولا في سُكْرَجَةٍ^(٣) ولا خُبَزَ له مُرَقَّق ولا رأى شاة سميطة^(٤) قط. وفي حديث حفصة: (كان فراش رسول الله ﷺ في بيته مِسْحاً^(٥)) نشيه ثنتين. فينام عليه فثنيناه ليلة بأربع، فلما أصبح قال: ما فرستم لي؟ فذكرنا له ذلك فقال: ردّوه بحاله فإن وطأته منعني الليلة صلاتي) وقالت عائشة: (لم يمتلىء جوف النبي عليه الصلاة والسلام شعباً، ولم يبت شكوى إلى أحد، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى). وإن كان ليظلّ جائعاً يلتوي طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه. ولو شاء سأل ربّه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها. ولقد كنت أبكي رحمة له مما أرى به، وأمسخ بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلّغت من الدنيا بما يقوتك، فيقول: يا عائشة ما لي وللدنيا، إخواني ومن أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم، فقدّموا على ربهم فأكرم ما بهم، وأجزّل ثوابهم. فأجذني أستحي إن ترفّهت في معيشتي أن يُقصّر بي غداً دونهم، وما من شيء أحب إليّ من اللّحوق بإخواني وأخلائتي) قالت: فما أقام بعدُ إلا أشهراً حتى توفي صلوات الله عليه وسلامه.

(وأما) خوفه من ربه، وطاعته له، وشدة عبادته، فعلى قدر علمه بربه.

(١) وفي رواية الأسودان.

(٢) الخوان: هو ما يوضع عليه الطعام عند الأكل مرتفعاً على الأرض.

(٣) سكرجة: فارسية، الإناء الصغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم.

(٤) السميطة: المشوي بجلده، وسمط الجدي: تنف عنه الصوف ونظفه من الشعر بالماء الحار ليشويه.

(٥) مِسْحاً: أي بساطاً من شعر.

ولذلك قال: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أظنت (صوت) السماوات وحق لها أن تبتط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُّعَدَات تجأرون إلى الله تعالى . لوددت أني شجرة تعضد) وكان عليه الصلاة والسلام يصلي حتى ترمَ قدماه ف قيل له : أتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً!». وقالت عائشة رضي الله عنها: كان عمل رسول الله ﷺ ديمةً، وأيُّكم يطيق ما كان يطيق؟ وقالت: كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم. وقال عوف بن مالك: (كنت مع رسول الله ﷺ ليلة، فاستأثتُ، ثم توضأ، ثم قام يصلي، فقممت معه فاستفتح البقرة، فلا يمرّ بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمرّ بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول: سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ثم سجد، وقال مثل ذلك. ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك) وقال بعضهم: (١) (أتيتُ رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل) وفي وصف ابن أبي هالة: كان متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة. وعن علي رضي الله عنه قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن سته فقال: المعرفةُ رأس مالي، والعقلُ أصل ديني، والحبُّ أساسي، والشوقُ مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزنُ رفيقي، والعلمُ سلاحي، والصبرُ ردائي، والرضا غنيمي، والعجزُ فخري، والزهدُ جِرفتي، واليقينُ قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهدُ خلقي، وقرّة عيني في الصلاة، وثمرة فؤادي في ذكره، وغمّي لأجل أمتي، وشوقي إلى ربي» (٢) فجزاه الله من

(١) ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب ولم أجده له إسناداً.

(٢) في الشفاء ج ١ ص ٢٨٠ عن عبد الله بن الشفير رضي الله عنه.

نبي عن أمته خيراً، ورحم الله عبداً تأمل في هذه الشمائل الكريمة والخصال
الجميلة فتمسك بها، واتبع رسول الله ﷺ ليحوز شفاعته يوم الفزع الأكبر
ويرضى الله عنه، فنسألك اللهم التوفيق لما فيه الخير بمنك وكرمك يا أرحم
الراحمين.

معجزاته عليه الصلاة والسلام

إذا تأمل المتأمل ما قدّمناه من جميل أثر هذا السيد الكريم . وحميد سيره، وبراعة علمه، ورجاحة عقله وحلمه، وجملة كماله، وجميع خصاله، وشأهده حاله . وصواب مقاله . لم يمتز في صحة نبوته . وصدق دعوته، وقد كفى هذا غير واحد في إسلامه . والإيمان به كعبد الله بن سلام . فإنه قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة جثته لأنظر إليه فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . وروى مسلم أن ضِماداً لما وفد عليه قال له ﷺ : «إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهد الله فلا مضلّ له . ومن يضل الله فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله» فقال له ضِماد : أعذ عليّ كلماتك هؤلاء، فلقد بلغن قاموس البحر، هاتِ يدك أبايعك^(١) . ولما بلغ ملك عُمان أن رسول الله عليه الصلاة والسلام يدعو إلى الإسلام قال : والله لقد دلّني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهي عن شيء إلا كان أول تارك له ، وإنه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يضجر ، وفيه بالعهد ، وينجز الموعود ، وأشهد أنه نبي . وقال ابن رواحة :

(١) رواه مسلم .

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره يُنبئ بالخبر

كيف وقد أظهر الله على يده تصديقاً لدعوته من المعجزات ما لا يفي به العَدُّ فهو أكثر الأنبياء آيةً، وأظهرهم برهاناً، وسنذكر لك في هذا الفصل من الآيات ما تقرُّ به عينك، ويزداد به يقينك مما رواه الجَمُّ الغفير من الصحابة رضوان الله عليهم، وأثبتته المحدثون في صحاحهم، ونبدأ منها بأظهرها شأنًا، وأوضحها بيانًا، وهو القرآن الشريف وإعجازه .

(إعلم) أن كتاب الله العزيز مُنطَوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة:

أولها حسن تأليفه، والثام كلمه، وفصاحته، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أربابَ هذا الشأن، وفرسانَ الكلام، قد خُصُّوا من البلاغة والحكم بما لم يُخَصَّ به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذَرَابَةِ^(١) اللسان ما لم يُؤْتِ إنسان، ومن فصل الخطاب ما يُقَيِّدُ الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقاً، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويُذَلُّون به إلى كل سبب، يخطبون بديهاً في المقامات، وشديد الخطب، ويرتجزون^(٢) به بين الطعن والضرب، فيأتون من ذلك بالسَّحر الحلال^(٣)، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سَمَطِ اللآلِ^(٤)، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، ويُذهبون الإحن^(٥)، ويهيجون الدمن^(٦)، ويجرثون الجبان، ويصيرون الناقص

(١) الذَّرب: الحادّ من كل شيء، وذرب اللسان: حدّته وسلطته. وأصل معناها حدة السيف واللسان.

(٢) أي ينشدون شعراً من بحر الرجز.

(٣) السحر: كل ما لطف مأخذه ودقّ، ومنه «إن من البيان لسحراً» أن يأتوا بالكلام البالغ الذي تلذّ به النفوس، وتنجذب به القلوب.

(٤) أي الخيط الذي عليه تنظم حَبَاتِ العقد.

(٥) الإحن: الأحقاد.

(٦) أي عندما يندبون الأطلال بشعرهم، يهيجون الأشواق الكامنة في قلوبهم.

كاملاً، ويتركون النبيه خاملاً، منهم البدوي ذو اللفظ الجزل، والكلام الفخم، والطبع الجوهري، والمنزع القوي، ومنهم الحضري، ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف في القول القليل الكلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية، وكلاهما له في البلاغة الحجة البالغة، والقوة الدامغة، والقِدْحُ الفالَجُ^(١)، والمهيج الناهج^(٢)، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قد حَوُوا فنونها، واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعَلَوْا صرحاً لبلوغ أسبابها، فقالوا في الخطير والمهين، وتفننوا في الغث والسمين، وتقاووا في القُل والكُثر، وتساجلوا في النظم والنثر، فمارعهم إلا رسول كريم، بكتاب عزيز: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٣)، أحكمت آياته، وفُصِّلَت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وتضافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوّت كل البيان مجامعه وبدائعه، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه، وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالاً، وأشهر في الخطابة رجالاً، وأكثر في الشعر والسجع ارتجالاً، وأوسع في الغريب واللغة مقالاً، بلغتهم التي بها يتحاورون، ومنازعهم التي عنها يتناضلون، صارخاً بها في كل حين، ومقرعاً لهم بضعةً وعشرين عاماً على رؤوس الملأ أجمعين ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤) ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا

(١) القدح: واحد قذاح وهو سهم الميسر، والفالج: الفائز.

(٢) المهيج: الطريق الواسع، والناهج: البين الواضح المسلك.

(٣) سورة فصلت الآية: ٤٢.

(٤) سورة يونس الآية: ٣٨.

وَلَنْ تَفْعَلُوا^(١) ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(٢) ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾^(٣) فلم يزل يقرعهم ﷺ أشدَّ القرع ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفه أعلامهم. ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم وآباءهم. ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته. محجمون عن مماثلته. يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب، والإغتراء بالإفتراء، وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾^(٤). ﴿وَسِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾^(٥). ﴿وَإِنْكَ افْتَرَاهُ﴾^(٦). ﴿وَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٧) والمباهة، والرضا بالذنية. كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾^(٨)، وفي أكنة مما تدعوننا إليه، وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجابٌ^(٩) ﴿وَلَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ﴾^(١٠) والإدعاء مع العجز كقولهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾^(١١) وقد قال لهم: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فما فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخافهم كمسيلمة كُشف عواره لجميعهم. وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم، وإلا لم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم، ولا جنس بلاغتهم، بل ولوا عنه مدبرين، وأتوا إليه مدعين، وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾^(١٢) وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ

(١) سورة البقرة الآية: ٢٣ - ٢٤.

(٢) سورة الاسراء الآية: ٨٨.

(٣) سورة هود الآية: ١٣.

(٤) سورة المدثر الآية: ٢٤.

(٥) سورة القمر الآية: ٢.

(٦) سورة الفرقان الآية: ٤.

(٧) سورة الفرقان الآية: ٥.

(٨) سورة البقرة الآية: ٨٨.

(٩) سورة فصلت الآية: ٥.

(١٠) سورة فصلت الآية: ٢٦.

(١١) سورة الأنفال الآية: ٣١.

(١٢) سورة البقرة الآية: ١٧٩.

فَرَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿١﴾ وقوله: ﴿وَأَذْفَعُ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ﴿٢﴾ وقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٣﴾ وقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٤﴾ وأشباهاها من الآي، بل أكثر آيات القرآن، حققت ما بيّنته من إيجاز ألفاظها، وكثرة معانيها، ودياجة عبارتها، وحسن تأليف حروفها، وتلاؤم كلمها، وإنّ تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة، وفصولاً جمّة، وعلومًا زواجر، مُلئت الدواوين من بعض ما استفيد منها، وكثرة المقالات في المستنبطات عنها، ثم هو في سرد القصص الطوال، وأخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام، ويذهب ماء البيان آيةً لمتأمله من ربط الكلام ببعضه ببعض، والتثام سرده، وتناصف وجوهه، كقصّة يوسف على طولها، ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها، وتناصف في الحسن وجه مقابلتها، ولا نفور للنفوس من ترديدها، ولا مُعاداة لمعادها.

الوجه الثاني: من إعجاز القرآن، صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقف على مقاطع آية، وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحدٌ مماثلة شيء منه، بل حازت فيه عقولهم، وتدلّته (٥)

(١) سورة سبأ الآية: ٥١.

(٢) سورة فصلت الآية: ٣٤.

(٣) سورة هود الآية: ٤٤.

(٤) سورة العنكبوت الآية: ٤٠.

(٥) تدلّته: اندهشت.

دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من: نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر، والإعجاز بكل واحد من النوعين، الإيجاز والبلاغة بذاتها، أو الأسلوب الغريب بذاته، كل واحد منهما نوع إعجاز، لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما، إذ كل واحد منهما خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها وكلامها.

الوجه الثالث: من الإعجاز ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوق، فوجد كما ورد وعلى الوجه الذي أخبر كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾^(١) وقوله: عن الروم: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾^(٢) وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾^(٣) وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾^(٤) وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾^(٥) فكان جميع هذا كما أخبر فغلبت الروم فارس، ودخل الناس في الدين أفواجا، واتسع ملك المسلمين حتى كان لهم في وقت من أقصى بلاد الأندلس غربا إلى أقاصي الهند شرقا، ومن بلاد الأناضول شمالا إلى أقاصي السودان جنوبا^(٦) وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٧) فكان كذلك إلى الآن والحمد لله وقوله: ﴿سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾^(٨) فكان

(١) سورة الفتح الآية: ٢٧.

(٢) سورة الروم الآية: ٣ - ٤.

(٣) سورة الصّاف الآية: ٩.

(٤) سورة النور الآية: ٥٥.

(٥) سورة النصر الآية ١ - ٢.

(٦) رواه مسلم في الفتن قال: «إن الله زوى (جمع) لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها».

(٧) سورة الحجر الآية: ٩.

(٨) سورة القمر الآية: ٤٥.

كذلك في بدر والآية نزلت بمكة وقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾^(١) فكان كذلك مما اطلع عليه قارىء هذه السيرة، وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود، ومقالهم وكذبهم في حلفهم كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾^(٢) وقوله: ﴿يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾^(٣) وقوله: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْئَالٍ بَالِسِتَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾^(٤) إلى غير ذلك من الآيات البينات.

الوجه الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرع الدائرة^(٥)، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ^(٦) من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلّم ذلك، فيورده عليه الصلاة والسلام على وجهه، ويأتي به على نصه، فيقرّ العالم بذلك بصحته وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أنه ﷺ أُمِّيٌّ، لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدرسة ولا مجالسة، لم يغب عنهم، ولا جهل حاله أحد منهم، وكثيراً ما كان يسأله كثير من أهل الكتاب عن هذا، فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكراً كقصص الأنبياء، وبدء الخلق، وما في الكتب السابقة مما صدّقه فيها العلماء بها، ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها، ولم يؤثر أن واحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبه، ولا أبدى صحيحاً، ولا سقيماً من صحفه، بعد أن قرّعهم ووبّخهم بقوله: ﴿قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٧). ومما يدلّ على أن أهل الكتاب يعلمون صدقه ما تحدّاهم فيه الله بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً

(١) سورة التوبة الآية: ١٤.

(٢) سورة المجادلة الآية: ٨.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٥٤.

(٤) سورة النساء الآية: ٤٦.

(٥) الدائرة: أي الدارسة، التي لم يبق لها أثر.

(٦) الفذ: الفرد المنفرد عن أقرانه.

(٧) سورة آل عمران الآية: ٩٤.

مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَيْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ ثم حتم عدم إجابتهم بقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿٢﴾ فما سمع عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو بلسانه، مع أنهم كانوا أحرص الناس على تكذيبه. ومثل ذلك ما فعله أهل نجران حينما دعاهم للمباهلة فأبوا، وقد قدّمنا ذلك في فصل وفودهم.

ومما يدل على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر: الرّوعة التي تلحق قلوب سامعيه، والهيبة التي تعتر بهم عند تلاوته، لقوّ حاله، وإنافة (٣) خطره، حتى كانوا يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفوراً (٤)، ولهذا قال ﷺ: «إن القرآن صعب مستصعب على من كرهه، وهو الحكم». وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه إقبالا، وتكسبه هشاشة (٥) لميل قلبه إليه وتصديقه به. قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ﴿٦﴾ وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ﴿٧﴾ ومن وجوه إعجاز القرآن كونه آية باقية لا تعدّم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿٨﴾ وقال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ ﴿٩﴾ وسائر معجزات الأنبياء لم يبق إلا خبرها (١٠)، والقرآن إلى وقتنا هذا حجة قاهرة، ومعارضة ممتنعة، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان، وحملة علم اللسان، وأئمة البلاغة، وفرسان الكلام،

(١) سورة البقرة الآية: ٩٤.

(٢) سورة البقرة الآية: ٩٥.

(٣) أي علو مرتبته.

(٤) كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نَفُورًا﴾. الإسراء الآية: ٤٦.

(٥) أي مسرة وخفة.

(٦) سورة الزمر الآية: ٢٣.

(٧) سورة الحشر الآية: ٢١.

(٨) سورة الحجر الآية: ٩.

(٩) سورة فصلت الآية: ٤٢.

(١٠) أي أنها انقضت بانقضاء أوقاتها.

وجهاذة^(١) البراعة، والملحد فيهم كثير، والمعادي للشرع عتيد^(٢)، فما منهم من أتى بشيء يؤثر في معارضته، ولا ألف كلمتين في مناقضته، ولا قدر على مطعن صحيح، ولا قدح المتكلف من ذهنه في ذلك إلا بزند شحيح^(٣)، بل المأثور عن كل من رام ذلك إلقاءه في العجز بيديه، والنكوص على عقبه.

ولنختم لك هذا الباب بحديثه عليه الصلاة والسلام في القرآن قال: «إن الله أنزل هذا القرآن أمراً وواجراً. وسنة خالية، ومثلاً مضروباً، فيه نبؤكم، وخبر من كان قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يُخلقه طول الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الحق ليس بالهزل من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فليج^(٤)»، ومن حكم به أقسط، ومن عمل به أجر، ومن تمسك به هُدي إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله، ومن حَكَمَ بغيره قَصَمه الله، هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعيب^(٥).

(ومن) معجزاته ﷺ انشقاق القمر^(٦) وقد قدّمنا مستوفى.

(ومن) معجزاته ﷺ نبع الماء من بين أصابعه، وتكثيره ببركته، وقد روى هذا الجُمُ الغفير من الصحابة، منهم أنس وجابر وابن مسعود، قال أنس: رأيت رسول الله ﷺ وقد حانت صلاة العصر، فالتمس الناس ماءً للوضوء، فلم يجدوه، فأتي النبي ﷺ بوضوء، فوضع في الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضؤوا

(١) الجهد: النقاد الخير.

(٢) عتيد: حاضر في كل وقت للعدوان.

(٣) الزند الشحيح: الذي لا يبرئ ولا يقدر.

(٤) أي فاز وظفر بالغلبة.

(٥) رواه الترمذي.

(٦) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد عن ابن مسعود.

منه . قال : فرأيتُ الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ الناسُ حتى توضؤوا عن آخرهم ، فقيل : كم كنتم؟ قال زهاء ثلاثمائة . وقال ابن مسعود : بينما نحن مع النبي ﷺ ، وليس معنا ماء ، فقالَ لنا اطلبوا من معه فضلُ ماءٍ ، فأُتي بماء ، فصبّه في إناء ، ثم وضعَ كفّه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه . وقال جابر : عطش الناسُ يوم الحُدَيْبِيَّة ورسول الله بين يديه زَكوةٌ^(١) فتوضأ منها ، وأقبل الناس نحوه ، وقالوا ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك ، فوضع يده في الزكوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون : قيل كم كنتم؟ قال : لو كنّا مائة ألف لكفانا ، كنّا خمس عشرة مائة^(٢) ، وروى هذه القصة جمع عظيم من الصحابة ، ومثل هذا في هذه المواطن الحفيلة ، والجموع الكثيرة ، لا تتطرق التهمة إلى المحدث به ، لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه لما جُبلت عليه نفوسُهم من ذلك ، ولأنهم كانوا ممّن لا يسكتُ على باطل ، فهؤلاء قد رَوَوْا هذا ، وأشاعوه ونسبوا حضور الجَم الغفير له ، ولم ينكر عليهم أحد من الناس ما حدّثوا به عنهم أنهم فعلوه ، وشاهدوه ، فصار كتصديق جميعهم لهم .

ومما يشبه هذا تفجير الماء ببركته ، وانبعائه بمسّه ودعوته ، كما ورد عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك ، وأنهم وردوا العين وهي تلمعُ بشيء من ماء مثل الشراكم^(٣) ، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء . ثم غسل عليه الصلاة والسلام فيه وجهه ويديه ، وأعادته فيها ، فجرت بماء كثير ، فاستقى الناس . وفي رواية ابن إسحاق فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق ثم قال : (يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة ، أن ترى ما هنا قد ملئ جناناً) وقد قدّمناه ذلك في غزوة تبوك . وروي عن البراء وسلمة بن الأكوع تكثير عین الحديبية بدعوته عليه الصلاة والسلام . وروى أبو قتادة أن الناس شكّوا إلى

(١) إناء للماء من جلد كالإبريق .

(٢) الأصح أربع عشرة مائة .

(٣) الشراك : سير النعل الذي يكون على وجهه ، وشبهه به لقلته .

رسول الله العطش في بعض أسفاره فدعا بالمِيضَاءَ^(١) فجعلها في ضَبْنِه^(٢) (ما بين الكشح إلى الإبط) ثم التقم فمها، فالله أعلم أنفث فيها أم لا. فشرب الناس حتى رَوُوا وملؤوا كل إناء معهم، فخيّل لي أنها كما أخذها مني. وكانوا اثنين وسبعين رجلاً. ورويت قصص مشابهة لهذه عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم في محالّ مختلفة بحيث لا يشك أحد في صدقها بعد تضافر الثقات على روايتها.

(ومن) ذلك تكثير الطعام ببركته ودعائه ﷺ، روى أبو طلحة^(٣) أنه عليه الصلاة والسلام أطعم ثمانين أو سبعين رجلاً من أقراص من شعير، جاء بها أنس تحت إبطه، فأمر بها عليه الصلاة والسلام ففُتّت وقال فيها ما شاء الله أن يقول. وروى جابر أنه عليه الصلاة والسلام أطعم يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعَنَاق^(٤)، وقال جابر: فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن بُرْمَتْنَا^(٥) لَتَغِطُ^(٦) كما هي. وإن عجبتنا ليخبز. وكان عليه الصلاة والسلام قد بَصَقَ في العجين والبرمة وبارك. وروى أبو أيوب أنه صنع لرسول الله وأبي بكر طعاماً يكفيهما، فأطعم منه عليه الصلاة والسلام مائة وثمانين رجلاً. وروى مثل ذلك كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن أبي بكر، وسلمة بن الأكوع، وأبي هريرة، وعمر بن الخطاب، وأنس بن مالك، رضوان الله عليهم أجمعين.

(ومن) معجزاته عليه الصلاة والسلام قصة حنين الجذع، قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل، فكان عليه الصلاة والسلام إذا

(١) المِيضَاءُ: آلة الوضوء.

(٢) الضَبْنُ: ما تحت الإبط.

(٣) هو زيد بن سهل بن الأسود الأنصاري الخزرجي.

(٤) العنّاق: الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم لها سنة.

(٥) البرمة: هي قدر من حجارة.

(٦) تغط: أي أن القدر تصوّت من شدة غليانها.

خطب يقول إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشَار^(١). وفي رواية أنس: حتى ارتجَّ المسجد لخواره، وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوه به. وفي رواية المطلب: وانشق حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت. زاد غيره: فقال عليه الصلاة والسلام إنَّ بكى لما فقد من الذكر. وزاد غيره: (والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة) تحزناً على رسول الله ﷺ فأمر به فدفن تحت المنبر، وهذا الحديث خرَّجه أهل الصحة^(٢)، ورواه من الصحابة كثيرون، ورواه عنهم من التابعين ضِعْفُهُمْ، وبمن دون عدَّتْهم يقع العلم لمن عُنِيَ بهذا الباب، والله المَثْبُت على الصواب.

(ومن) معجزاته عليه الصلاة والسلام إبراء المرضى، وذوي العاهات، فقد أُصيبت يوم أُحد عينُ قتادة بن النعمان^(٣) حتى وقعت على وجنته، فردَّها عليه الصلاة والسلام، فكانت أحسن عينيه وأحدهما، وبصق على أثر سهم في وجه أبي قتادة في يوم ذي قرد، فما ضرب عليه ولا قاح، وأصاب ابن ملاعب الأسنة^(٤) استسقاء فبعث إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فأخذ بيده حثوَّةً من الأرض فتفل عليها ثم أعطاها رسوله فأخذها متعجباً يرى أنه قد هُزِيَء به، فأثاه بها وهو على شفى^(٥) فشربها فشفاه الله، وتقدم حديث علي ورمده في غزوة خيبر، وغير ذلك كثير مما يعجز قلمنا عن عدِّه، ورواه ثقات المسلمين الأعلام.

(أما) ما منحه الله إياه من إجابة دعواته، فروي عن أنس بن مالك قال:

(١) العِشَار: الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية أو هي كالنفساء من النساء.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) هو قتادة بن النعمان الأوسي، أخو أبي سعيد الخدري لأمه يكنى أبا عمر الأنصاري شهد بدرًا وعاش خمسا وستين سنة.

(٤) ملاعب الأسنة هو: عامر بن مالك بن جعفر العامري أبو براء.

(٥) المريض على شفى: أي قريب من الموت.

قالت أمي أم سليم: يا رسول الله خادمك أنس. ادعُ الله له، فقال: اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته، قال أنس: فوالله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليعادون^(١) اليوم نحو المائة، ودعا لعبد الرحمن بن عوف بالبركة فكان نصيب كل زوجة من زوجاته الأربع من تركته ثمانين ألفاً، وتصدق مرةً بغير^(٢) فيها سبعمائة بغير، وردت عليه تحمل من كل شيء، فتصدق بها وبما عليها وبأقتابها وأحلاسها^(٣).

(ودعا) لمعاوية بالتمكين في الأرض فنال الخلافة، ودعا لسعد بإجابة الدعوة، فما دعا على أحد إلا استجيب له، وتقدم دعاؤه لعمر بن الخطاب أن يعزَّ الإسلام به، وقال لأبي قتادة: أفلح وجهك اللهم بارك في شعره وبشره، فمات، وهو ابن سبعين سنة، كأنه ابن خمس عشرة، ودعواته عليه الصلاة والسلام المستجابة أكثر من أن تُحصى يطلع عليها قارىء سيرتنا هذه.

(أما) ما أطلعه الله عليه من علم ما لم يكن فمما سارت به الركبان، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: (قام فينا رسولُ الله ﷺ مقاماً، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلاَّ حدَّثه حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل وإذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه، وما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه، والله ما ترك عليه الصلاة والسلام من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلاَّ قد سمَّاه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته)، وقد خرَّج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم به أصحابه مما وعدهم به من الظهور على أعدائه، وفتح مكة، وبيت المقدس، واليمن، والشام، والعراق، وظهور الأمن حتى

(١) أي يعدُّ بعضهم بعضاً.

(٢) أي بقافلة.

(٣) أقتابها جمع قتب وهو الرجل الصغير على قدر سنام البعير وأحلاسها جمع حلس: كساء يلي ظهر البعير تحت القتب.

تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة، لا تخاف إلا الله، وأن المدينة ستُغزى، وتُفتح خيبر على يد علي في غد يومه، وما يفتح الله على أمته من الدنيا، ويؤتون من زهرتها، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر، وقد قدّمنا كثيراً من ذلك في هذه السيرة، وقدّمنا ما في القرآن من ذلك، وهذا يُغنيا عن الإطالة في هذا المقام فحسبك ما سمعت.

(ومما) ينير بصيرتك أيها القارئ ما من الله به على رسولنا من عصمته له من الناس، وكفايته من آذاه! قال تعالى: ﴿وَلِلّٰهِ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (١)

وقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (٢) وقال: ﴿أَلَيْسَ اللّٰهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (٣) وقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٤) ولما نزل: ﴿وَلِلّٰهِ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ صرف حُجابه، وقال: انصرفوا فقد عصمني الله، وقدّمنا حديث دُعُور وإرادته قتل النبي ﷺ، وعصمة الله لنبينا، وذكرنا كثيراً مما حصل من أبي جهل لما أراد بالرسول المكاييد، فكفاه الله شرّه، وما من به عليه ليلة الهجرة، وحديث سُراقة في الطريق، وعلى الجملة فيكفينا من هذا الباب أنه عليه الصلاة والسلام مكث بين أعداء ألداء بمكة ثلاث عشرة سنة، وبين مشابهيهم من المنافقين واليهود عشر سنين. فما تمكن أحد من إيصال أذى إليه ﷺ بل كفاه مولاة شرّ أعدائه حتى أظهر الدين وتممه.

والحمد لله حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، ونسأله أن يوفق قارئه هذه السيرة إلى اتباع رسول الله ﷺ وأصحابه وأنصاره.

تم الكتاب بعونه تعالى

(١) سورة المائدة الآية: ٦٧.

(٢) سورة الطور الآية: ٤٨.

(٣) سورة الزمر الآية: ٣٦.

(٤) سورة الحجر الآية: ٩٥.

المحتويات

٥٥	إسلام حمزة	٥	تقديم
٦٤	هجرة الحبشة الأولى	٩	نبذة عن حياة المؤلف
٦٥	إسلام عمر	١١	مقدمة المؤلف
٦٦	رجوع مهاجري الحبشة	١٣	النسب الشريف
٦٨	كتابة الصحيفة	١٧	زواج عبد الله بآمنة وحملها
٦٩	هجرة الحبشة الثانية	١٨	الرضاع
٦٩	نقض الصحيفة	١٨	حادثة شق الصدر
٧٠	وفود نجران		وفاة آمنة وكفالة عبد المطلب
٧١	وفاة خديجة رضي الله عنها	١٩	وفاته وكفالة أبي طالب
٧٢	زواج سودة رضي الله عنها	٢٠	السفر إلى الشام المرة الأولى
٧٢	زواج عائشة رضي الله عنها	٢٠	حرب الفجار
٧٤	هجرة الطائف	٢٢	حلف الفضول
٧٦	الاحتفاء بالمطعم بن عدي	٢٣	رحلته إلى الشام المرة الثانية
٧٦	وفد دوس	٢٣	زواجه خديجة رضي الله عنها
٧٧	الإسراء والمعراج	٢٤	بناء البيت
٨٠	العرض على القبائل	٢٦	معيشتها قبل البعثة
٨١	بدء إسلام الأنصار	٢٨	سيرته في قومه قبل البعثة
٨١	العقبة الأولى	٢٩	ما أكرمه الله به قبل النبوة
٨٣	العقبة الثانية	٣١	تبشير التوراة به
٨٥	هجرة المسلمين إلى المدينة	٣٣	تبشير الإنجيل
٨٦	دائرة الندوة	٣٤	حركة الأفكار قبل البعثة
٨٧	هجرة المصطفى ﷺ	٣٦	بدء الوحي
٨٩	النزول ببقاء	٣٨	فترة الوحي
٩٠	هجرة الأنبياء	٣٩	عود الوحي
٩١	أعمال مكة	٣٩	الدعوة سرا
٩٢	مسجد قباء	٤٦	الجهار بالتبليغ
٩٢	الوصول إلى المدينة	٤٩	الإيذاء

١٢٧	الفداء
١٣١	العتاب في الفداء
١٣٢	غزوة بني قينقاع
١٣٣	جلاء بني قينقاع
١٣٤	غزوة السوق
١٣٤	صلاة العيد
	زواج علي بفاطمة
١٣٥	رضي الله عنها
	السنة الثالثة
	قتل كعب بن الأشرف أو سرية
١٣٧	محمد بن مسلمة
١٣٩	غزوة غطفان أو ذي أمر
١٤٠	غزوة بُحْران أو بني سليم
١٤٠	سرية زيد بن حارثة إلى القُرْدة
١٤٠	غزوة أُحُد
١٤٩	غزوة حمراء الأسد
١٤٩	حوادث
	السنة الرابعة
	سرية عبد الله بن عبد
١٥٣	الأسد إلى قطن
١٥٤	سرية بعث الرجيع
١٥٥	سرية بثر معونة إلى المنذر بن عمرو
١٥٦	غزوة بني النضير
١٥٧	غزوة ذات الرقاع
١٥٨	غزوة بدر الآخرة
١٥٩	حوادث
	السنة الخامسة
١٦١	غزوة دُومة الجندل
	غزوة بني المصطلق
١٦٢	أو المريسيع
١٦٥	حديث الإفك

٩٣	أول جمعة
٩٣	النزول على أبي أيوب الأنصاري
٩٤	نزول المهاجرين
٩٥	أخوة الإسلام
٩٦	هجرة أهل البيت
٩٦	حُمى المدينة
٩٦	منع المستضعفين من الهجرة
	السنة الأولى
٩٩	بناء المسجد
١٠٠	بدء الأذان
١٠٢	يهود المدينة
١٠٤	النافقون
١٠٤	معاهدة اليهود
١٠٥	مشروعية القتال
١٠٧	بدء القتال
	سرية حمزة بن عبد المطلب إلى
١٠٧	العيص
١٠٨	وفيات
	السنة الثانية
١١١	غزوة ودّان أو الأبواء
١١١	غزوة بواط
١١٢	غزوة العشيرة
١١٢	غزوة بدر الأولى أو سفوان
	سرية عبد الله بن جحش إلى بطن
١١٣	نخلة
١١٤	تحويل القبلة
١١٤	صوم رمضان
١١٥	صدقة الفطر
١١٥	زكاة المال
١١٥	غزوة بدر الكبرى
١٢٦	أسرى بدر

سرية عمرو بن أمية	١٦٩
الضمري إلى أبي سفيان	١٧٢
غزوة الحديبية	١٧٤
بيعة الرضوان	١٧٤
صلح الحديبية	١٧٧
مكاتبة الملوك	١٨٠
كتاب قيصر ملك الروم	١٨٢
حديث أبي سفيان	السنة السادسة
كتاب أمير بصري	سرية محمد بن مسلمة إلى القُراء
كتاب الحارث بن أبي	وحدث ثمامة
شمر الغساني	غزوة بني لحيان
كتاب المقوقس ملك القبط	غزوة الغابة أو ذي قرد
كتاب النجاشي ملك الحبشة	سرية عكاشة بن محصن
كتاب كسرى ملك فارس	إلى الغمر
كتاب المنذر بن ساوى	سرية محمد بن مسلمة
ملك البحرين	إلى ذي القصة
كتاب ملكي عمان	سرية زيد بن حارثة إلى الجموم
ابني الجلندي	سرية زيد بن حارثة إلى العيص
كتاب هوزة بن علي	سرية زيد بن حارثة إلى الطرف
ملك اليمامة	سرية زيد بن حارثة
السنة السابعة	إلى وادي القرى
غزوة خيبر	سرية عبد الرحمن بن عوف
زواج صفية رضي الله عنها	إلى دومة الجندل
النهي عن نكاح المتعة	سرية علي بن أبي
رجوع مهاجري الحبشة	طالب إلى فذك
فتح فذك	قتل أبي رافع أو سرية
صلح تيماء	عبد الله بن عتيك
فتح وادي القرى	سرية عبدالله بن رواحة
إسلام خالد ورفيقه	إلى أسير بن رزام
سرية عمر بن الخطاب إلى تربة	قصة عكل وعرينة
سرية بشير بن سعد إلى بني مرة	

٢٤٧	سرية قيس بن سعد إلى صداء ..
٢٤٧	وفود صداء
	سرية عيينة بن حصن
٢٤٨	إلى بني تميم
٢٤٨	وفود تميم
	سرية الوليد بن عقبة
٢٤٩	إلى بني المصطلق
	سرية علقمة بن مجز
٢٥٠	إلى طائفة من الحبشة
	السنة التاسعة
٢٥١	سرية علي إلى هدم الفلس
٢٥٢	وفود عدي بن حاتم
٢٥٣	غزوة تبوك
٢٥٦	وفود صاحب أيلة
٢٥٦	كتاب صاحب أيلة
٢٥٦	كتاب أهل أذرح وجرباء
٢٥٧	مسجد الضرار
٢٥٧	حديث الثلاثة الذين خلفوا
٢٥٩	وفود ثقيف
٢٦٠	كتاب أهل الطائف
٢٦٠	هدم اللات
٢٦١	حج أبو بكر
٢٦١	وفاة عبد الله بن أبي بن سلول ..
٢٦٢	وفاة أم كلثوم
	السنة العاشرة
٢٦٣	سرية خالد بن الوليد إلى نجران
	سرية علي بن أبي طالب
٢٦٣	إلى بني مذحج
٢٦٤	بعث العمال إلى اليمن
٢٦٥	حجة الوداع
٢٦٥	خطبة الوداع

٢١٩	سرية بشير بن سعد إلى يمن
٢١٩	عمرة القضاء
٢٢٠	زواج ميمونة رضي الله عنها
	السنة الثامنة
	سرية غالب بن عبد الله الليثي
٢٢١	إلى بني الملوح
	سرية غالب بن عبد الله الليثي
٢٢٢	إلى فذك
	سرية كعب بن عمير
٢٢٢	إلى ذات أطلاق
٢٢٢	غزوة مؤتة
	سرية عمرو بن العاص
٢٢٥	إلى ذات السلاسل
٢٢٦	سرية الحبط
٢٢٧	غزوة الفتح الأعظم
٢٣٢	العفو عند المقدرة
٢٣٥	وفود كعب بن زهير
٢٣٦	بيعة النساء
	هدم العزى أو سرية
٢٣٧	خالد بن الوليد
	هدم سواع أو سرية
٢٣٧	عمرو بن العاص
	هدم مناة أو سرية
٢٣٧	سعد بن زيد الأشهلي
٢٣٨	غزوة حنين
	سرية أبي عامر الأشعري
٢٤١	إلى أوطاس
٢٤١	غزوة الطائف
٢٤٣	تقسيم السبي
٢٤٥	وفود هوازن
٢٤٧	عمرة الجعرانة

٢٩١	كلامه المعتاد ﷺ
٢٩٢	شرف نسبه ﷺ
٢٩٢	قلّة طعامه ونومه ﷺ
٢٩٣	عظيم جاهه ﷺ
٢٩٤	عظيم قدره بالنبوة ﷺ
٢٩٤	زهده في المال ﷺ
٢٩٥	حسن خلّقه ﷺ
٢٩٧	حلّمه وعفوه مع القدرة ﷺ
٢٩٨	جوده وكرمه ﷺ
٢٩٨	شجاعته ونجدته ﷺ
٢٩٩	حيّاه ﷺ
٣٠٠	حُسن عشرته ﷺ
٣٠١	شفقته ورحمته ﷺ
٣٠٢	وفاؤه وحسن عهده ﷺ
٣٠٢	تواضعه ﷺ
٣٠٣	عدله ﷺ
٣٠٤	وقاره ﷺ
٣٠٤	زهده ﷺ
٣٠٥	خوفه من ربه وطاعته ﷺ
	معجزاته عليه
٣٠٩	الصلاة والسلام
٣١٠	القرآن الكريم ووجوه إعجازه
٣١٧	انشقاق القمر
	نبي الماء من بين أصابعه
٣١٧	وتكثير الطعام ببركته
٣١٩	حنين الجذع
٣٢٠	إبراء المرضى وذوي العاهات
٣٢٠	إجابة دعواته ﷺ
	إطلاع الله له على
٣٢١	علم ما لم يكن
٣٢٣	المحتوى

٢٦٨	الوفود
٢٦٨	وفود نجران
٢٦٩	وفود ضمام بن ثعلبة
٢٧٠	وفود عبد القيس
٢٧١	وفود بني حنيفة
٢٧٢	وفود طيء
٢٧٢	وفود كندة
٢٧٣	وفود أزد شنؤة
٢٧٣	وفود رسول ملوك حمير
٢٧٣	كتاب ملوك حمير
٢٧٤	وفود همدان
٢٧٥	وفود تحيب
٢٧٥	وفود ثعلبة
٢٧٦	وفود بني سعد هذيم
٢٧٧	وفود بني فزاره
٢٧٧	وفود بني أسد
٢٧٨	وفود بني عذرة
٢٧٨	وفود بني محارب
٢٧٨	وفود غسان
٢٧٩	وفاة إبراهيم بن النبي ﷺ
	السنة الحادية عشرة
	سرية زيد بن حارثة
٢٨١	إلى أهل أبي
٢٨٢	مرض الرسول ﷺ
٢٨٣	صلاة أبي بكر بالناس
٢٨٤	وفاة رسول الله ﷺ
٢٨٧	شمائله عليه الصلاة والسلام
٢٨٨	صفاته الخلقية
٢٨٩	نظافة جسمه وطيب ريحه ﷺ
٢٩٠	وفور عقله وقوة حواسه ﷺ
٢٩١	فصاحة لسانه ﷺ

